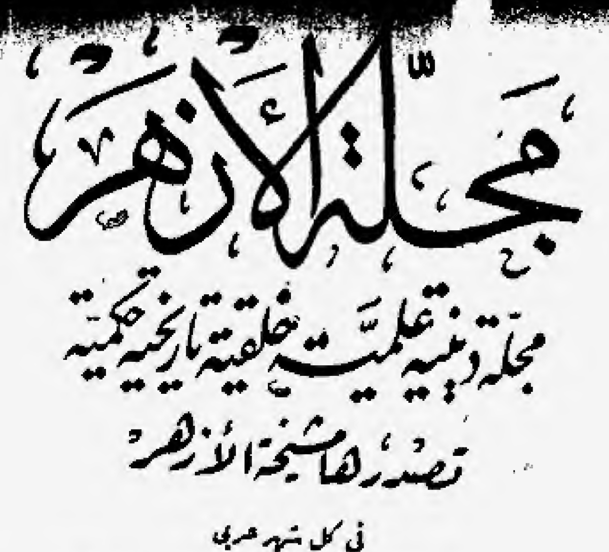


في كل شهر عربي

الجزء التاسع	٨ رمضان سنة ١٣٥٦	المجلد الثامن

مدير إدارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الإدارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

داخل القطر المصرى ... ...
خارج القطر المصرى
للعلماء غير المدرسين وا
والمأذونين
الاولية والطـ
وبجالس
للطلا

ثمن الجزء الواحد ٣ قروش صا

معا

فهرس

الجزء التاسع — المجلد الثامن

الموضوع	بقلم	صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

فى النفس البشرية

— ١٠ —

المقومات التعاملية

تتالف الجماعات البشرية من طوائف مختلفة ، من طبقات شتى ، ومنها مايدين بأديان غير دين الكثرة ، تحتاج فى إقامتها الى مؤسسات لتأدية العبادة ، والى معاهد لتربية النابتة ، فلم نر فى الأمم أمة جرت من هذا التخالف على سمت يرضى الانصاف والعدل ، ويوفى حق الانسانية والمروءة ، غير المسلمين ، من أول ما خلق الله الخلاف بين الناس الى اليوم .

بدأ الناس حياتهم الاجتماعية لا يطيقون من يخالفهم ، فكانوا يقتلون الأجنبى كائنا من كان ، وقد دفعتهم هذه الضراوة الى قتل كل غريب عنهم كما يقتلون الهوام السامة ، وقد بقيت هذه العادة الى عهد الرومانيين ، وقد قامت دولتهم قبل الميلاد بنحو سبعمائة سنة . فكان الأجنبى أو المتَـجر لا يستطيع أن يضع قدمه فى أية بقعة من بلادهم المترامية الأطراف إلا إذا دخل تحت حماية وطنى رومانى ، وإلا قبض عليه وقتل ولا كرامة .

فاذا كانت أمة من عادتها أن لا تسرف فى إراقة الدماء ، اكتفت بأسر من ليس منها ، وحملته من التكاليف ما يهون عليه الموت فى نظره .

أشد ما لقيت الجماعات بعضها من بعض ، إذا كانت متخالفة فى الدين ، فان هذا التخالف لا يهوّنه شىء فى عرفها ، حتى ولا توقع الخطر على وجودها ، فهى لا تفتأ تثور على مخالفيها فى العقيدة وإن كانوا من بنى جلدتها ، غير مراعية عدلا ولا مرحمة . وهذا يرجع الى نوع التعاليم الدينية التى تلَـقَّـنها ، والى روح الحقد الذى يبثه القائمون على عقائدها فى روع العامة ضد الآخذين بالأديان الأخرى .

أما الاسلام فقد حسم مادة هذه النزعة الجاهلية بعلاج لا يتصور أحكم منه . ذلك أنه صرح بأن الله لو أراد لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه خالف بينهم فى الميول والعواطف والمذاهب والعقائد لحكمة بالغة ، فقال تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم »

فالمسلم إذا قرأ هــذه الآية وعلم أن هذا التخالف مرادٌ لله تعالى سكنت نفسه الى الحق ، وسلم للخالق فيما أراد ، وسلك حيال هــذه المسألة مسلك الحكيم الذى لا تدفعه أهــواؤه الى مجاوزة العدل .

فاذا تلا قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » ، أدرك أن الحروب الدينية إنما شرعت فى الاسلام للدفاع عن الحوزة ، وللحصول على الحرية التامة فى تأدية الشعائر ، ولم تشرع لإبادة الأمم المخالفة واصطلامها ، كما حدث من الأمم غير المسلمة .

فاذا قرأ ما جاء عقب هذه الآية مباشرة من الكتاب الكريم وهو قوله تعالى : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ، عرف أن الحكمة فى هذا النهى عادلة كل العدل ، فليس مما يعقل أن يتخذ قوم قوما أولياء وهم يقاتلونهم من أجل دينهم ، وقد أخرجوهم من بلادهم ، وأعانوا على إخراجهم . فالحكمة فى مقابلة عدوانهم بمثله ظاهرة بحيث لا يختلف فى حقيتها اثنان فى هذا العالم .

أما فى غير هذا الموطن فان المسلمين عاشوا مع غيرهم من أهل الملل والنحل المتباينة على صفاء ووئام فى أنضر عصور الاسلام ، فكان يسكن المسيحى واليهودى والمجوسى بجوار المسلم فيتزاورون ويتهادون لا يفصلهم إلا المسجد والكنيسة أو البيعة . كان غلام لابن عباس يذبح شاة فقال له يا غلام : لا تنس جارنا اليهودى ، ثم كررها حتى قال له الغلام : كم تقول هذا ؟ فقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصانا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه . فابن عباس بنص هذا الأثر كان مجاورا ليهودى ، وكان يهتم بالاهداء اليه كما يهتم بسواه مراعاة لحرمة الجوار . ومعنى ذلك أن الاسلام لا يفرق فى مكارم الأخلاق وحقوق الاجتماع بين مسلم وأى مخالف كان، فالكل فى نظره سواء .

فهذه العدالة فى تقدير حقوق المتعاشرين ، تؤسس المعاملة على قرار ثابت ركين ، ولا تدعها عرضة للزعازع ، فيسوء ظن المتعاشرين ، ويبيت بعضهم لبعض شر مايوسوس به الحقد الدفين .

إن الذين يبثون سموم التفريق بين الناس فلسفة خاصــة ، أساسها سوء الظن بالمخالفين فى الدين ، وقد تروج نظرياتهم فى أذهان السامعين ، وتبتنى على ذلك حوادث خطيرة تذهب فيها أرواح بريئة ، وتتأسس على هذه الحوادث ضغائن لا يخبو سعيرها ، يتوارثها الأبناء عن الآباء فى الأمة الواحدة ، فتكون مثارا لاضطرابات عنيفة .

لقد اتقى الاسلام على كل هذه القلاقل التى لا تناسب مدنية فاضلة لأمة كريمة ، فوضع للمعاملات أصولا ، وللمعاشرة آدابا ، لا تسمح بحال من الأحوال للامة التى تأخذ بها أن تثور

على طائفة من طوائفها تاخذ بدين غير دينها ، أو تحيف على طبقة من طبقاتها الضعيفة . وقد دل تاريخ المسلمين على هذه الحقيقة . ففى عصر الصحابة رأينا أن النظام الذى وضعه الاسلام يسمح للمخالف فى الدين ، أن يقاضى أرفع رأس فى المسلمين وأن ينتصف منه ، وشاهدنا أن ذلك النظام نفسه يمنح للمستضعفين، من الأرقاء والمحرومين، أن يطالبوا بحقوقهم من الكبراء والأعلين ، فسمعنا أن يهوديا شكا على بن أبى طالب فحكم بينهما عمر بن الخطاب ، وأن أرقاء شكوا ساداتهم فحكم لهم عليهم .

فهذه الروح الاجتماعية المطمئنة ، لأمة اختارها الحق لتطبيق العدل المطلق الطبيعى ، وبناء صرح الاجتماع العالمى ، ثمرة التعاليم الاسلامية الحكيمة ، والسيرة النبوية القويمة .

أما التعاليم الخاصة بهذا الشأن ، فمنها الآيتان اللتان اقتبسناهما آنفا ، وفيهما نص على وجوب معاملة الأجانب عن ديننا بالعدل ، وإسداء البر ، والبر فوق العدل ، فهو لا ياتى إلا من العطف والحنو وإرادة الخير . فلا يعقل أن تسىء أمة الى طوائف أمرت أن تعاملها بالعدل ، وأن تزيد عليه فتسدى اليها البر .

ومن تلك التعاليم الحكيمة قوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك ، الىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . فى هذه التوصية يسوى الحق سبحانه وتعالى بين الوالدين المؤمنين والوالدين المشركين ، فى وجوب الاحسان اليهما والبر بهما . ولا يصادَف مثل هذا السمو التعليمى فى أى مصدر علمى غير القرآن ، ولا فى أى مذهب اجتماعى سوى الاسلام .

ومن تلك التعاليم الكريمة قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » . فى هذه الآية الشريفة يتجلى السمو الاسلامى فى أكمل مظاهره . فان الاسلام ينهى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالطريقة التى هى أحسن الطرائق ، أى مع مراعاة البر والعطف ، وملاحظة أصول الأدب والظرف ، ويستثنى الذين ظلموا منهم بالافراط فى التعدى ، فاولئك يعاملون بما يناسبهم على مقتضى قواعد العدل ، كما وصى بذلك فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : « ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على أن لا تعدلوا معهم ، كلا ! اعدلوا حتى مع أعدائكم فان العدل من خلق أهل التقوى .

ومنها قوله تعالى : « اليوم أُحل لكم الطيباتُ ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حِل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ،

إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ، ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، وليس فوق المؤاكلة والمصاهرة من داعية للتحابّ وحسن المعاشرة ، والاخلاص فى المعاملة .

وأما السنة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم فهى أنه كان يوادّ أهل الكتاب ، ويزورهم ويقبل زياراتهم ، وكان يحضر ولائمهم ومآتمهم ، ويشيع جنازاتهم ويعود مرضاهم ، ويكرمهم ، حتى قيل إنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته وأمرهم بالجلوس عليها . وأمر من كان له أب أو أم أو قريب أو زوجة منهم أن لا يمنعهم إقامة شعائرهم ، والتردد على كنائسهم ، وأن لا يرهقهم بتشكيكهم فى ملتهم . وهذا نهاية ما يستطيع أن يقرره مشترع مدنى . فاذا كان الاسلام منع تزويج المسلمة بغير مسلم ، فذلك لعدم وجود مثل هذه الوصايا من التسامح فى سائر الأديان ، بل فيها ما يدفع الى ضده . فأى قاض فى أية محكمة ملية يحكم على زوج بالسماح لامرأته فى التردد على كنيستها ، ويعاقبه إن لم يسمح لها بذلك ، كما تفعل كل محكمة شرعية إسلامية ؟ وما دامت هذه الضمانات غير موجودة فى تشريعات الأديان المختلفة ، فلا حرج على المسلم أن يضن بابنته على أهل ملة يرون البر كل البر بأديانهم أن يمنعوها من تأدية شعائرها ، وأن يفتنوها فى عقائدها .

هذه فذلكة من مذهب الاسلام ، فى إقامة المعاملات على أصول راسخة من الحكمة ، وسعة الصدر ، وبعد النظر ، والاعتداد بمصلحة الجماعة ، وقد اخترنا أن نأتى بها فى حق المخالفين فى الدين ليكون أبلغ فى الدلالة على سمو تعاليم الاسلام ، وأصالتها فى الحرية .

أما ما قرره الاسلام من الأصول التى تقوم عليها المعاملات على وجه عام بصرف النظر عن اختلاف الأديان ، وتباين المذاهب ، فهى مما لا تتسع لتفصيل الكلام فيه مقالة فى مجلة ولا مجلة برمتها . فان منها ما يتعلق بحسن الزمالة للخلق كافة ، وبالقيام بحقوق الأخوة للمؤمنين خاصة ، ومنها ما يتصل بتحديد حقوق النفس وحقوق الغير ، وما يختص بالاستقامة ، والعدل ، والتفضل ، والرحمة ، والاحسان ، مما يقيم المعاملات على أساس محكم بحيث يصبح مع الزمن طبيعيا فى الجماعة الآخذة بالاسلام .

وقد دل تاريخ المسلمين من أول نشوئهم الى اليوم ، أنهم كانوا من ناحية المعاملات فى حدود المثل الأعلى ، ليس فيما بينهم فحسب ، ولكن فيما بينهم وبين الأجانب عنهم ، فقد قدسوا مبدأ حسن المعاملة حتى قرر حكماؤهم أن الدين المعاملة . وهذه كلمة لم تؤثر عن غيرهم من الأمم .

وقد عايش المسلمون فى جميع أدوارهم أصحاب الملل المختلفة ، فلم يرو عنهم أنهم اضطهدوهم ، أو تهضموا حقوقهم لحملهم على الاسلام ، اللهم إلا فلتات من قادة متحمسين ، خطأهم ونعى عليهم سيرتهم علماء الدين نفسه ، وكانت مدتهم كسحابة صيف لم تلبث أن انقشعت ، وقد لقى المسلمون أنفسهم منهم أكثر مما لقيه سواهم من الأجانب عنهم .

ناهيك أن جماهير من أهل الملل هاجروا الى بلاد المسلمين هربا بأديانهم من الأمم الأجنبية ، فأكرم المسلمون وفادتهم ، وعلى رأسهم خلفاؤهم وقادتهم ، وقربوا علماءهم واتخذوا منهم المترجمين ونقلة العلوم الى العربية ، وجعلوا منهم أطباء خصوصيين لهم ، وأغدقوا عليهم الأموال والجوائز ، حتى كانوا يضارعون أمراء المسلمين فى معايشهم . وسمحوا لهم ببناء الكنائس والبيع ، وعاملوهم والمسلمين على حد سوى .

وفى السنين المتأخرة كانت طوائف من اليهود تلجأ الى بلاد المسلمين ، هربا من المذابح التى كانوا يتعرضون لها فى بلاد المتمدنين ، فكانوا يجدون من مجيريهم كرما وحسن رعاية ، حتى غصت ممالكهم بمئات الألوف منهم .

هذه الخصلة من حسن المعاملة ، هى معيار الحياة المدنية فى الأمم ، والمظهر الحقيقى لسمو نفسيتها ، ورسوخ ثقافتها . فأما إتقان الصنائع والفنون ، وكثرة المكتشفات والاختراعات ، التى يتخيل بعض السطحيين أنها حقيقة المدنية ، فليست منها فى شىء إن لم يصحبها نصيب معادل لها من المعاملة الحسنة والرفق والرحمة .

فهذه الميزة التى يتحلى بها المسلمون بفضل دينهم ، يجب عليهم المحافظة عليها ، وعدم الصبوء عنها الى خصال من التقاطع ، والتزاحم ، والأنانية ، مما يجدونها فى بعض الأمم الراقية ويظنونها من أخص معانى المدنية ، فاذا كان شىء يربط بين آحاد الأمم برباط لا ينحل ، ويجعل من مجموعهم وحدة لا تنفصم ، ويؤهلها للسمو الذى كتب للانسانية أن تصل اليه ، فهو حسن المعاملة ، فان لم يوجد أوشك أن ينهار بناء المجتمع ، ولا تغنى عنه العلوم العالية ، ولا الفنون الباهرة ، ولا القوى المدخرة .

محمد فريد وجدى

الشرف يتبع صاحبه

قال خالد بن صفوان : كان الأحنف بن قيس يفر من الشرف والشرف يتبعه .

وقد جمع عبد الله بن خليد خصال الشرف فقال :

يامن يؤمل أن تكون خصاله	كخصال عبد الله أنصت واسمع
أصدق وعف وبر وانصف واحتمل	واكفف وكاف ودار واحلم واشجع
والطف ولن واشتد وارفق واتئد	واحزم وجد وحام واحمل وادفع
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتى	وهديت للنهج الأسد المهيع

السُّنَّة

الدعوة الى الله تعالى و أهل الفترة

روى البخارى « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى بن أبى طالب فى غزوة خيبر : على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأنْ يَهدىَ الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْر النعَم »

يتعلق بهذا الحديث أمور : (١) بيان معناه (٢) هل تفترض الدعوة الى الله بالقول .

والبرهان قبل المنازلة بالسيف (٣) ما حكم من لم تبلغه الدعوة الى الله فهل هو ناج فى الآخرة أولا .

(٤) هل أبو النبى صلى الله عليه وسلم وأمه وأجداده ، من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة الى الله أولهم حكم خاص بهم ، وما معنى النصوص الواردة فى هذا المقام ؟

(١) معنى الحديث ظاهر . وحاصله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر فى السنة السابعة من الهجرة ، وكانت خيبر مدينة عظيمة قريبة من مدينة يثرب يقطنها سراة اليهود ورءوسهم يومئذ ، وكانت محصنة بحصون تناسب ذلك الزمان ، فلما هاجمها المسلمون بدأ المعركة أبو بكر رضى الله عنه ولكنه لم يتمكن من حصونها ، فهاجمها فى اليوم التالى عمر رضى الله عنه فلم يتمكن من فتحها أيضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . وفى الصباح طلب على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقالوا له يارسول الله : إنه أرمد يشتكى مرض عينيه ، فدعا له الرسول فشفاه الله تعالى ، فأعطاه الراية ، فقال يارسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : على رسلك — أى على مهلك — حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام وبيّن لهم ما يجب عليهم فإنهم إن اقتنعوا بذلك وهداهم الله تعالى على يديك كان خيرا من قتالهم ، وكان لك من الأجر ما تقر به عينك وتصبو اليه نفسك . وحمر النعَم معناه الابل الحمر ، وكانت عند العرب من أحب الأموال ، وقد تطلق النعَم على البقر والغنم أيضا .

(٢) أما الجواب عن الثانى فهو أن الدعوة الى الله بالقول والحجة الواضحة قبل استعمال العنف أمر لازم لابد منه ، فيفترض على كل من يتصدى لنصرة الدين الاسلامى أن يدعو المخالفين

الى الايمان بالله واليوم الآخر ، والإذعان الخالص بأنه واحد منزه عن التركيب والتحيز ، ومنزه عن مماثلة خلقه وعن كل ما لايليق به ، وأنه قد أرسل لعباده رسلا مبشرين ومنذرين يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ولا يسألونهم على ذلك أجرا ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين قد جاء بكل الفضائل ونهى عن كل الرذائل فى كل زمان ومكان ، ثم يبرهن لهم على ذلك ببيان قواعد الدين الحكيمة وأحكامه القويمة الناطقة بأنه هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فإن أبوا إلا الاصرار على الباطل ومناهضة الدعوة ووضع العقبات فى سبيلها ، كان من الضرورى مقابلة هذه الحالة بما يصون الدعوة ويحميها من العبث بها والقضاء عليها ، وإلا لما قامت لها قائمة . على أن الدين لم يحصر وسائل حماية الدعوة فى القتال ، بل اكتفى بأحد أمرين : إما النطق بالشهادتين ولو ظاهرا لأن علم القلوب عند الله وحده ولا سبيل الى التأثير على القلب بالاكراه كما قال تعالى « لا إكراه فى الدين » ، وإما دفع ضريبة خاصة تدل على خضوع المخالف وتسمى بالجزية . وذلك كان حالَ النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع حروبه ، فلم يبدأ أحدا بالقتال إلا بعد أن يتأكد من عناده ، ويتحقق أنه وصلت اليه الدعوة فناهضها .

ومجمل القول فى هذا المقام أن للنبى عليه الصلاة والسلام مع خصومه حالتين :

الحالة الأولى : الحيلولة بينهم وبين مقاومة الدعوة الى الله ، وحماية تلك الدعوة بكل الوسائل التى تقتضيها النظم المناسبة لحال هؤلاء الخصوم بصرف النظر عما فى قلوبهم ، فخيرهم الله بين أمرين : الجزية ، أو النطق بالشهادتين . فمن فعل ذلك كان له ـ فى هذه الحياة الدنيا ـ ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وإنما شرع الله ذلك لما فيه من بث الطمأنينة فى نفوس حماة الدعوة من جهة ، ولتكون عهدا بينهم وبين خصومهم من جهة أخرى ، بحيث لايجوز لهم أن يعتدوا عليهم بعد ذلك ، فإن أبوا كان القتال ضروريا .

ومن المغالطة الواضحة أن يقال : إن القتال هو الذى أرغمهم على الايمان ، فإنك قد عرفت أن الايمان ، وهو التصديق القلبى ، لا يمكن أن يوجد بالقوة ، فان المكره قد يقول بلسانه : آمنت ، وقلبه ممتلئ كفرا ونفاقا . وإنما القتال مكن للدعوة الى الله بصد المشركين عن مقاومتها والقضاء عليها .

أما الحالة الثانية : فهى القيام بالدعوة الى الله تعالى وتبليغ ما أمره الله به بالحجة والبرهان ليصدق الناس بقلوبهم بدون إكراه أو قتال . ولو أن المشركين تركوا رسول الله وشأنه فلم يقاوموا دعوته ولم يضطهدوه هو وأصحابه لما وقع بينه وبينهم قتال مطلقا ، لأن البراهين القاطعة والحجج الدامغة التى أيده الله بها خصوصا معجزة القرآن كانت كافية فى هداية الناس جميعا بدون شدة أو عنف . ولكنهم قد اضطهدوه هو وأصحابه فى مكة اضطهادا مرا حتى

أخرجوهم من ديارهم وأموالهم . وما كان ضرر اليهود بالمدينة وشرهم على الدعوة الى الله أقل من ضرر المشركين بمكة ، فانهم لم ينفكوا عن التآمر على إيذاء المسلمين سرا وجهرا، حتى بلغت بهم الجرأة الى التآمر على اغتيال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاضطر رسول الله هو وأصحابه الى أن يدافعوا عن أنفسهم بعد أن أذنهم الله بالدفاع ، قال تعالى : « أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا » .

من هذا كله يتضح أن الشريعة الاسلامية تجعل مدار بث الدعوة الى الله ونشرها على الحجة والبرهان ، وإنما شرعت القوة لحماية الدعوة من شر المعتدين عليها .

(٣) أما الجواب عن الثالث : فهو أن الذين لم تبلغهم الدعوة الى الله ناجون فى الآخرة ، فكما أنه لا يحل استعمال القوة معهم فى الدنيا قبل دعوتهم الى الله ، فكذلك لا يعذبهم الله فى الآخرة إلا إذا بلغتهم الدعوة . ولكن للأئمة فى هذه المسألة رأيان مختلفان : فأبو حنيفة يقول : إن شرط نجاتهم فى الآخرة أن لا يشركوا مع الله غيره لأن معرفة الله الواحد يكفى فيها العقل وإن لم ترسل الرسل . وهذا هو رأى الماتريدية . وقال المالكية : إن أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة ناجون وإن عبدوا الأوثان . وهذا هو رأى الأشاعرة . ولكننى أعتقد أن الأدلة تؤيد القائلين إن أهل الفترة ناجون ، لأن الله تعالى قال : « وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولا » وحمل الرسول على العقل بالنسبة لتوحيد الإله خروج على الظاهر المعقول بدون ضرورة ، فان الرسول إذا أطلق فى لسان الشرع كان معناه « الانسان الذى أوحى الله اليه بشرع وأمره بتبليغه » . والقرآن من أوله الى آخره على هذا . قال تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . وقال : « ثم أرسلنا رسلنا تترى » . وقال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » وهكذا . فإن استطاعوا أن يأتوا بكلمة رسول فى القرآن على غير هذا المعنى كان لهم بعض المعذرة . وذلك هو المعقول المطابق لسنن الله فى خلقه ، فإن الله سبحانه قد أرسل الرسل من بدء الخلق الى أن استقرت الشرائع وختمت بالشريعة الاسلامية التى لا تقبل الزوال ، بل قد جعل الله فى طبيعتها ما يجعلها تنمو وتزداد كلما تجدد الزمان لمكافحة الوثنية وتوحيد الإله . وليس من المعقول أن نقول إن الله قد أرسل الرسل لتبليغ الشرائع الفرعية وتبليغ أحوال الآخرة فقط ، أما معرفة الله الواحد المنزه عن كل ما لا يليق به فواجبة على الناس بطبيعتهم فعليهم أن يعرفوا ذلك من غير الرسل وإلا كانوا معذبين . إن مثل هذا الكلام غير معقول ألبتة لأنه ينقضه الواقع ، فإن أول شىء اهتم به الرسل هو توحيد الإله ، بل كان كل همهم فى التوحيد . ولولا ما أودعه الله فى الرسل من أسرار وقوى مؤثرة فوق طبائع البشر لما وجد على ظهر الأرض موحد ، اللهم إلا أفذاذ يعدون على الأصابع أمثال زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وكبار فلاسفة العالم . فهل يعقل أن الله العليم

بطبائع خلقه يكلفهم بالتوحيد بدون إرسال رسل ؟ إن ذلك يكون قصرا لنعيمه على أفراد قلائل من خلقه، وأين هذا من كرم الله ورحمته بعباده ؟ أين هذا من قوله « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ؟ وأى دليل يخصص الآية بغير توحيد الإله، فإن الله سبحانه جعل للناس الحجة عند عدم إرسال الرسل سواء أ كان ذلك فى العقائد أم فى غيرها .

ومن القريب فى هذا المقام أن مقاومة الرسل ما كانت إلا فى توحيد الإله، فإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ولوط وهود وصالح وشعيب وغيرهم لم يضطهدهم قومهم إلا من أجل التوحيد ومعرفة الإله، ولم يظهر جهادهم إلا فى توحيد الإله . ونظرة واحدة الى كتاب الله الكريم تبين مقدار عنايته بمحاربة الوثنية، فقد ملئ بالأدلة الكونية، وضرب الأمثال المحسة والحجج القطعية على وجود الإله ووحدانيته، ومع ذلك كله فقد كانوا من أشد الناس عنادا وإصرارا وغفلة عن الإله ووحدانيته . فهل مثل هؤلاء كانت عقولهم كافية فى معرفة الإله ؟ ولم تكن أمة موسى أمثل من هؤلاء، فإنهم بعد رؤية المعجزات الخارقة قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . وهكذا فى كل الأمم .

فالحق أن أهل الفترة ناجون فى الآخرة كما يقول الأشاعرة والمالكية، وبعض محقق الحنفية كالكمال بن الهمام، وإن عبدوا الأوثان .

هذا وقد أوّل بعض علماء الحنفية قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » بوجه آخر فقال : إن المراد بالعذاب عذاب الاستئصال فى الدنيا، ومعنى ذلك أن الله لا يهلك الأمم فى الدنيا إلا بعد أن يرسل لهم الرسل، فيضطهدوهم ولم يصدقوهم، وعند ذلك يهلكهم الله فى الدنيا، أما عذاب الآخرة فإنه يقع على من مات مشركا ولو لم يرسل الله له رسولا .

أما أنا فأقول : إن الآية تدل على عكس ذلك على خط مستقيم، وإليك البيان :

قال تعالى : « من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فالله سبحانه قد قصر هداية الشخص وضلاله على نفسه، وظاهر أن المراد قصر ما يترتب عليهما من نفع وضرر، فكل ما يترتب على هداية المرء من منفعة، وكل ما يترتب على ضلاله من ضرر، مقصور عليه وحده . وإذا كان كذلك فهل يتحقق هذا المعنى فى الدنيا فقط أو فى الآخرة فقط أو فيهما معا ؟ أما أنا فلا أفهم إلا إنه يتحقق فى الآخرة فقط، وذلك لأن منافع هداية الناس واستقامتهم ليست مقصورة عليهم وحدهم فى الدنيا، بل تتعداهم الى أبنائهم وأهلهم وعشيرتهم، بل تتعداهم الى المجتمع، وهذا واضح . وكذلك مضار الضلال ليست مقصورة على الضالين فقط، فكم صرع المضلون غيرهم وأوردوهم موارد الهلاك والفناء . وشر الضلال واضح فى تربية الأبناء والأهل، وآثاره ظاهرة فى المجتمع . وكذلك إذا قصرنا المنافع على ما يسوقه الله من خير، فان الخير الذى يجىء

بسبب الصالحين لا يقتصر عليهم بل يعم غـيرهم ، والشر الذى ينزل بسبب الضالين لا يقتصر عليهم ، ولهذاقال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ومن هـذا يتضح أنه لا يفهم فى الآية إلا أن المراد بالمنافع الثواب الأخروى ، وبالمضار العذاب الأخروى ، ولذا قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخـرى » فهو تعالى يقول : كل واحد ينال جزاء عمله من خير أو شر . قال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » فلا يعطى أحد ثواب عمل الآخر ، ولا يحمل أحد عقاب وزر صاحبه ، وكل هـذا فى الآخرة بدون نزاع ، أما فى الدنيا فإن صلاحها من أجل الصالحين يفيد غـيرهم من الفاسقين والـكافرين ، وفسادها بالخراب يؤذى أهلها سواء أ كانوا صالحين أم فاسدين . ثم بعد أن قرر الله ذلك أراد أن يظهر منته على عباده فقال عز وجل « وما كنا معذبين حتى نبعث رسـولا » فلا يؤاخذ الله الناس فى الآخرة بضلالهم ، ولا يعـذبهم على عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم التى لا يرضاها إلا بعد أن يرسل لهم رسلا « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » فإن لهم أن يقولوا إننا لا نعلم أن هذه العقائد أو هذه الأقوال أو الأعمال لا ترضيك ، فتـكون لهم المعذرة ، ولا يكون لله عليهم الحجة البالغة . ومن هـذا يتضح أن أهل الفترة ناجون ، وأن الدليل قائم على نجاتهم من كتاب الله ، وأن تأويل القرآن على أى وجـه يدل على أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل .

(٤) أما الجواب عن الرابع فهو أن أبوى النبى وأجداده من أهل الفترة بلا نزاع ، وهم عباد مكرمون عند ربهم بلا نزاع ، أما ما نقل عن أبى حنيفة من أنه قال إن أبوى النبى غير ناجين فذلك مبنى على ما رآه من أن أهل الفترة غير ناجين . وقد عرفت أنه ضعيف ، وأن الدليـل قائم على خلافه .

ومع ذلك فإنه لم يثبت كون أبوى النبى وأجداده غير موحدين ، بل بالعكس قد نقل كثير من الثقات أنهم كانوا يعرفون وحدانية الله تعالى من شريعة ابراهيم ، وكانوا يدينون بها ، وما قيل من أن هذا النقل ورد عن الرافضة وحدهم فهو غير صحيح ، لأن كثيرا من الباحثين الفضلاء نقل أنهم كانوا موحدين . وعلى فرض أن هذا القول ينسب لبعض الرافضة فإنه لا يضر ، لأن هذه مسألة تاريخية يؤيدها العقل والمنطق السليم . فقد ورد أن نور النبى صلى الله عليه وسلم كان ينتقل فى الأصلاب والأرحام الطاهرة حتى وصل الى عبد الله وآمنة . وقد قص الله على أن المشرك نجس قال تعالى : « إنما المشركون نجس » فكيف يتنقل نور النبى فى الأصلاب التى حكم الله بأنها نجسة كنجاسة الخنزير . وأيضا فقد ذكروا أن آمنة كانت تزفها الملائكة ، وأن نور النبى كان يشرق فى جبين أبيه عبد الله . فهل المشركون تحفهم الملائكة وينزل الله عليهم من فيضه ما لم ينله أقرب المقربين ؟ إن هذا تناقض واضح لا يليق . والذى أيد مثل هذه الشبهة الفاسدة ما رواه مسلم والبخارى

من أن رجلا من المسلمين سأل النبي عن أبيه الذى مات مشركا فقال له الرسول : إنه فى النار ، فامتعض الرجل وانصرف ، فاستدعاه النبي صلى الله عليه وسلم وقال له : إن أبى وأباك فى النار . ونص الحديث هو « أن رجلا قال يا رسول الله أين أبى ؟ قال : فى النار . فلما قفا دعاه فقال إن أبى وأباك فى النار » . ولا أدرى كيف يفهم مفكر من هذا الحديث أن المراد أبواه عليه الصلاة والسلام ؟ لأنه يقول للرجل الذى جزع لا تجزع لأن الذى لا يجيب دعوتى ولا يؤمن بى ويموت مشركا يدخل النار ولو كان أبا لى . وهو صلى الله عليه وسلم يريد بذلك أبا لهب لأنه يطلق على العم أب ، وقد أخبره الله تعالى بأن أبا لهب فى النار قطعا . وليس من المعقول المناسب أن يخبر بأن أبويه فى النار وهما لم يعارضاه فى دعوته ولم يرفضا ما جاء به ، لأنه لا فائدة فيه للناس ، وإنما فائدة هذا الإخبار زجر المشركين الذين يعارضون دعوته ويقاومونه ، فأبو لهب وهو أقرب الناس اليه عذبه الله بالنار لأنه أشرك بالله وقاوم الدعوة الى الله .

هذا هو اللائق بفهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلا فما ذنب أبيه وأمه حتى يخبر عنهما أنهما فى النار بدون فائدة ؟ فاذا ورد حديث صحيح يجب أن يفهم فهما مطابقا لكتاب الله تعالى المؤيد بالعقل والمنطق ، ومن لم يستطع تأويله تأويلا معقولا يجب عليه أن يستمسك بكتاب الله ويقف مع الحديث موقف المفوض الذى عجز عن التأويل . والله يعصمنا من الزلل ، إنه سميع الدعاء .

عبد الرحمن الجزيرى

من خير الأعمال التنفيس عن المكروب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » .

ويقال : من كفارات عظائم الذنوب إغاثة الملهوف والتنفيس عن المكروب .

وقيل : أفضل المعروف إغاثة الملهوف .

ومن الأخبار التى تؤثر فى هذا الباب ما روى أن حاتما الطائى مر بأرض غزة فناداه أسير يا أبا سفانة أكلنى القد والأسار والقمل . فقال له ما أنا بأرض قومى وقد أخطأت إذ نوهت باسمى ، ولا معى ما أفديك به . ثم قال للذى هو فى يده : خل عنه سبيله واجعلنى فى القد مكانه ، ففعل ، وبعث الى قومه فأتوه بما فدى به نفسه .

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه

— ٣ —

كثرة البراهين على وجود الله

لعلك عرفت مما كتبناه ردا على ذلك الملحد أن وجود الله لدى العقل السليم أوضح الواضحات ، فان الأشياء الثابتة فى الوجود يمكنك أن تقيم عليها دليلا أو دليلين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة ، ولكن وجود الحق سبحانه وتعالى لا تقف الأدلة عليه عند حد ، فلا يقال إن له مائة دليل أو ألف دليل أو عشرين ألف دليل ، فان كل شيء فى الوجود دليل عليه وموصل اليه .

وقد قال أبو العتاهية :

وفى كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

وقال بعض العلماء فى قوله تعالى « وهو بكل شيء عليم » : إن عليما هنا بمعنى معلوم ، فيكون المعنى : إن الله معلوم بكل شيء من الأشياء ، فان كل شيء يعطيك العلمَ به والدلالةَ عليه . وإذا كان وجوده تعالى أوضح الواضحات ، وكانت براهينه قد ملأت الأرضين والسموات فخرجت عن الحد والعد، كان منكر وجوده أعظم المجانين، وأحط المساكين، يرثى له ويبكى عليه ، فان من صادم برهانا واضحا حكمنا عليه بالاختلال والاعتلال ، فكيف من خالف مالا يحصى من البراهين ، فضلا عما تنادى به فطرته التى أخمد صوتها وأمات ضميرها ؟

يشكون والايمان ملء قلوبهم ... ويبدون ما تلك القلوب تكذبه

« أفى الله شك فاطر السموات والأرض » . « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » ، ولكن هؤلاء محبوسون فى سجن الماديات قد أحاطت بهم الظلمات ، فلا يعرفون إلا المكيفات ، ولا يعترفون إلا بالمحسوسات . وكان عليهم أن ينكروا أرواحهم فانها ليست بمحسوسة ، ولا يصدقوا عقولهم فانها ليست بمحسوسة ، وكل مالم يقع عليه الحس عندهم فليس بموجود . (فلا أدرى كيف يناضلوننا بما لا وجود له عندهم ، وكيف يثقون بتلك العقول وهى لا تنتمى الى المادة بنسب ولا تمت إليها بسبب !) . فان المادة فى ذاتها بريئة من الحياة فضلا عن العقل والادراك ، وفاقد الشيء لايعطيه . فمن أين جاء العقل والادراك وليس هناك إلا المادة الصماء البكماء العمياء على ما يزعمون ؟

ولقد صدق باكون أحد أساطين علم الطبيعة حيث يقول : من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ، ومن شرب به عبا أوصله الى الخالق .

فهل يصح بعد مايقول العلم كلمته فى تكوين هذا العالم الفسيح من قوى كهربائية قهرها الله بقوته العالية ، فاتخذت ما اتخذت من أشكال وألوان ، وحملت ما حملت من خواص كان لها أثرها فى الحياة العالمية نباتها وحيوانها وإنسانها ، هل يصح بعد ذلك كله وبعد نظر الانسان فى نفسه وما ركب فيه من أعضاء نيط بكل عضو منها وظيفة خاصة (تمت له بها الحياة العالية حتى صار أرقى المخلوقات) ومافيه من الكريات البيضاء والحمراء ، وما لها من عمل فى الجسم الانسانى ، وما فيه من غدد أبان العلم الحديث ما لها من آثار وما فيها من أسرار ، الى آخر ما فى هـذا الكون الباهر من ليل ونهار وشموس وأقمار ، وأرض وسماء وماء وهواء . هل يمكن من ينظر نظرة بسيطة فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، أن ينكر قدرة خالقه العظيم ، أو حكمة صانعه الحكيم ؟

انظر الى وقوف الأرض فى نقطتها المخصوصة ، ولو جعلها بعيـدة من الشمس بعـدها من بنات نعش مثلا لما انتفعت بضوئها وحرارتها ، وهما ضروريان للنمو والحياة ؛ ولوجعلها قريبة منها جدا لاحترق كل ما عليها من نبات وحيوان ، ولأصبحت طبقة من طبقات جهنم . فسبحان الحكيم العليم . الى آخر ما لا يحصيه العد ولا يأتى عليه البيان .

ألا إن طريق الحق قد بانت معالمه واضحة جلية ، وهل بعد الحق إلا الضلال ، وبعد الرشد إلا الخبال !

إنى لأعجب والله كل العجب كيف يسوغ لانسان فيه ذرة من العقل أن ينكر وجود الله الذى خلق الأكسجين والأدروجين ثم ألف بينهما بقوته العالية فصير منهما ماء ملأ به ثلاثة أرباع الكرة الأرضية . وليت شعرى هل يستطيع أحد أن يقدر القوة التى أتت بهذا العمل الذى كان من نتائجه هذه المحيطات الهائلة وهذه السحب التى نراها فى كل حين وفى كل صقع تنزل وتحيي موات هذا الكون الفسيح !

إنى أعجب والله ، لولا إيمانى بالقدرة الباهرة ، كيف تسنى لعقول قوم من بنى آدم أن تقبل إنكار وجود الله وما هو إلا إنكار أنفسهم بل إنكار كل شىء فى الوجود !

أيصح إنكار الله الذى كون الأحياء من الأرض الميتة ، ثم كون الهواء والماء لعلمه أنه لا بد للأحياء منهما ؟

أينكر الله الذى يدبر الأرض فى حركة يومية وسنوية ، وينقل القمر من المشرق للمغرب ، ويمسك الكواكب أن تقع على الأرض . هل فى إمكان العقل تقدير تلك القوة التى فعلت ذلك كله ، وتلك الحكمة التى نظمته على مر الملايين من السنين .

وكأنى بلسان الحضرة الإلهية يقول لأولئك الملحدين : إننى سخرت لكم الأرض وذللت لكم البقر تحرثون وتزرعون ، فإذا فرغتم منه ورفعتم أيديكم عنه توليته دونكم وأنتم قيام

تنظرون ، فمرة أنميه بالحر ومرة بالبرد حتى أبلغه أوان حصاده ، وسخرت لكم الحديد لتحصدوه به ، والريح تذرونه به ، ولو أمسكته عنكم فضلا عن غيره لتحيرتم وما صنعتم شيئا . فكيف تكفرون ولا تشكرون !

انظر الى ملايين النجوم وما بينها من الأبعاد الشاسعة ، وما لها من الأجرام الكبيرة التى تدهش العقل ، وما قدر لها من الدوران العجيب أمره الخفى سره ، وما بينها من الاختلاف فى الأضواء والخواص ، تعالى الله عن أن يحيط أحد علما بكمالاته ، أو يصل الى تحديد كنه صفاته . لعمر العلم إن الأمر لأوضح من الشمس وأظهر من الحس . ولكن الذى يتكلم بغير عقل ولا علم لا يصلح لهدايته أحد ولا ينفع فيه أى برهان : « وإن يرَوْا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » . والانسان مجمع العجائب والغرائب . فليفر من الميدان خجلا أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى بعد أن أماتوا ضمائرهم وضغطوا على شعورهم حتى ذهب منهم كل وجدان ، فأصبحوا وقد وجب إسقاطهم من سجل نوع الانسان « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » !

وما أشبههم بالخفاش الذى لا يستطيع أن يحدق فى نور الشمس لما فى أعصابه من ضعف وفى بصره من خلل ! وإلا فهذه آثار ناطقة بعظمة لا تدركها العقول ولا تصل اليها الأوهام ، ولكن الانسان كما يبتلى بأفظع الأمراض الحسية كذلك هو قابل لأن يبتلى بأفظع الأمراض العقلية . ولعمرى إن الجاهل يمكنه أن يفحم أكبر فيلسوف من الملحدين بما رآه من حوادث العفاريت المتواترة عند من لا يمكن تكذيبهم ولا الشك فى خبرهم ، وهى تخرق كل نواميس المادة التى عبدوها ولم يعرفوا شيئا سواها . ولعلنا نعرض لشىء مما شاهده علماء الاسبرتزم (استحضار الأرواح) وهم من أكبر أساتذة أوربا وعلمائها . أما كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء فلا نعرض لها لعدم إيمان الملحدين بها ، وإن كانت متواترة والمتواترات لا سبيل الى تكذيبها ، ولكن هؤلاء قدسوا نواميس المادة التى عرفوها ، وخرقوا نواميس العقل والمنطق التى جهلوها .

والخلاصة أنه تعالى أظهر من كل شىء لدى العقول ، ولكن لما كانت النفوس مجبولة على الجهل لأنها لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تفزع فيما تريد إلا لما علمته من طريق الحواس ، خفى عليها ما لا تحسه ، ولكنها جهلت أن الإله يجب ألا يقاس على ما تعرف من المحسوسات ، وإلا وجب تطبيق النواميس الطبيعية عليه .

ثم نقول باختصار لأولئك الملحدين : هل الموجودات كلها انحصرت فيما تعلمون وصارت قاصرة على ما تحسون ؟ إن كنتم تعتقدون أنه لا موجود إلا ما أحسستم ، ولا شىء فى العلم إلا ما علمتم ، فأنتم أجهل الجهلاء وأحمق الحمقى .

ولنختم هذا المقال بقول من قال يخاطب الحضرة الالهية :

هـوت المشاعر والمــدا	رك عن معارج كبريائك
ياحى يا قيـوم قـــــد	بهر العقــول سنا بهائك
أثنى عليـــــك بمـا علم	ـت فأين علمى من ثنائك
فظهرت بالآثار فالـ	ـبرهان باد فى جلائك
عجبا خفاؤك من ظهو	رك أم ظهورك من خفائك
ما الكون إلا ظلمــة	قبس الأشعة من ضيائك
وجميع مافى الـكون فا	ن مستمد من بقائك
بل كل ما فيه فقـ	ـير مستميح من عطائك
ما فى العــوالم ذرة	فى جنب أرضك أو سمائك
إلا ووجهتها إليــ	ـك بالافتقار الى غنائك

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء



صفة من كملت مروءته

دخل عبد الملك بن مروان على معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فسلم ثم جلس ، فلم يلبث أن قام . قال معاوية لعمرو : ما أكمل مروءة هذا الفتى !

قال عمرو بن العاص : إنه أخذ بأخلاق أربعة ، وترك أخلاقا أربعة : أخذ باحسن البشر إذا لقى ، وباحسن الحديث إذا حَدَّث ، وباحسن الاستماع إذا حُدِّث ، وبأيسر المؤنة إذا حولف .

وترك مزاح من لا يشق بعقله ، وترك مجالسة من لا يرجع الى دينه ، وترك مخالطة لئام الناس ، وترك من الـكلام كل ما يعتذر منه .

وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ ؟

قال خالد : إن شئت يا أمير المؤمنين أخبرتك بخلة واحدة ، وإن شئت بخلتين ، وإن شئت بثلاث .

قال الخليفة : فما الخلة ؟ قال خالد : كان أقوى الناس على نفسه . قال هشام : وما الخلتان ؟

قال خالد : كان موقى الشر ، ماقى الخير . قال : فما الثلاث ؟ قال خالد : كان لا يحسد ولا يبخل ولا يبغى .

باب الأسئلة والفتاوى

فى الميراث

جاء الى لجنة الفتوى الاستفتاءان الآتيان :

توفى شخص عن زوجة ، وأم ، وأخت شقيقة ، وأختين لأب ، وأربعة إخوة ذكور لأم . وقد ترك مبلغا من المال قدره ٨١ جنيها . فمن يرث ومن لا يرث ، وما نصيب كل وارث ؟

ستيته أم سيد

الجواب :

جميع من ذكروا فى السؤال يرثون : فللزوجة الربع ، وللأم السدس ، وللأخت الشقيقة النصف ، وللأختين لأب السدس ، وللأخوة الأربعة للأم الثلث ، يقسم بينهم بالسوية .

ونظرا لأن مجموع هذه الأنصبة يزيد على الواحد الصحيح كما هو واضح ، تقسم التركة الى سبعة عشر سهما : فيكون للزوجة ثلاثة أسهم ، وللأم سهمان ، وللأخت الشقيقة ستة أسهم ، وللأختين للأب سهمان لكل منهما سهم ، وللاخوة لأم أربعة أسهم ، لكل منهم سهم واحد .

وهذه من المسائل التى يدخلها العول عند الفرضيين ، وهو يقضى بتوزيع النقص بنسبة واحدة على أنصبة الورثة ، حتى تتسع التركة للجميع . والله أعلم ؟

فى الرضاع

طفل اشترك مع بنت فى الرضاع من أمها ، ولنفرض أن الطفل يسمى محمد احمد عبد الله ، وأن البنت اسمها خديجة بنت مصطفى السيد ، ثم كبر الطفل المذكور حتى رزق بنتا ، ولنفرض أن اسمها عيوشة ، فهل يسوغ لمصطفى والد خديجة أن يتزوج بعيوشة بنت محمد احمد عبد الله ؟

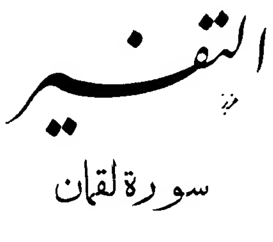
محمد احمد عبد الله

الجواب :

لا يسوغ لمصطفى السيد أن يتزوج عيوشة ، لأنه يعتبر جدا لها من الرضاع ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام



سورة لقمان

— ١٠ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ » :

جرت عادة القرآن الحكيم أن يسلك فى تربية النفوس وتغذية العقول أسلوبا بديعا محكما مفيدا ، فيمزج العقيدة بالبرهان ، وينتقل الى الموعظة والحكمة ، ويستطرد فى بيان الأحكام وتفصيل مكارم الأخلاق ، ثم يعود الى العقيدة بفن جديد من أدلتها المرشدة الى صحيحها المثبتة القلوب على استيقانها . وهكذا شأن التربية الصحيحة : يتنقل المربى بمن يتعهده من حالة الى حالة حتى يكون فى الانتقال استرواح له من ناحية ، وملاحقة أنواع النقص لتكميلها من ناحية أخرى ، فضلا عما فى التنقل من طرد السآمة وتجديد الاعداد بقبول واستعداد ونشاط .

ولقد فصّل لنا فى أوائل السورة الكريمة نوعا من براهين وحدانيته ، متضمنا الارشاد الى باهر قدرته ، فى قوله عز من قائل : « خَلق السموات بغير عمد ترونها » الى قوله: « هذا خلق الله فأرونى ماذا خَلق الذين من دونه » . ثم انتقل الى ذكر لقمان ووصاياه منبها على ما ينتجه العقل السليم من التعليم الحكيم والارشاد العظيم ، ليدلهم على أن ما أرشدهم اليه لو أنهم نظروا النظر الصحيح واستعملوا عقولهم بلا تعسف ولا اعوجاج فى التفكير ، ولم تلعب بهم الخرافات وقبيح العادات ، لوصلوا بأنفسهم الى الاعتراف بوحدانية خالقهم وباهر قدرته وحكيم إرادته ،

وردت هذه المقالة متأخرة فلم تأخذ مكانها الذى كانت تأخذه من المجلة

وواسع علمه ورحمته . وساق فى وصايا لقمان ما ساق من بديع الحكم والوصايا بعد الوصية العظمى ، وهى « يا بنى لا تشرك بالله »

ثم عاد بهم يلفت نظرهم وينبه شعورهم الى ما غمرهم به من عظيم النعم التى لا يستطيعون سبيلا الى إنكارها ، ولا يجرءون على نسبتها الى غير مالك الملك العزيز القدير ، فقال جل وعلا : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »

وهو دليل ناصع وبرهان قاطع يجف ريق المعاندين ويبهتون وينبهرون دون أن يفكر أحدهم فى نسبة شىء من ذلك الى غير الله القادر القاهر . من ذا الذى يفضح نفسه فيفوه لسانه بأن ذلك الصنم الحجرى هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم والكواكب ؟ من ذا الذى تطاوعه وقاحته على الزعم بأن إلها من آلهتهم هو الذى خلق الأرض وبث فيها من كل دابة ، وذرأ فيها من كل من النبات والحيوان زوجين اثنين ضمانا لتسلسل أنواعهما ، وجعل كل ذلك مسخرا للانسان فى نفعه ينتفع به بكل ما وصلت اليه قدرته ؟ من ذا الذى يتطاول فيقول إن إلها من تلك الآلهة التى ضلوا بها هو الذى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وخلق الكواكب والأفلاك وجعلها كلها مسخرة لنفع الانسان ؟

أجل : إنه لدليل قاطع وبرهان ساطع على باهر القدرة والتفرد بالالهية ، واستحقاق العبادة والخضوع والطاعة له والزلفى اليه ، فضلا عما تضمنه من التنبيه على باهر النعم وواسع الكرم ، وإفاضة هذه المنن الجسيمة والرحمات العميمة ، ناهيك بتسخير السموات والأرض وما فيهن ، تفيض الكواكب من الضوء والحرارة والاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ما لا تدخل فوائده تحت حصر ، وتنتج الأرض وما بث فيها من حيوان ونبات لنفع الانسان ما لا يفى به بيان . هو الخالق لها جميعا ، وهو المنعم بها جميعا ، أفبآيات الله تجحدون وبآلائه تكفرون ؟ !

انتقلوا الى أنفسكم وتفكروا فى نعم الله التى أفاضها عليكم فى أنفسكم من نعم ظاهرة وباطنة ، وقولوا ما تحس به قلوبكم وما تقتنع به عقولكم ، أكنتم واهبيها لأنفسكم وأنتم فى حيز العدم ؟ إذاً فهل تستطيعون أن تمسكوها وقد حصلت وأنتم فى حيز الوجود ؟ إنك لا تجد أبله ولا متعنتا يستطيع أن يفوه بهذا مهما بلغت قحته . إذاً فهو معترف قهرا عنه أن يذعن أنه قد وهبها له واهب ، فهل هذا الواهب وهبها وهو غير عليم بها أو وهو عاجز عن إيجادها وإيجاد غيرها ، أو وهو سيىء التصرف فى تدبيره وإحكام مصنوعاته ؟ هل يستطيع عاقل أو أبله أن يزعم شيئا من هذا ! اللهم لا ، إذاً فالذى وهبكم تلك النعم هو القدير العليم الحكيم العزيز الرحيم . أبقى شك فى هذا الذى تأخذونه من أنفسكم ومن نعم الله التى أسبغها عليكم فوق ما أخذتموه مما يبهركم من صنع الله فى ملكوت السموات والأرض ، وكيف سخر كل ذلك لكم تنتفعون به أنى شئتم وكيفما قدرتم ؟ اللهم لا .

وإن تعجب فعجب لهم أنهم مع وضوح هـذه الآيات البينات والدلائل الساطعات يقوم فريق منهم فيجادل فى الله بغير علم استفاده من عقله ، أو هداية جاءته من رسول أرشده ، أو خبير علمه ، أو نور ربانى فى كتاب منزل من الله استضاء به فى مجادلته ، فهم لا يقتصرون على الإباء عن الرحمة وقبـولها ، بل يزيدون على ذلك فيـبررون مسلك السوء الذى اختـاروه لأنفسهم ، ويجادلون بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير فى شأن الله الذى خلقهم ووهبهم من النعم السماوية والأرضية والنفسية ما لا يستطيعون جحوده ، فلا يزال يخامرهم الشك فى قدرته ووحدانيته وأنه وحده الحقيق بالعبودية له والإخبات اليه . لقد غمركم بما علمتم من جزيل النعم فما لـكم إذا قيل لـكم اتبعوا ما أنزل الله لـكم على لسان رسل منكم إتماما لنعمته عليكم وتعميما لرحمته بكم نأيتم وأبيتم ، وأعرضتم عن النعمة والرحمة التى أرسلها اليكم صاحب الفضل العميم عليكم ؟ !

فاذا قيل لـكم اتبعوا ما أنزل الله قلتم بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فمن هم آباؤكم ؟ أليسوا أفرادا مثلـكم لاميزة لهم عليكم إلا بسبق زمانهم على زمانكم ؟ فقد كانوا مثلـكم أجنة فى بطون أمهاتهم ثم انحدروا الى هذه الدنيا لا يعلمون شيئا فوهب الله لهم السمع والبصر والعقل لعلهم يهتدون فهاموا فى غيهم يعمهون ، فلما بعدوا عن الجادة وطمسوا الطريق على أنفسهم وعليكم من بعدهم تدارككم الله برحمته فأرسل اليكم رسله بهدايته ليرشدوكم الى صحيح شريعته ، وذلك حلقة من سلسلة رحمته بكم ، أفتعرضون عن هـذا وتقولون بل نتبع ما وجـدنا عليه آباءنا ولو كان آباؤكم قـد ضلوا واتبعوا الشيطان عدوهم وعدوكم وقد دعاهم الى عذاب السعير ؟ ! لو أنـكم خلقتم بلا عقول أصلا لوسعكم العذر الذى يسع البهائم ، ولـكن ما الحال وقد وهب لـكم النور فأغمضتم أبصاركم عن أن تستضيئوا به ! جاءتكم رسلـكم بالبينات ووهبكم الله عقولا تميزون بها الحسنات والسيئات ، ولفتت نظركم ونبهت عقولـكم الى ما تسلسل عليكم من ربكم من أنواع الرحمات ، ومع ذلك أبيتم أن تستمعوا الى الداعى ، وأعرضتم عن الصالح ، وتملـككم الاعتزاز بآبائكم والاغترار بما كانوا عليه فاتبعتموهم ، أفتتبعونهم فى كل شىء حتى ولو دعاهم الشيطان الى عذاب السعير ؟ !

هذا ولقد جرنا الـكلام فى ربط الآية بالآيات السابقة الى الـكلام فى بيان محصل معناها التركيبى ، ولا نرى بأسا أن نعود الى الـكلام على مفرداتها ، وإن كان المعتاد أن يسبق الـكلام على المفردات بيان المعنى التركيبى ، إلا أن ما بيناه هنا لا يتوقف على شرح مفردات الآية الـكريمة ، وفى بيان تلك المفردات مزيد بسط وتقرير لما قدمناه .

فقوله تعالى « ألم تروا » استفهام تقريرى يراد به حملهم على الاقرار والاعتراف بما سئلوا عنه ، إذ يرجعون الى أنفسهم والى ما يحيط بهم ويتفكرون فيمن خلقه وأنشأه وسخره لهم فلا يجدون من يمكن أن ينسب اليه ذلك كله أو بعضه إلا الله ، فيرغمون على الاعتراف به .

ففائدة السؤال إرغامهم على استخراج ذلك من مكنونات ضمائرهم وما أودع فى طيات قلوبهم ، وهو أمكن طريق فى الاستدلال والاقناع . وتسخير الشيء : سوقه الى تأدية الغرض المقصود منه بدون اختيار له فى ذلك ، أو تهيئته للانتفاع به والاستفادة منه ، سواء أحصل الانتفاع أم لم يحصل . والتسخير تارة يكون بجعل الشيء المسخر منقادا لارادة من سخر له ، كما فى تسخير الدواب والآلات ؛ وتارة تتضمنه فائدة ينتفع بها المسخر له كما فى تسخير ما فى السموات من كواكب ونجوم ، ففيها من الضوء والنور والحرارة وأمثالها ما ينتفع به الانسان وإن لم تكن خاضعة لارادته . فكلا القسمين يسمى مسخرا له حتى ما لا يدخل تحت إرادته ولا ينقاد له كسير الكواكب ، فيكفى فى أنها مسخرة له أنه يمكنه الانتفاع بآثارها . وعلى ذلك تكون اللام فى سخر لكم ، لام التعدية : صلة لسخر .

ومنهم من يجعلها لام العلة ، أى جعل ذلك مسخرا لأمره لأجلكم ، فتسخيرها إنما هو لأمر الله ، وهذا التسخير من أجل منفعتكم . ونظيرها قوله تعالى: « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » إذ ليست اللام للتمليك بل هى لام الأجل ، أى خلقها لأجل منفعتكم ، أى مكنكم منها لتستفيدوا أعظم ما تصل اليه قدركم من منافعها .

« وما فى السموات » من الأفلاك والكواكب والنجوم تسير بمقدار معلوم ، فيوقتون بها مصالحهم ، ويضبطون بها شئون معاشهم ومعاملاتهم وعباداتهم ، وتشرق عليهم فتبعث من ضوئها وعظيم آثارها ما يعود عليهم بالخير والنفع ، وتغرب عنهم فيسكنون ويستريحون .

« وما فى الأرض » من نبات وحيوان ومعادن وقطع متجاورات تصلح للانبات ، أو تستعد لاتخاذ البيوت والحجرات ؛ ومما فى الأرض المياه التى سلكها ينابيع فى الأرض ، فمنها العذب ومنها الأجاج ، ولكل منفعته وفائدته ، ومما فى الأرض أى على سطحها أو فى السماء أى فى العلو الرياح المسخرات ، فمنها اللواقح ، ومنها ما يسوق الماء الى الأرض الجُرُز ، ومنها ومنها مما لا يحيط به الحصر .

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » أى محسوسة ومعقولة ومعروفة لكم وغير معروفة ، أو جلية وخفية . فمن الأولى الوجود والجوارح والحواس ، ومن الثانية القوى الباطنة من العقل والفهم والتوفيق الالهى . أو الظاهرة ظهور الاسلام والانتصار على الأعداء ، والباطنة الامداد بالملائكة . أو الظاهرة تسوية الخلق ، والباطنة ستر العيوب . وقد ورد شيء من هذه التفاسير فى المأثور . والآية عامة تتسع لها جميعا ولغيرها . فما ورد فى المأثور مما يقتصر فيه على بعضها محمول على التمثيل لا على الحصر .

هذا وإسباغ النعم إفاضتها ، من قولهم : ثوب سابغ أى طويل ضاف . والنعمة ما ينعم به العبد وينتفع ويستلذه ويستطيبه . وأصله على ما قيل هيئة التنعم ، شأن صيغة فعله (بكسر الفاء) كجلسه ، سمى به ما يحصل تلك الحالة والهيئة ، ثم غلب على ذلك .

وقوله : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم » مسوق للتعجيب من حالهم هـذه مع ما سـبق من اعترافهم ولو بلسان الحال بما أسبغ الله عليهم . فالواو فى قوله « ومن الناس » واو الحال ، أى سخر لهم وأسبغ عليهم والحال أن منهم من يجادل الخ .وكأن قوله «ومن الناس» لتقـرير التعجيب ، أى العجب كل العجب أن يـكون هذا من عـداد الناس ومحشور فى زمرتهم ، وهو جدير بأن يكون فى عداد العجماوات بل أضل ، بما عطل من عقله وأهمل من الهدى الذى حباه الله إياه . والمجادلة المناقشة ، وهى إما من جدل الحبل أى فتله كأن كلا من المتجادلين يفتل صاحبه ويلويه عن رأيه ، أو كأن كلا منهما يحكم رأيه بطرق الفتل والتقوية ، من قولك جدلت الحبل أى لويته على الأول ، أوجدلته أى أحكمت فتله وقويته على الثانى . وإما من الجدالة وهى الأرض الصلبة ، كأن كلا منهما حريص على أن يصرع خصمه ويلقيه على الأرض .

والجدال فى ذاته بقصد المغالبة وإظهار التفوق ذميم ، فكيف إذا كان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ قالوا : والمراد بقوله « بغير عـلم » أى استبصار ويقين مأخوذ من دليل عقلى . « ولا هدى » أى إرشاد مستفاد من هاد ومرشد من رسل الله وصفوته . « ولا كتاب منير » أى كتاب منزل من الله يثق به العقل وتطمئن اليه النفس . وإذا بطلت هـذه الثلاثة لم يبق إلا التقليد ، وتقليد من ؟ تقليد آبائهم الذين لم يمتازوا عنهم بشئ فى الضلال بل الـكل فيه سواء ، أفيتبعون آباءهم وإن قادوهم الى العذاب الذى دعاهم اليه الشيطان ؟ فالهمزة للانـكار ، أى ما كان ينبغى ذلك من قوم عقلاء ، والواو للحال أو العطف على محذوف ، وجواب لو مستغنى عن التصريح به بما سبق ، أى ولو دعاهم الشيطان يتبعونه ، أو هى غـير محتاجة الى جواب . والسعير من قولهم استعَـرَت النار أى اشتد لهيبها .

ومن هذه الآية أخذ بعضهم عدم صحة إيمان المقلد . والمـراد بالمقلد الذى لا يصح إيمانه هو من ليس فى قلبه أكثر من قوله : وجدت الناس يقولون قولا فقلته ، فاذا رجع من تبعه رجع تبعا له . وأما الذى إذا سألته أجابك بما يدل على اقتناعه فى نفسه بما يعتقد : كأن يقول لك مثلا : من ذا الذى خلقنا وخلق هذه الدنيا ؟ ونحو ذلك ، فلا يكون مختلفا فى إيمانه وإن عجز عن تقرير الدليل ودفع الشبه عنه بالطرق الفنية .

اللهم احفظ علينا إيماننا ، وا كفنا شر ما أهمنا ، وارفع مقتك وغضبك عنا ، ولاتؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، إنك عفو كريم غفور رحيم !

ابراهيم الجبالى

النثر الفنى

بعد الاسلام

تحدثنا فى المقال السابق عن الحقيقة التى يصح أن تكون مدلولا اصطلاحيا لعبارة « النثر الفنى » التى خلقها المنهج الحديث فى البحث خلقا جديدا لا يعتمد على أساس لغوى معروف فى نصوص الأدب ، ولا يقوم على أصل تاريخى ، ومن ثم اختلفت عبارات الباحثين فى تحديد معنى النثر الفنى . وقد عرضنا بعض آراء المتأدبين ، وانتهينا الى أن مصدوق هـذه العبارة فى الأدب العربى واسع المدى يشمل كل كلام انطلق من قيود الوزن والقافية فى أسـلوب يسمو بذاته عن لغـة التخاطب العامة ، ويسمو بفـكرته الى معالجة شئون الحيـاة الفكرية والاجتماعية دون أن يخضـع لشىء آخر من قيود الصنعة الانشائية كالـكتابة والتدوين ، أو الزخرف اللفظى ، والتزيين البديعى ، أو غير ذلك مما لا يدخل فى تكوين النثر ، وإن زعم كثير من الباحثين أنه مقوم من مقومات النثر الفنى .

وقد عرفنا أن كثيرا من شـيوخ النقد الأدبى القدامى يرون أن الخطابة بجميع فنونها من أول مايدخل فى مفهوم النـثر الأدبى ، وهى أخت الـكتابة وقرينتها ، فاذا وقع اتفاق المحدثين من النقاد على اعتبار الـكتابة بأنواعها نثرا فنيا لأنها تقوم على التفكير المنطقى ، فـكذلك المحاورات والوصايا وغيرها من فنون النثر الأخرى لا تقل أثرا فى التفكير المنطقى ورسم النفوس وتطبيق الاجتماع عن الـكتابة والخطابة ، فهى نثر أدبى فنى بهذا الاعتبار ، وكلها كانت معروفة عند العرب فى العصر الجاهلى ، إلا أن الـكتابة كانت قليـلة الى جانب غيرها ، وكانت تدور حول أفـكار خاصة ودائرة ضيقة ، لا تسوغ إدخالها فى طور النثر الفنى الأول ، بل إن ذلك الطور لا يتمثل إلا فى الخطابة والمحاورة والوصايا والحـكم والأمثال .

أما الطور الثانى للنثر الفنى فيبدأ باشراق شمس الاسلام فى أفق الحياة العربية ، لأن أوضاع الحيـاة تغيرت عن مألوف العرب ، فتغير تبعا لذلك أسلوب التعبير عنها ، فالقرآن الـكريم وهو أول ما يلفت النظر فى هذا الباب بفخامة أسلوبه وروعة تعابيره ، وجلال معانيه وسمو مراميه ، أحدث رجة فى البلاغة العربية دفعتها الى الوجوم حينا فى كثير من الدهشة البالغة ، فـكانت صدمة قوية على الملـكات البيانية أصابتها بما يشبه العقم الأدبى ، وهو وإن يكن له الاعتبار الأدبى الأول لـكنى أتحرج من إطلاق اسم « النثر الفنى » عليـه ، لأن الفنية قد تشعر بالتعمل والصنعة ، والقرآن كتاب الله الحـكيم يجب أن ينزه عن كل ما يشعر بشىء من ذلك ولو من طريق بعيد ، وهـذا لا يمنع أن نرى أنه منهج أدبى جديد جعله الأدباء

وفحول البلاغة الغاية التى تنتهى عند سفحها آيات البراعة والبيان ، لجمعه لخصائص بلاغية ونكات بيانية لا يمكن أن يجمعها كلام سواه . وهذه ناحية من نواحى إعجازه يدور حولها البحث الفنى لعلماء البلاغة وأئمة النقد الأدبى ، بل لأجل شرحها قامت علوم البلاغة العربية ، وبها تفرد كشاف الزمخشرى فى نهجه وأسلوبه البيانى القويم ، وبها اتجه البحث الأدبى فى هذا العصر اتجاها جديدا ، واتخذ النثر سمتا جديدا ، ظهر فيه أثر الأسلوب القرآنى ظهورا بينا نلمسه بأدنى نظرة نلقيها على سبيل الموازنة بين كلام الجاهليين فى خطبهم وفنون نثرهم ، وكلام فحول الأدباء فى صدر الاسلام ، فذلك السجع المتعمل الذى كان يجرى عليه أسلوب الجاهلية أصبح سقيما لا يحفل به خطيب أو متكلم فى صدر الاسلام . ولو أن باحثا عرض الى خطبة جاهلية فى موضوع يقرب من الموضوعات الاسلامية كالخطبة المنسوبة الى قس بن ساعدة ، وهو خطيب مفوه يضرب به المثل ، وعرض الى جانبها كلمة لخطيب إسلامى ، لرأى الفرق شاسعا ، ورأى أثر الأسلوب القرآنى فى كلام الاسلاميين ارتفع به عن السجع الأجوف الى أسلوب مفعم بالروح القوى والمعنى السرى والحيوية الخصبة .

أى أثر ينبعث فى نفسك إذا أنت قرأت قول قس بن ساعدة فى خطبته المشهورة : « من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور الخ ؟ » لا أثر يحرك كوامن النفس ويوقظها الى ظواهر الوجود وعبر الحياة ، ولكن انظر الى ما ينبعث فى نفسك من الاحاسيس حين تقرأ قطعة من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فانها تجلى لك من معانى الحياة كثيرا مما كان خافيا عليك ، وتفتح أمام فكرك أبوابا من التأملات تنفذ منها الى خير كثير ، فاسمعه حين يقول : « إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ، ألا وإن بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله ، والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم ، وليسبقن سابقون كانوا قد قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا . ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم فى النار ، ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة ، حق وباطل ، ولكل أهل ، فلئن أمر الباطل لقديما فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ، ولقلما أدبر شىء فأقبل »

فأنت تلمح فى الكلام الاسلامى أثر الروح القرآنى ظاهرا فى الفكرة والمعنى والأسلوب الذى لم يلتزم فيه السجع ، ولم يخل منه ، ولكنه جاء حين استدعاه المعنى ، فجاء حلو الجرس ساحر الرنين ، جميل الوقع متساوقا مع المعنى فى قرن واحد ، على خلاف ما ترى فى القطعة الجاهلية من رصف ألفاظ فى جمل مستوية لا تعدو الأذن الى القلب .

الواقع أن النثر الاسلامى اتخذ القرآن إماما له ، فتهذبت حواشيه ، وصقلت مبانيه ، وراقت أفكاره ومعانيه ، الى ما كان من أثر البلاغة النبوية التى استقت من منابع القرآن وأشرقت عليها أنواره فكانت من أجمل مظاهره وأبلغ آثاره ؛ بل ربما كان أثر البلاغة النبوية فى النثر الاسلامى أبين وأكثر ، لأن البلاغة النبوية على سمو مقامها وبلوغها الحد الأعلى فى البلاغة الأدبية لم تعدُ أن تكون كلاما بشريا تطمع النفوس فى محاذاته ومشاكلته ، وتعرف نهايات ما اشتمل عليه من الخصائص البلاغية والنكات البيانية ، ومن هنا يمكن اعتبار الكلام النبوى أول صورة للنثر الفنى الاسلامى ، جمع عناصر الفنية التى اتفق عليها القدامى والمحدثون من الباحثين ، لأنه قائم على الفكر المنطق والعقل ، وقد يحلى بشىء من الزخرف اللفظى والتزيين البديعى إذا انساق مع المعنى ، وليس يشك أحد فى أن الكلام النبوى يقرر حقائق فكرية ويرسم نفوسا ويطبق اجتماعا ، وتلك هى عناصر النثر الفنى فى نظر الباحثين .

وإذا كان قد استوى للنثر الفنى فى هذا العصر شرائط الكمال من ناحية موضوعاته التى أحدثها الاسلام ورسمها القرآن الكريم فى التشريع والسياسة والأخلاق والتهذيب النفسى والقصص والوصف ، والترغيب والترهيب ، وتحديد علاقات الفرد بالجماعة ، وعلاقات الجماعة بالفرد ، فإنه قد اتخذ فى اتجاهه التصويرى مظاهر متعددة إن لم تبلغ درجة الكمال فهى بلا شك شديدة المغايرة لما كان معروفا عند الجاهليين ، فالخطب الاسلامية وجدت من العناية والدقة ما جعلها أشبه بالرسائل المنمقة ، وظهرت الكتابة وحررت بها الرسائل فى المعاهدات والمحالفات والدعوة الى الدين ، ونصح العامة وإرشاد قواد الجيوش الى واجبهم ، وتحديد معاملة الولاة للرعية بالعدل والرأفة وإقامة الحدود وحماية الثغور . وفى رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى منهج للسياسة الشرعية وشرح وظيفة القضاء وواجب القاضى وطريق الدعوى وإثباتها ، مما هو صادر عن فكر منطق يقرر حقائق ويرسم نفوسا ويطبق اجتماعا . وفى عهد أمير المؤمنين على أبى طالب الى الاشتر النخعى حين ولاه مصر آية بينة على استواء أسلوب النثر الفنى فى هذا العصر .

وإذا جاوزنا عصر صدر الاسلام الى ما بعده من عصر الدولة الأموية وجدنا الأمر يتسع تبعا لشئون الدولة ، فقد نظمت الدواوين واتخذت نظم للرسائل والمكاتبات ، وانضافت الى الخطابة عناصر جديدة تراها فى خطب زياد بن أبى سفيان والحجاج وعبد الملك وغيرهم حتى عهد هشام الذى عهد بنظام الانشاء الى مولاه سالم الذى تتلمذ عليه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وانتقلت به الكتابة الى صنعة قائمة المعالم مستقلة المناهج ، وتبحرت فيها الأساليب ، وظهر أمثال ابن المقفع واحمد بن يوسف والجاحظ ومن اليهم من فطاحل كتاب الدولة العباسية التى ظهر فيها النثر الفنى ظهورا بينا يرى المحدثون من النقاد أنه أحق ما يصدق عليه

اسم النثر الفنى ، لما داخله من الصنعة والحذق والنظم الأجنبية التى نقلها المترجمون عن الأمم الأخرى العريقة فى هذا النظام ، وما يزال النثر يدرج فيرتفع ، ثم يهوى فينخفض حتى عادت اليه ديباجته فى النهضة الحديثة ، وتجدد له رواؤه ورونقه ، وجمع بين رصانة القديم وجدة الحديث .

صادق ابراهيم عرجون

من يعتمد فى المشورة

قال حكيم : لا تدخل فى مشورتك بخيلا فى عطاء فيقصر بك ، ولا جبانا فى حرب فيخوفك ، ولا حريصا فى بذل فيصدك ، فان البخل والجبن والحرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن بالله .

وروى أن زيادا ، وكان من كبار الولاة فى القرن الاسلامى الأول ، استشار رجلا فى أمر ، وكان متحفظا ، فامتنع من إبداء رأيه قائلا له : حق المستشار أن يكون ذا عقل وافر ، واختبار متظاهر ، ولا أرانى كذلك .

وقال حكيم : لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروى ، ولا الأسير حتى يطلق ، ولا المقل حتى يجد ، ولا الراغب حتى ينجح .

وقال شاعر :

خصائص من تشاوره ثلاث ... فخذ منها جميعا بالوثيقه
وداد خالص ووفور عقل ... ومعرفة بحالك فى الحقيقه
فمن حصلت له هذى المعانى ... فتابع رأيه والزم طريقه

وقال شاعر غيره :

وإذا الأمور عليك يوما أشكلت ... فاعمد لرأى أخ نصيح مرشد
واحفظ نصيحة من بدا لك وده ... وبرأى أهل الخير جهدك فاهتد

وقال آخر :

فما كل ذى ود بموليك نصحه ... ولا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ... فحق له من طاعة بنصيب

الاخلاق الفلسفية

— ٦ —

(ب) الضمـــــير

سلطانه على النفوس :

إن سلطة الضمير التى يفرضها على بنى الانسان واحدة وثابتة لا تتجزأ ولا تتغير ولا تخضع للظروف ولا تنحنى أمام ضرورات الحياة ، فاللغة التى ينطق بها الضمير حين يامر بالخير وينهى عن الشر هى واحدة فى كل زمان ومكان ولدى جميع الأشخاص ، لا فرق فى ذلك بين السيد والعبد ، والغنى والفقير ، والشاب والشيخ ، والعالم والجاهل ، وإنها لغة واضحة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، وإنها لغة أمر قوية قاسية لا تعرف الرجاء ولا تألف الهوادة واللين . ومنشأ هذه الوحدة فى السلطة واللغة والقوة هو أن الضمير ينطق بصوت الله ويتكلم بلسانه ، ويعبر عن أوامره ونواهيه . ولو أنه يتكلم بصوت أحـد المحدثين الفانين ، لاستطاع الانسان أن يسكته كلما أثقل عليه الأوامر وضيق على شهواته الخناق . نعم إننا نستطيع أن نعصيه ، ولكننا لا نستطيع أن نسكت صوته ، ولا أن نقطع هتافاته المتواصلة .

الأدوار التى يمثلها معنا الضمير :

إن أول دور يمثله الضمير معناهو دور المكتشف المميز بين الطريقين : المستقيم ، والملتوى كما قدمنا ، فإذا أبرز نتيجة اكتشافه ، انتقل الى الدور الثانى وهو دور الناصح الأمين ، فإذا أتم مهمته ووقع العمل من الانسان بالفعل ، انتقل الى مرتبة القاضى العادل ، ثم الى مرتبة السلطة التنفيذية التى تتولى توزيع درجات المكافأة والعقاب ، فينعم بقسط وافر من الغبطة والسعادة على القائمين بالواجب والمستمسكين بالفضيلة ، ويحيل الدنيا فى نظرهم الى جنة وارفة الظلال ، دانية الثمار ، لايرى الانسان فيها إلا نورا وجمالا وغبطة وسعادة ، ويملأ قلوبهم بالأمل والتفاؤل والميل الى الاستزادة من الخير . وهكذا كل فضيلة تتولد مما قبلها حتى تصبح أعمال الشخص سلسلة فضائل لا تفصل حلقاتها رذيلة واحدة ، ولكن الانسان إذا اقترف رذيلة ، فإن فكرة قاسية حادة تشتعل فى داخل نفسه كأنها شعلة من نار لا تزال تأكل فى فؤاده حتى تقضى عليه قضاءها الأخـير ، أو هى كما يقول أحد الأخلاقيين الفرنسيين : « إنها تجلس بالليل الى جانب وسادته ، لتجعل نعاسه سلسلة اضطرابات ومفزعات ، فاذا استيقظ تولت تعـذيبه بقسوة ومن غير انقطاع ، وتتبعت خطواته حتى فى ساعات العمل الشاغل وفى لحظات التسلية والسرور ، وإن مثلها كمثل العثة تمزق أجزاء الفؤاد بلا شفقة ولا رحمة » .

جوامع كلم :

لما كان الفلاسفة الأوربيون قد وصفوا الضمير فى جمل صغيرة قيمة يصح أن تسمى بجوامع الكلم ، فقد أردت أن أترجم لك شيئاً منها :

(١) سئل سقراط يوما : من الرجل الذى يمكن أن يحيا سعيدا ؟ فأجاب : « إنه هو الذى لا يعمل ما يستوجب تانيب الضمير » .

(٢) إن الضمير هو أصدق وأجل كتاب نملكه ، فيجب أن نسترشد بصفحاته ، ونستعين بجمله وكلماته كلما حزبتنا مهمة من مهمات الحياة « باسكال » .

(٣) اذهب الى حيث شئت ، فانك ستجد ضميرك أمامك .

(٤) إن كل القضاة معرضون للخطأ ما عدا قاضى القلب فانه معصوم .

(٥) ليس حكم الغير هو الذى نخشى ، وإنما هو حكم الوجدان « فيسيو » .

(٦) لا توجد سلطة أخرى تصدر أوامرها بحرية غير سلطة الضمير « جولى سيمون » .

مذهب بعض الأخلاقيين القائلين بجواز تغير الضمير ووجوب تربيته :

صرحنا أكثر من مرة بأننا نرى أن الضمير لا يربى ولا يهذب ، لأنه لا يفسد ولا ينحط ، وإنما الارادة والخلق هما اللذان يتغيران رفعة وانحطاطا ، ولكننا رأينا بعض الأخلاقيين يقول بجواز تاثر الضمير بمفاسد الشهوات الحيوانية تأثراً يفقده هداه ، ويحول بينه وبين الاستقامة والرشاد . وعندهم أن الحيلولة بين الضمير وبين هذا الفساد لا تتم إلا بالتربية والرقابة . وإنى لموجز لك هنا رأى أحد هؤلاء الفلاسفة القائلين بامكان انحطاط الضمير وبوجوب تربيته ورقابته ، فاذا أتينا على هذا الرأى وذكرنا لك وسائل تربية الضمير عند هذا الفيلسوف ، سددنا اليه بعد ذلك ما لدينا من سهام النقد فى هذا الموضوع . واليك ترجمة هذا الرأى فى شىء من التلخيص :

« إن حواسنا قد ربطتنا مع العالم الخارجى برباط بلغ من الدقة والاحكام الى حد أن اقتطعنا لهذا العالم الظاهر اسما من كلمة « الحواس » فسميناه بالعالم المحس ، ولكن الخير والشر والفضيلة والرذيلة والطيبة والخبث والحب والبغض والاحترام والاحتقار ، كل هذه الصفات تكوّن لها عالما آخر غير العالم الأول يسمى بالعالم المعنوى أو المعقول . ولكى نستطيع أن ندركه ونقدر قيمته ونحكم عليه ثم نستفيد منه كما استفدنا من العالم الخارجى ، قد منحنا الخالق قوة داخلية جديرة بادراكه ، وهى ما نسميه بالحاسة الخلقية أو الضمير أو الوجدان . فليس الضمير إذاً شيئا جديداً يكتسب بالخبرة أو المران ، وإنما هو فى داخل نفوسنا منذ

اللحظة الأولى لوجودنا ، لأنه لا يخرج عن كونه إحدى حركات النفس الناطقة التي هي المميز الوحيد للنوع الانساني عما عداه من الأنواع .

والضمير هو القاضي الذي أجلسه الباري على منصة القلوب الانسانية ، ليتولى إصدار الحكم على سلوك الحياة وأفعالها . غير أن الانسان لا يكون معصوما من الوقوع في ضلال الأحكام الأخلاقية أو من السقوط في هوة الخلط بين الرذيلة والفضيلة إلا إذا كان وجدانه على الفطرة التي خلقه الله عليها بحيث لم تستطع القوات الأخرى أن تلوى عنانه الى ناحية الشر فتصبح أحكامه خاطئة وسيره معوجا ، وتسلب منه الدقة فيمسى ولا أسهل عنده من الانخداع بالظواهر وتفضيل الأدنى على الأعلى ، وتندثر منه معالم الهدى والرشاد فيصبح ولا شيء يهمه سوى المنافع المادية التي تعظم في نظره شيئا فشيئا حتى تصير هي مقياس الخير والشر المضبوط الذي لا يقام لغيره وزن .

أما الوجدان الفطري الذي يتعهده صاحبه بدفع شرور النفس عنه ويتعود على طاعته والعمل بأوامره ولا يهمل فيه جانبي الدقة والقسوة المتأصلين في طبيعته ، ويسير على ما يشرع له من قواعد ومناهج فيتلقى بسرور وسعادة ما يصدره إليه من أمر بالخير ، وينظر ببغض وارتياع الى ما يرسمه أمام عينيه من صور الشر الكريهة ، فهو الوجدان الصالح المستقيم .

تربية الوجدان عند هذا الفيلسوف :

قرر هذا الفيلسوف فيما سلف أن الوجدان في أصله خيّر ومستقيم ، ولكن طوارئ الحياة المادية تستطيع أن تغيره ، فلنبحث فيما عساه أن يؤثر فيه ، ثم لننظر بعد ذلك في وسائل الهدى . فأما المؤثرات السيئة على الوجدان فهي تتلخص كلها في عامل واحد ، وهو أن يدع الانسان غرائزه الحيوانية تسير في حرية لا حد لها ، ويطلق العنان لشهواته المادية فيطغى تيارها الجارف على كل عوامل الخير وأقباس النور الجاثمة في نفس الانسان فيبددها ويحيلها الى ظلام دامس ، ويسلم القيادة العليا لتلك القوة الحيوانية ، فتسوء الحال ، ويصبح الوجدان ضالا غير قادر على تمييز أي شيء . وهنا يمسى الانسان معرى من كل خير ، مجردا من كل فضيلة ، لا يكترث إلا بالمنافع والشهوات ، ولا يحترم إلا المصالح المادية المنتجة الموصلة الى هذه الشهوات الحيوانية .

وسائل التربية والاصلاح في رأيه :

هناك وسيلتان لا ثالثة لهما لتربية الضمير وإصلاح ما فسد منه بسبب طغيان تيار الشهوات عليه ، وهما : (١) الدين (٢) المدنية الصالحة . فأما الدين ، وهو القانون السماوي الطاهر

المعصوم الذى لا تستطيع الشهوات أن تطغى عليه ، فهو يعين مقدار ما للشهوات الجسمانية من سلطان يقفها عنده ، ولا يسمح لها بأن تتخطاه ، ثم يعيد الى الضمير سلطته الأولى وقوته البائدة . وأما المدنية الصالحة ، فنحن لا نقصد بها إلا الثقافة والعلم واستنارة الذهن وتمرين العقل على معاونة الضمير فى مغالبة الشهوة وكبح جماحها .

وعندى أن الكائنات تنقسم بالنسبة الى الضمير الى الدرجات الآتية : (١) الجماد ، وهو مفقود الحيوية والإحساس . (٢) النبات ، وهو متمتع بحيوية فقط . (٣) الحيوان ، وهو متمتع بحيوية وإحساس ، ولكنه إحساس مادى محدود لا يُشْعِرُ صاحبه بأنه موجود ، ولا بأن عليه دورا فى الحياة يجب تمثيله . (٤) الانسان الناقص ، وهو مستمتع بحيوية وإحساس وشعور بوجوده وبتمثيل دوره فى الحياة فحسب . (٥) الانسان الكامل ، وهو ما يشتمل على كل مميزات الناقص ويزيد عليه بالضمير الأخلاقى المربى الذى لا يجدر بهذا الاسم إلا إذا توفرت له تلك التربية التى تمكنه من إصدار الحكم الحق على الأشياء ، وإلا فهو ضمير نفسى وهو يوجد عند الانسان الناقص » .

ومن الغريب أن هذا الأخلاقى الذى يجيز انخداع الضمير وضلاله ، ويوافق على تربيته وإصلاح ما فسد منه يعود فيقول عنه ما ترجمته : « إنه لصوت داخلى يلهمنا ما يجب أن نعمل وينذرنا بما ينبغى أن نتقى ونتجنب ، وإنه ليس شيئا آخر غير جزء من العدالة الالهيه . إنه لنور خالد ينبسط فوق أعمالنا فيكشفها لنا بوضوح وجلاء ، وإنه ليس إلا شعاعا من النور الأعلى » .

ولست أدرى كيف يتصور هذا الأستاذ ومن هم على شاكلته من الروحيين أن جزء العدالة الالهية أو شعاع النور الخالد يفسد وينحط الى حد أن يجوز عليه الضلال والانخداع ؟ ! أنا لا ألوم الماديين ولا « القرديين » أصحاب نظرية التطور على ما يقولونه من جواز فساد الضمير وضلاله ، لأنه فى رأيهم لا يزيد عن كونه خرافة خلقتها الضلالات الاجتماعية ، أو عادة دعت اليها المنافع العمرانية ، ومصالح الهيئة الاجتماعية . وإذاً ، فلا لوم عليهم إذا آمنوا بجواز فساده وانخداعه ماداموا قد أرجعوا أصله الى هذا العنصر الوضيع ، وأيقنوا بأن خالقه ومانحه كل هذه القوة الوهمية إنما هو الانسان ، ولكن الذى لا أستطيع أن أستسيغه ولا أن أفهمه هو تناقض هذا البعض من الفلاسفة الانسانيين والأخلاقيين الروحيين الذين كانوا يستطيعون أن يحفظوا مذاهبهم من الخلط والاضطراب ، وأن يجعلوها مستقيمة متزنة لو أنهم قرروا أن الضمير لا يفسد ولا يضل ، وإنما يتغلب عليه ضجيج الشهوات فيحول بين الانسان وبين سماع صوته ، فاذا خفت هذا الضجيج الشهوانى وهدأت ثورة الرغبات المادية ظهر هذا الصوت العلوى واضحا وإن لم يكن قد سكت لحظة واحدة ، وإنما كان السلطان لغيره فى أثناء هذه الثورة

كما قررنا ذلك مرارا . ولكن قد يقول لنا قائل : إذا كان الضمير من عالم الخلود فكيف استطاعت الشهوة أن تغلبه على أمره ؟ ونحن نجيبه بما أسلفناه غير مرة ، وهو : أن مبدع الكون قد حدد اختصاص الضمير ، وقصر سلطته على الحكم والأمر والنهى والانذار وإظهار الغبطة للطائعين ، وصب جامات السخط والتقريع على العاصين ، ولم يمنحه سلطة القضاء على كل شهوة ومحو كل رذيلة ، ولو أنه جلت حكمته فعل ذلك لقضى على نظام الكون الذى لا يمكن أن يكون على صورة أخرى غير التى هو عليها الآن ؟

دكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

كلمات نابغة فى العقل

قال أبو هريرة رضى الله عنه : لو ازددت كل يوم مثقال ذرة من عقل ما باليت ما فاتنى من أنواع التطوع .

وقال وهب بن منبه : مثل العقلاء فى الدنيا مثل الليل والنهار لا تقوم الدنيا إلا بهما ، فكذلك المرء فى الدنيا لا حظ له إلا إذا كان عاقلا .

وقيل لأنو شروان ملك الفرس : أى الناس أولى بالسعادة ؟ قال أنقصهم ذنوبا . قيل فمن أنقصهم ذنوبا ؟ قال أتمهم عقلا .

وقال حكيم : إذا كان العقل فى النفس اللئيمة ، كان بمنزلة الشجرة الكريمة فى الأرض الذميمة ينتفع بثمرها على خبث المغرس ، فاجتن ثمر العقل وإن أتاك من لئام الناس .

وقال سعيد بن جبير : لم تر عيناى أفضل من فضل عقل يتردى به الرجل ، إن انكسر جبره ، وإن صرع أنعشه ، وإن ذل أعزه ، وإن اعوج أقامه ، وإن عثر أقاله ، وإن افتقر أغناه ، وإن عرى كساه ، وإن غوى أرشده ، وإن خاف أمنه ، وإن حزن أفرحه ، وإن تكلم صدقه وإن أقام بين ظهرانى قوم اغتبطوا به ، وإن غاب عنهم أسفوا عليه ، وإن بسط يده قالوا جواد ، وإن قبضها قالوا مقتصد (أى معتدل) ، وإن أشار قالوا عالم ، وإن صام قالوا مجتهد ، وإن أفطر قالوا معذور .

وقال شاعر :

ماوهب الله لامرىء هبة   أشرف من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فإن عدما   فإن فقد الحياة أجمل به

سيرة الزبير بن العوام

نسبه رضى الله عنه :

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى قصى ، وعدد ما بينهما من الآباء سواء . وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى، فتجتمع مع ابنها وزوجها فى قصى، وعدد ما بينها وبين زوجها من الآباء سواء . ولما ولدته أمه أطلقت عليه اسم وكنية أخيها الزبير بن عبد المطلب ، وكان يكنى بأبى الطاهر ، وبقى معروفا بتلك الكنية حتى ولد له ابنه عبد الله ، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة المنورة بأنوار النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان بعد ذلك يكنى بأبى عبد الله .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة، ونشأ بها فى وسط متحضر متمدين ، لأن مكة كما وصفها الله كانت أم القرى ومثابة للناس وأمنا ، يفد الى كعبتها كافة الشعوب على اختلافهم فى اللغات وتفاوتهم فى الأخلاق والعادات ، فضلا عن أنها فى وسط عربى متحضر كبنى ثقيف بالطائف ، وبنى الأوس والخزرج بالمدينة ، وبنى غسان بالشام ، وكل هؤلاء وأمثالهم يؤمونها دائما لأداء نسكهم ، وعرض محاصيلهم وثمرات أفكارهم فى سوق الأدب والتجارة . فنشأة الزبير فى تلك البيئة أكسبته الأخلاق الفاضلة والعواطف النبيلة ، الى مافيه من كرم الأرومة وشرف العشيرة وكمال الفروسية التى نالت إعجاب النبى وتقديره العالى، حتى قال له صلى الله عليه وسلم يوما « فداك أبى وأمى » .

حياته وصفته :

كانت حياته رضى الله عنه فى الاسلام كلها ممتلئة بعمل الخير ، والجد والسهر على نصرة الدين وجماعته، وإعلاء كلمة الحق، فكم قاتل فى الله وكم بارز وكم قارع، وكم خاطر بنفسه امتثالا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم. ولقد نوه الله بشأنه فأنزل الملائكة يوم بدر على صفته . وهو أحد العشرة الذين بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولم يتخلف قط عن مشهد من مشاهد الخير . أسلم رضى الله عنه بدعاية أبى بكر ، وعمره إذ ذاك خمس عشرة سنة ، وقد نال شرف الهجرة مرتين: مرة الى الحبشة ثم عاد منها الى مكة وبقى بها ،حتى هاجر الى المدينة المنورة. وكان رضى الله عنه أسمر اللون ، ربعة القامة ، معتدل اللحم ، خفيف اللحية .

شرفه ومنزلته فى قومه :

حدث ما شئت عن شرفه من ناحية أبيه وأمه . فأمه عمة النبى صلى الله عليه وسلم ، وخديجة خير أمهات المؤمنين عمته . هذا الى ما ثبت فى المراجع المعتبرة من كتب السير أن عمر ابن الخطاب لما قتل استدعى ستة رجال من عظماء قومه وسرواتهم وهم الذين توفى النبى صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، فعهد اليهم بانتخاب أحدهم للخلافة ، وأوصاهم أن لا يمضى اليوم الرابع إلا وعليهم أمير منهم ، فكان الزبير أحد هؤلاء الزعماء الستة. وحدثنا البخارى فى صحيحه قال : أصاب عثمان رعاف شديد سنة الرعاف حتى حبسه عن الحج ، وأوصى فدخل عليه رجل من قريش قال استخلف ، قال : وقالوه ؟ قال نعم ، قال : ومن ؟ فسكت . فدخل عليه رجل آخر فقال استخلف ،فقال عثمان: وقالوا ؟ فقال نعم . قال : ومن هو ؟ فسكت . قال فلعلهم قالوا الزبير ؟ قال نعم . قال أما والذى نفسى بيده إنه لخيرهم ما علمت ، وإن كان لأحبهم الى رسول الله صلى عليه وسلم . وقد مدحه أمير الشعراء حسان بن ثابت الأنصارى ففضله على سائر الصحابة ، فمن ذلك قوله :

أقام على عهد النبى وهديه حواريّه والقول بالفعل يعدل
إذا كشفت عن ساقها الحرب حسها بأبيض سباق الى الموت يرفل
فما مثله فيهم ولا كان قبله وليس له فى الدهر قرن مماثل

كرمه ووفاؤه :

روى أنه لما نزل قوله تعالى فى القرآن الكريم : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » قال الزبير : يارسول الله : وأى نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « أما إنه سيكون » . وقد حقق الله وعد نبيه الصادق الذى لا ينطق عن الهوى ، فقد ثبت فى كتب السير الصحيحة أنه كان للزبير ألف مملوك يؤدون اليه خراجهم ، فكان يتصدق بكل ما فضل عنه ولا يدخر منه شيئا فى بيته .

وروى عن هشام بن عروة أنه قال : أوصى الى الزبير سبعة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان رضى الله عنه ينفق على أولادهم من ماله الخاص ويحفظ عليهم مالهم .

وأنا أقول : إن هذا منتهى الورع ، لأن الورع هو ترك الشبهات خوف الوقوع فى المحرمات ، فكيف بمن يترك المباحات خوف الوقوع فى الشبهات ؟ ومعلوم أن الزبير قد أحل الله له الانفاق على أولادهم من أموالهم ولكنه احتاط لنفسه فجعل بينه وبين الحرام حصنين : الشبهات ، وبعض المباحات. ومع هذا السخاء النادر فقد مات رضى الله عنه عن ثروة عظيمة، قال ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد: أخذ عبد الله بن الزبير لولده الثلث من تركة أبيه بوصية منه ثم قسم الباقى . وكان

للزبير أربع نسوة فأصاب كل امرأة ربع الثمن ألف ألف ومائة ألف . وأنا أقول سنداً لهذه الرواية : إنه لا غرابة فى ذلك ، فقد كانت أنصبة المجاهدين من الغنائم تكفى لتكوين أعظم ثروة لسروات أمثالهم ، فقد ذكر بدر الدين العينى على شرحه للبخارى أنه قد أصاب كل واحد من فرسان المجاهدين فى واقعة اليرموك على عهد أبى بكر أربعة وعشرين ألف مثقال من الذهب ومثلها من الفضة ، وهذه موقعة واحدة فى خلافة أبى بكر ذات المدة القصيرة فكيف بالغنائم التى أخذوها أيام عمر وعثمان ؟ وقد أدرك الزبير رضى الله عنه زمن عمر وعثمان وصدراً من خلافة على ، رضى الله عنهم أجمعين .

فروسيته وشجاعته :

هو أول من سل سيفا فى الله عز وجل ، وذلك أنه شاع بمكة أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذه الكفار فأقبل الزبير رضى الله عنه عند ذلك يشق الناس بسيفه ، وكان النبى حينئذ بأعلى مكة فلما رآه قال له مالك يازبير ؟ قال : يارسول الله أخبرت أنك أخذت فعند ذلك صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ودعا له ولسيفه .

وحدثنا البخارى فى صحيحه قال : « قال النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا ، ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير أنا ، ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير أنا . ثم قال إن لكل نبى حواريا وحوارىَّ الزبير » .

وحدثنا البخارى أيضا فى صحيحه قال : « قال عبد الله بن الزبير : كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمرو بن أبى سلمة فى النساء فنظرت فاذا أنا بالزبير على فرسه يختلف الى بنى قريظة مرتين أو ثلاثا ، فلما رجعت قلت : ياأبت رأيتك تختلف . فقال : أو هل رأيتنى يابنى ؟ قلت نعم . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من يأت بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال : فداك أبى وأمى » .

وناهيك بموقف واحد من مواقفه المشرفة صدَّ فيه وحده جيش الكفر جميعه : حدثنا البخارى فى صحيحه قال : « إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا للزبير يوم اليرموك : ألا تشد فنشد معك ! فقال : إنى إن شددت كذبتم . فقالوا لا نفعل ، فحمل عليهم الزبير حتى شق صفوفهم فجاوزهم وما معه أحد ثم رجع مقبلا ، فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر . قال عروة : كنت أدخل أصابعى فى تلك الضربات ألعب وأنا صغير .

ومن مفاخره أن عمر بن الخطاب قد عده بألف رجل فى الجيش الذى أرسله الى مصر مددا لعمرو بن العاص حيث كتب اليه يقول : « إنى قد أمددتك بأربعة آلاف على كل ألف رجل بمقام ألف » ، وكان الزبير رضى الله عنه أحد القواد الأربعة ، وكان جيش المسلمين إذ ذاك

بجانب جبل المقطم، وجيش الروم داخل حصن منيع حوله خندق محكم الأبواب، فلما طال المقام وأبطأ الفتح وضع الزبير سلما الى جانب الحصن وصعد عليه وتبعه كثير من المسلمين، وكان ذلك ليلا، فلما صاروا داخله كبر الزبير وكبر من خلفه ووضعوا السيف فى حاميته، وفر الباقون من أمامهم، وتم لهم فتح الحصن على يد الزبير بعد أن مكثوا حوله سبعة أشهر تقريبا .

مقتله رضى الله عنه :

روى أنه شهد وقعة الجمل مع عائشة أم المؤمنين مقاتلا لعلى بن أبى طالب، فناداه علىّ على انفراد وقال له : أتذكر إذ كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى وضحك وضحكت، فقلت أنت : لايدع ابن أبى طالب زهوه، يعنى كبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمزه ولتقاتلنه وأنت له ظالم ؟ فتذكر الزبير ذلك، فانصرف فى الحال عن القتال ونزل بوادى السباع ليصلى . فجاءه عمرو بن جرموز المجاشعى فقتله غدرا، ثم جاء بسيفه الى على فاستأذن فلم يؤذن له . ولما تناول على سيف الزبير نظر إليه مليا ثم قال : رحم الله الزبير لطالما فرج به الكرب عن وجه النبى صلى الله عليه وسلم ! ثم قال بشروا ابن جرموز بالنار فانى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : بشروا قاتل الزبير بالنار .

ولما مات رثته امرأته بقولها :

غدر ابن جرموز بأشجع فارس ... يوم الهياج وكان غير معدد
ياعمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشا رعش الجنان ولا اليد
ثكلتك أمك إن قتلت لمسلما ... حلت عليك عقوبة المتعمد

وقال جرير ينعى على القاتل جرمه :

إنى تذكرنى الزبير حمامة ... تدعو ببطن الواديين هديلا
قالت قريش ما أذل مجاشعا ... جارا وأكرم ذا القتيل قتيلا
لو كنت حرا يا ابن قيس مجاشع ... شيعت ضيفك فرسخا أو ميلا

وكان مقتله رضى الله عنه يوم الخميس لعشر مضت من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين من الهجرة، وعمره سبع وستون سنة . وقبره ناحية البصرة بوادى السباع . والله أعلم ؟

سيد أحمد متولى الشيخ
من علماء الأزهر برشيد

التطبيب فى الاسلام

بدأت جميع الأمم عهـد التطبيب بالخلط بين هـذه الصناعة والعقائد الخرافية ، إلا الأمة الاسلامية ، فقد بدأتها على ما هى عليه اليوم من الاستقلال الفنى ، والدستور العلمى . وهذه ميزة من ميزات الأمة الاسلامية الـكثيرة ، وهى من أكبرها شأنا فى رأينا نظرا لاجماع الأمم القديمة على الخلط بين الطب والروحانيات والشعوذة .

نعم إن عامة الأمة الاسلامية فى عصور بعيدة وقريبة أخذوا إخْذَ الأمم الأخرى فى هذا التخليط من طريق العدوى ، ولـكن خاصتهم ظلوا أوفياء لدينهم فلم يقعوا فى هذا الوهم .

ولما كان هـذا الموضوع شائعا من جهة أنه يرينا ناحيـة من نواحى العقلية الانسانية فى سذاجتها الأولى ، رأينا أن نلم بتاريخ الأمم حيال هذه الصناعة الـكريمة .

الطب عند المصريين القدماء :

كان للطب عند المصريين القدماء شأن عظيم ، وكان له أقطاب صرفوا العمر فى دراسته ، والتنقيب عن أسراره فى الهياكل والمعابد . وقد وصل الينا شيء كثير منه مدونا على ورق البردى . وقد عنى بأمره الباحثون فى قراءة الخط الهيروغليفى ، وترجمه الى العربية العلامة الأثرى أحمد كمال باشا رحمه الله .

قال العلامة كليمان الاسكندرى ، وهو ممن لهم اطلاع واسع على معارف المصريين القدماء : إن العلم المصرى كان مدونا فى دائرة معارف رسمية تقع فى اثنين وأربعين مجلدا ، وكانت الستة الأخيرة منها خاصة بعلم الطب ، وكانت عنواناتها هكذا : تركيب الجسم الانسانى ، الأمراض ، الأعضاء ، العلاجات ، أمراض العين ، أمراض النساء . وقـد ضاعت هـذه الـكتب ولم يبق منها شيء .

أما ماوجد من أوراق البردى فهما مجموعتان ، إحداهما ببرلين وكانت موضوع بحث دقيق من العلماء هنالك . وثانيتهما أوراق العالم (إيبر) وعدد صحفها ١٠٨ ، وقد ترجم منها صاحبها نفسه جزءا . أما الدكتور جوهاشيم فقد ترجمها كلها وجعل عليها تعاليق . من هذه الأوراق ما كتب نحو سنة ١٥٥٠ قبل عيسى عليه السلام ، ويؤكد الأستاذ إيبر أن أوراقه هـذه هى الجزء الرابع من دائرة المعارف المصرية القديمة ، وهى عبارة عن مجموعـة وصفات علاجية ، ولـكن الباحثين فى العلوم المصرية يخالف أكثرهم إيبر فى اعتقاده هذا .

أصل الطب فى اعتقاد المصريين : وحى إلهى ، أو علم ملـكى ، فيقولون : إن (توت) أى

(هرمس) الذى يشبه اسكولاب عند اليونان ، هو الذى أوحى العلوم ، ومنها علم الطب ، الى المصريين ، وكان يعرف بأنه مستودع الأسرار السحرية .

كان فراعنة مصر كلفين بتعلم الطب ، فان الملك (نيتى) ابن الملك مينيس عرف بتأليفه كتابا فى علم التشريح ، وهو من ملوك الأسرة الأولى . واشتهر الملك نيخوروفس من الأسرة الثالثة بوضعه رسالة فى الطب .

كان جمهور أطباء المصريين من طائفة الكهنة ، كما كان الشأن فيما يتعلق بعلم الفلك والشريعة وغيرها . وكان الطلبة يأخذون العلم من المعابد ، وأشهرها معبد منفيس وطيبة وسابيس وشينو . وكانوا يحملون المرضى الى الهياكل لأجل العناية بهم هنالك .

كان للاطباء المصريين امتيازات مثل إعفائهم من الضرائب ، وكان الناس يحملون اليهم هدايا بدل الأجور . وكان منهم من هو موظف فى الحكومة تنقده أجرة فى كل شهر ، وكان الناس يستشيرونهم بدون أجر . ولكن عدم إمكان الطبيب المصرى تخطِّى ما فى الكتب المقدسة من الأصول ، تفاديا من عقوبة القتل ، كان حائلا دون تقدم علم الطب عما وصل اليه عند تدوينه فى الكتب .

كان علم التشريح متأخرا جدا عند المصريين القدماء ، وبراعتهم فى تصبير الجثث لم يكسبهم كبير شىء فى معرفة أعضاء الجسم الداخلية . فان المشتغلين بهذه الصناعة كانوا محتقرين جدا فى نظر مواطنيهم ، وكان عملهم لا يتعدى استخراج أحشاء الجثث المهيأة للتصبير . وهذا لا يفيدهم شيئا من حقائق علم التشريح .

كان المصريون يعتقدون ، كسائر الأمم فى عصرهم ، أن أسباب الأمراض أرواح شريرة تستولى على الأجساد فتمرضها . وكانت مرامى الطب عندهم إخراج العامل المرضى من الجسم ثم إصلاح ما فسد منه ، ولذلك وصف لهم خواص النباتات ودعاهم لتعاطيها .

أما الرُّقَى فقد كانت أهم أركان الطب لابعاد الأرواح الشريرة عن الجسم .

الطب عند الكلدانيين والأشوريين والبابليين :

يوجد تشابه كبير بين الطب عند هذه الأمم وبينه عند المصريين ، فقد كانت الرقى والتعزيمات أساس الطب عندها ، كما كانت عندهم . ولكن هنالك دلائل تدل على أن الطب عندها لم يكن مقصورا على الطرق السحرية فقط . فقد روى هيرودوت أن المريض عند البابليين كان يعرض على جمهور الناس ليصف له من يكون أصيب بمثل مرضه العلاج الذى شفى به . ولكن ظهر فيما بعد أن كلام المؤرخ هيرودوت خطأ ، فإنه كان لدى البابليين والأشوريين أطباء من غير هؤلاء ، كما كان لدى المصريين .

[illegible] اء الكلدانيون فكانوا من طائفة السحرة ، وكانت قوتهم كلها تنحصر فى [illegible]

الصناعة ، فكان جل اهتمامهم موجها الى معالجة المريض بالرقى ، ولكنهم مع هذا كانوا يصفون له تعاطى بعض الأعشاب .

كانت عقيدة الكلدانيين أن الناس محاطون بالأرواح من جميع الجهات منهم الطيب والخبيث ، وكانت الطائفتان فى حرب مستمرة ، وكانت جميع الأمراض تعزى للأرواح الخبيثة .

الطب عند الصينيين واليابانيين :

يقول الصينيون : إن الطب ظهر عندهم من زمان بعيد جدا ، فانهم يزعمون أنه كانت لهم حدائق لتربية النباتات الطبية قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة . ويقولون بأن الامبراطور (هوانج تى) ألف لهم كتابا فى الطب حوالى سنة ٢٦٠٠ قبل المسيح . وهذا الكتاب باق عندهم الى اليوم فيما يدعون .

وقد استفاد الأوربيون من معارفهم الطبية ، فذكر القس (دوهالد) الاطباء الصينيين وأثنى عليهم ، وذكر (القس جروزييه) بأن العالم (بوردو) أخذ مباحثه فى النبض عن الكتب الصينية .

كان أكثر اهتمام الصينيين موجها الى إتقان علم المادة الطبية . وكتابهم المسمى (بنتاو) يذكر ١١٠٠ مادة ويسرد خصائصها العلاجية ، وهو يعتبر كنز المادة الطبية لديهم .

أما الطب عنداليابانيين فقد كان مقتبسا من طب أهل الصين ، وكان مختلطا بالعقيدة فى تأثير الأرواح الشريرة فى أجساد الناس .

الطب عند الهنديين :

كان الطب عن أهل الهند بيد الكهنة البراهمة ، وقد عرف اليونانيون القدماء أيام مدنيتهم بأن الطب الهندى أرقى من طبهم ، ولكنهم لم يبينوا وجوه هذا الرقى ، فقدتكلم ابقراط كثيرا عن علاجاتهم ، وكان تيوفراست اليونانى يذكر أعشابا طبية أخذها عنهم .

كان الطب عند الهنود بيد رجال الدين كما قلنا ، وكانت أركانه قائمة على قواعد وهمية ، وكتبهم الدينية تشهد بذلك ، فهى ملأى بالتعزيمات والرقى والوصفات السحرية .

وفى كتابهم المسمى (ريجفيدا) تنويه بخصائص شفائية لأعشاب كثيرة ، وتجد بجانبها دعوات تتلى لازالة كثير من الأمراض ، وهذه الدعوات يجب أن توجه لآلهة الشفاء ، أو الى العلاجات نفسها .

ثم ظهر لديهم العلم الطبى بمعناه الصحيح على يد جماعة البراهمة أنفسهم . أما زمن ظهور هذا العلم عندهم فما لا يستطاع تعيينه ، ولكنه مع ذلك لم يخل قط من الاختلاط بعقيدة الأرواح الشريرة ، فان عنها فصولا مطولة فى أكبر الكتب الطبية هنالك .

الطب عند الاسرائيليين :

كان الطب عندهم محتكراً لرجال الدين، ولم يكن لعلم التشريح عندهم من اعتبار، فان الاسرائيلى كان يستنكر أن يشرح جثة لتحريم الدين عليه ذلك، بل كان لا يستطيع أن يلمس جثة إنسان أو حيوان، وإلا اضطر أن يتطهر .

أما عقيدة اليهود فى الأمراض فى العهد الموسوى، فكانت أنها عقوبة مرسلة من الله تعالى . فاذا انتشر الطاعون بينهم قالوا إن ذلك نتيجة عصيانهم للأوامر الالهية . وكان بعضهم ينذر بعضا بفشو الأمراض كلما ناقضوا الناموس الالهى، وكان ذلك يقوم فى نظرهم مقام الانذار بالعذاب الاخروى الذى كانوا ينوهون به فى مواعظهم .

ومع هذا فقد كانوا يعزون بعض الأمراض لأسباب طبيعية، كتراكم الصفراء أو فساد الهواء أو تغيرات الجو أو عصيان قوانين الصحة أو حلول عفريت بالجسم لا دواء لاخراجه إلا الرقى والتعزيمات .

وقد وجدت فى التلمود، وهو كتاب الشرع اليهودى، مبادئ عامية طبية لسير الأمراض وتشخيصها وأزماتها وغير ذلك .

الطب عند الفرس :

يصعد تاريخ الطب عند الفرس الى نحو القرن الرابع قبل المسيح عليه السلام، وأصوله الأولية مذكورة فى كتابهم المقدس المسمى زندا فستا، وهذا الكتاب أحدث عهدا من كتب الفيدا الهندية المقدسة . والذى يختص بالطب من كتاب زندا فستا فى الطب هو الفصل الذى عنوانه فنديداد، وخاصة تحت عنوان فرجاد .

كان الطب عند الفرس خليطا من التعزيمات والرقى وشىء من المبادئ الطبية العامية . وعندهم أن إله الشر افريمان أطلق جميع الأمراض وسلطها على الناس، وعارضه ارموزد إله الخير وعلم الناس جميع الأدوية الضرورية لحفظ صحتهم .

الطب عند اليونان :

لم يبدأ الطب عند اليونانيين بحياة أبقراط، فقد كان موجودا قبله، بدليل أن أبقراط نفسه كان ينقل عن مؤلفات سابقة عهده، ولكن فضل أبقراط ينحصر فى تخليص هذا العلم مما كان اختلط به من الشعوذة والعقائد بالأرواح الشريرة .

الكتب التى ألفت قبل عهد أبقراط معدومة الآن، فليس لنا أقدم من كتب هذا الطبيب .

والذى نعلمه أن الطب قبله كان فى أيدى كهان اسكلبياد فى هيكل اسكولاب، ولكن كان بجانب هؤلاء أطباء من غير طائفة الكهان ساعدوا على نشر صناعة الطب .

كان الطب فى مبدأ تكونه عند اليونانيين سحريا وسائله الرقى والتعزيمات، فكان من الصناعات السرية التى يحرص عليها رجال الدين . وكان المريض ينقل الى المعبد فيزوره فيه الاله فى زعمهم ، ويرى ليلته تلك من الرؤى ما يدل تعبيرها على دائه ودوائه .

ثم لما نبغ الفلاسفة من أمثال أناكزيماندر وبارامنيد وهيرا كليت وغيرهم، نظروا فى طبيعة الانسان وتناولوا الكلام على صحته ومرضه ، وما يصلح له من الأغذية والأهوية والأحوال وما لا يصلح .

فلما جاء فيثاغورس اشتغل بالطب، ويظن أن الفيلسوف أمبيدوكل كان طبيبا أيضا، ولكن لم يبق لنا من كتبه شىء .

ثم توالى فلاسفة بذلوا لعلم الطب معظم أوقاتهم ، فبحثوا فى خواص الأعشاب وتأثيرها على الجسم ، وفى آثار الأهوية ، ولم يهملوا النظر فى أدوار الأمراض ومضاعفاتها حتى بلغوا شأوا بعيدا ظهر بأجلى مظاهره فى مدرسة الاسكندرية التى أسسها بطليموس الأول والثانى ملكا مصر من اليونانيين ، وكان أنبغ طبيب ظهر منها جالينوس .

الطب عند الرومانيين :

لما قامت الدولة الرومانية انتحلت الطب اليونانى مختلطا بكثير من الخرافات .

أما الطب العلمى فلم يصل الى الرومانيين إلا على يد الطبيب اليونانى أركاجانوس بن ليزانياس سنة (١٩٢) قبل المسيح ، فقوبل باحتفاء كبير ، ولكنه لم يلبث أن سقط الى الحضيض لخطئه فى بعض الأعمال الجراحية . ولكن جاء بعده أطباء آخرون من اليونانيين أيضا فثبتت أصول الطب العلمى وأزهر فيها .

الطب عند العرب الجاهليين :

لم يكن العرب محصورين فى شبه جزيرتهم قبل الاسلام ، ولكنهم اتصلوا بالفنيقيين وسكان آسيا الصغرى والجزيرة ، وهاجر اليهم يهود من أقطار مختلفة كانوا على صلة بالعلوم . فتعلم الطب من الجاهليين أفراد إشباعا لشهوة علمية ، ولكنهم لم يستطيعوا نشر ماعرفوه فى أمتهم لانصرافهم عن غير ما ألفوه ، منهم الحرث بن كلدة، كان تعلم الطب فى بلاد الفرس .

فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم وحض العرب على التعلم والأخذ بأسباب النهوض والارتقاء ، لم يدعوا شيئا بعد قيام دولتهم يمكن تعلمه إلا أخذوه وحذقوه وزادوا عليه .

فلم ينته القرن الثانى حتى كانت بلادهم مطمح أنظار المستفيدين فى كل فرع من فروع العلوم ، ومنه الطب الذى برزوا فيه وأوصلوه الى درجة من السمو لا يزال معها محل إعجاب الأطباء المعاصرين .

ولو كنا هنا بصدد الاتيان على تاريخ الطب لديهم لبيّنا مبلغ ما وصلوا اليه من إتقان هذه الصناعة ، ويكفى فى الدلالة عليها أن ملوك أوروبا وكبراءها كانوا يقصدون عواصم المسلمين للتطبب فيها بواسطة أطبائها .

ولكن الذى يعنينا أن الدين الاسلامى ، خلافا لما يروى عن سائر الأديان ، هو الذى جرد علم الطب من خرافاته للآخذين به ، وأن أئمته الأولين جروا على هذا السمت فلم يخلطوا بين الماديات والروحانيات فيما يتعلق به .

لقد فرض الله على الآخذين بدينه جميع الأصول التى يعتبرها الطب الرسمى اليوم القواعد الأولية التى تصلح لدفع جميع الأمراض البدنية ، كالنظافة الجسمية ، وتحرى الطيبات فى المأكل والمشرب وترك الخبائث ، وعدم الاسراف فى تناول الطيبات نفسها ، وعدم تعريض النفس للهلكة ، والاعتدال فى جميع المطالب الجسمية ، والأخذ باليسر حتى فى العبادات ، وكل هذه الأصول تعتبر قواعد مقررة لحفظ الصحة .

ولم ينوه الكتاب الكريم فى أى معرض من معارض الشئون الى الأسباب الروحانية ، إلا فى ناحية الاغراء على الشرور والآثام ، ولكنه ناط علاجها بقوة الارادة الانسانية فقال تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » أى تذكروا أوامر الله ونواهيه فأبصروا تضليل الشيطان فأقلعوا عنه . أما ما أمر به من الاستعاذة بالله ، فذلك باعتبار أنه مصدر كل قوة ، واللاجأ اليه يمده منها فيقوى على وسوسة الشيطان . ففزع الانسان فى كل هذا موجه لإرادته الشخصية لا لخاصة سحرية فى الألفاظ . وليس فى الكتاب آية واحدة تشير الى اللجأ الى التعزيمات والرقى لدفع الأمراض ، بل فيه ما يشير الى اللجأ الى بعض المواد لدفعها ، فقال عند ذكر العسل : « فيه شفاء للناس » .

أما السنة ففيها كل البيان فى هذا الشأن : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تداووا أيها الناس فان الله لم يخلق داء إلا خلق له دواء » . وهذا تصريح بأن المرض لا يلجأ فيه إلا الى الدواء لا الى المعزمين والراقين . ولما مرض أبو بكر مرضه الأخير قالوا له : أنلتمس لك طبيبا ؟ ولم يقولوا له أنلتمس لك راقيا ؟

ومما نطرف به القراء هنا أن الاسلام أول من سن وجوب التمييز بين الطب المقرر المستمد من العلوم والتجارب ، وبين الدجل الذى يدعيه بعض الناس لاستدرار أموال الناس بالباطل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن » أى مطالب

بما يحدث من ضرر بالمريض ، وهذا بلا شك مبدأ يستند إليه فى تحريم مزاولة الطب على غير الذين درسوه فى كلياته الرسمية .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توصيات بتعاطى بعض العقاقير كالعسل وزيت الزيتون والشونيز وغيره ، ولم يروعنه شىء فى منفعة الرقى والتعزيمات .

نعم : إنه كان يرقى الأطفال ، ورقياه لا تخرج عن الدعاء لهم وتلاوة شىء من القرآن تبركا به ، باعتبار أنهم كائنات ضعيفة لا إرادة لهم ولا قوة . ولـكن لم يوجد فيما كان يرقى به اسم لشيطان أو ملك أو مناجاة لروح كوكب .

وليس الأمر فى الاسلام واقفا عند هذا الحد ، بل حرم النبى صلى الله عليه وسلم لبس الطلاسم والتمائم ، حرصا منه على مبدأ عدم التعويل إلا على الأسباب المعروفة ، وابتعادا عن وساوس الأقدمين وخزعبلاتهم .

فالطب ولد فى الاسـلام على الطريقة المثلى التى قام عليها فى العهود العلمية ، لذلك عول المسلمون إبان نهضتهم على كتبه المقررة ، فترجموها الى لغتهم ، وأخذوا بما فيها وزادوا مادتها .

نعم قد أخذ المسلمون من لدن القرن الثانى والثالث إخْذَ الأمم الخالية فى التعويل على التعاويذ والطلاسم والتمائم ، سرى اليهم ذلك مما ترجموه من كتب السريان والـكلدانيين والأنباط وغيرهم ، ولـكن ما اقترفوه من ذلك ليس من الاسلام ، وقد ذاقوا مرارته بما ابتلى على ذلك من انتشار الدجاجلة وتحكمهم بالناس بأساليبهم المضللة ، والحـكومات الاسلامية جادة اليوم فى الأخذ على أيديهم ، ولا يشيننا وجودهم ، فأوربا وأمريكا لا تخـلوان من أمثالهم مع بلوغ علم الطب فيهما أوجه الأعلى ؟

محمد فريد وجدى

ما يصفو به ود المتوادين

قال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : ثلاث يصفو بها ود أخيك : تسـلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه اليه .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث : فى نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

وقال أبو العتاهية :

أحب من الاخوان كل مواتى — وكل غضيض الطرف من عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده — ويحفظنى حيا وبعد مماتى
ومن لى بهذا ليت أنى وجدته — فقاسمته مالى من الحسنات

الدروس الدينية

خطوة موفقة فى سبيل التوفيق بين المذاهب

إن السنة الكريمة التى سنها حضرة صاحب الجلالة الملك الفاروق فى الاستماع الى الدروس الدينية ، تعتبر بحق حادثا جللا فى العالم الاسلامى الحديث ، سيكون من آثارها المباشرة يقظة العاطفة الاسلامية فى نفوس الأمم الآخذة بهذا الدين ، والرغبة فى استجلاء روحه الصحيحة ، وأصوله العالمية القويمة ، ولفت الرجال الذين تضلعوا فى علومه الى القيام بواجباتهم الاجتماعية ، وتقريب مسافة التباين بينهم وبين الذين يتربون تربية دنيوية . ولما كان هذا لايمكن أن يكون إلا من طريق التناسب العقلى ، والترابط العامى بين الفريقين ، فسيثمر هذا الجهد انقلابا خطيرا فى وسائل الفهم ، وطرائق تجلية الأغراض الاسلامية ، ودعمها دعما فلسفيا يستهوى عقول المستمعين ، ويستنزل إعجابهم واستحسانهم . والأصول الاسلامية متى جليت على هذا النحو أسرت النفوس ، وبهرت الألباب ، واستولت بسموها على الميول والعواطف ، ولا يكون لتيارها حد يقف عنده ، وخاصة فى هذا العصر حيث وهنت التعصبات المذهبية ، واسترخت عرى المعتقدات الوراثية ، وتطلعت الأرواح لعقيدة سامية يثلج عليها الصدر ، ويشهد لها العلم .

وكان من فضل الله أن وافقت رغبة جلالة الملك فى سن هذه السنة الكريمة عهدَ حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغى ، فلقد قام من هذه الناحية بما اعتبر تجديدا باهرا فى حسن البيان ، وجمال الأداء ، وجلال الموضوع ، فكان عند ظن الناس بعلو كعبه فى المعارف الدينية ، وسعة اطلاعه فى العلوم الاجتماعية . وكان أثر هذا كله أن افتتن الناس قاطبة بهذه الدروس وعلى رأسهم كبار العلماء وشيوخ الكليات والطلبة . ولم يروا بدا من أن يولوا وجوههم شطر الأستاذ الامام طالبين اليه الاستمرار فى إلقاء هذه المحاضرات .

جال الأستاذ الامام فى دروسه فى نواحى شتى مما يهم النفوس من أسرار الدين ، وأصوله العلمية ، وفيما له صلة بالعالم الانسانى ومراميه الأدبية ، فتأدى من ذلك الى اختلاف المذاهب ، ونشوء الفرق ، وما ابتنى على ذلك من انفصام وحدة المسلمين ، ووقوع الشقاق بينهم ، فبين فضيلته الأسباب التى دعت الى ذلك ، والبواعث التى أوجبته ، ورأى أن هذا التخالف يمكن تداركه الآن ، أو على القليل حصره فى دوائر ضيقة لو تولى أمره مجمع شرعى يؤلف خصيصا لهذا الغرض من أعلام الدين ، وحفظة بيناته .

مطلب جليل القدر ، بعيد الأثر فى جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد وجهاتهم ، وتعيين غاياتهم ، وإعداد نفوسهم لفهم مرامى الاسلام ، وتحقيق مقاصده ، وحسم ذريع لمادة الخلاف

التي لا يصح أن توجد إذا راعى المسلمون الأصول العلمية والفلسفية التي بثها الحق في كتابه ، وطالب الناس بالأخذ بها .

إن الذين يعرفون تاريخ الاسلام يدركون أن هذا الخلاف الذي وقع فيه المسلمون من لدن القرن الأول للهجرة جر حروبا سالت فيها الدماء أنهارا تحت اسم حروب الخوارج . ولو أنعمنا النظر في الخلافات التي أدت الى كل هذه المجازر ، وجدناها خلافات سياسية ، تولدت من اختلافات في وجهة النظر فيمن هو أحق بالخلافة : أبو بكر أم علي ؟ وفي مسألة التحكيم بين علي ومعاوية : هل يصح أم لا يصح ؟ وقد انقسموا الى ستة مذاهب رئيسية ، وهم الأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والاباضية والثعالبة ،وهي أسماء منحوتة من أسماء زعمائها . وقد انقسمت هذه الفرق الى فروع كثيرة ، يجمعهم القول بالتبرؤ من عثمان وعلي ومن كل مرتكبي الكبائر من المسلمين . ومن الغريب أن الحوادث التي اقتضت ظهور هذه المذاهب قد انقضت ولم تنقض المجادلات حولها بين المسلمين ، وكثيرا ما حملتهم على تحكيم السيف بينهم وإزهاق الأرواح البريئة .

أليس مما لا يتفق وأبسط أحكام المنطق أن يمضي على أبي بكر وعلي رضي الله عنهما أكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، ولا تزال الأحقاد متأججة في صدور أنصار كل منهما ؟ ألم يقرأ الناس بين حين وآخر أن قتالا قد حدث في الهند بين الشيعة وأهل السنة جرح من الطرفين وقتل كذا وكذا ؟ هل هذا من الاسلام ، بل هل هذا من العقل ؟ ألم يقل الكتاب وقد ذكر الانبياء السابقين : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » ؟ فلو كان لدينا هيئة شرعية مؤلفة من كبار أئمة الدين كما يرتئيه فضيلة الاستاذ الامام لنبهت أولئك المتعصبين الى خطئهم ، ووقتهم شر ما يجنون على أنفسهم ودينهم .

ثم جاء دور علم الكلام من لدن القرن الثاني للهجرة فادى الى انفراج في الآراء ، وخلافات في وجهات النظر ، اشتغل بها أهلها أجيالا ، ودعت الى نشوء أكثر من سبعين فرقة ليس بينها وبين ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصغر صلة ، جمعت كل ما يمكن أن يطوف بالعقول من الخزعبلات ، حتى إن منها من زعم أن طول الخالق سبعة أشبار ، وأنه جالس على عرش ، وأن العرش ليئط من تحته . ومنها من وصل الى الاباحة الصرفة الخ الخ .

هذه المذاهب إن لم يكن لها أشياع ظاهرون في مصر ، فهي موجودة في بقاع أخر لا تزال تعمل على إفساد عقلية المسلمين الى اليوم .

بقيت المذاهب الفقهية ، وهذه لا غبار عليها ، أسسها رجال كانوا مُثلا عليا في العلم والورع ، وهي التي تتوزع المسلمين اليوم في جميع أقطار العالم ، ولكنها مع سلامة جوهرها من كل شائبة أدت الى فتن بين أشياعها في أدوار شتى ، وسالت بين أهلها دماء غزيرة في بقاع كثيرة من الأرض ، وقد كان حصة مصر منها موفورا ، فكثيرا ما أدى الجدال بين الشافعية والحنفية ، وبينهم وبين الحنابلة ، الى معارك سالت فيها الدماء . فاذا كانت قد هدأت هذه الثائرة بينهم منذ

نحو جيل فما ذلك إلا بسبب التطور الذى حدث فى العقول فى مدى القرن الأخير . وهـذا التطور نفسه هو الذى يلهم النفوس اليوم وجوب تضييق مسافة هذه الخلافات .

ولو تَعَرَّفنا حقيقة هذه الحاجة النفسية لوجدناها تعنى المطالبة بالعمل بحصتنا من النظر فى أمور الدين ، كما عمل أسلافنا بحصتهم منه . فاذا كانوا قد عملوا به فرادى جريا مع سنة العصر الذى كانوا فيه فبلغوا غايات بعيدة من الاصابة والتحقيق ، فنحن نرجى أن نعمل به مجتمعين جريا على سنة عصرنا الحاضر ، ليكون عملنا أدعى الى الرضاء العام ، وأفعل فى الوصول الى الحقائق الاجماعية . فاذا لم نستطع أن نحصل على توحيد المذاهب فاننا نستطيع أن نضيق شقة الخلاف بينها كما يقول فضيلة الأستاذ الامام .

الاسلام دين مبنى على النظر المستقل ، والرأى الحر ، فهو يكره التقليد وينعى على المقلدين ، ويطالب كل جماعة بالعمل فى حدود الأصول العامة التى رسمها لها ، وقد صرح جميع الأئمة بأنه لا يجوز للقادرين على النظر وتقدير الأدلة أن يأخذوا بما قالوه تقليدا دون نظر ولا تمحيص . فماذا يعنى بعد ذلك إهمالنا لذلك كله ، وتعطيلنا أشرف موهبة وهبها الله للناس وهى النظر والتعقل ؟ هل يعنى شيئا غير أننا نريد أن نعفى أنفسنا من القيام بنصيبنا من إقامة صرح الدين ، لنكون عالة على من تقدمنا ، فى عصر لا يغفر لأمة فيه أن تقوم على هذه الحالة ، اللهم إلا إذا كانت تريد من وراء هذا الاهمال أن يصبح الدين ، بسبب ما تسرب اليها من الشك فيه ، أثرا من آثار أسلافها ، لا عنصرا عاملا فى تكييف وجودها ؟

إن كل شىء فى الأمم الحية يحتاج للتجديد ، إن لم يكن فى جوهره ففى أسلوبه ، وفى عرضه ، وفى لهجته ، وفى أدلته ، وقد بدأنا نأخـذ حظنا من هـذه السنة فى لغتنا وآدابنا وعاداتنا ووجهات نظرنا ، أفنهمل هذا بالنسبة لأشرف حاجات النفوس وهو الدين ؟ وقد صرح النبى صلى الله عليه وسلم بأن التجديد من طبيعة الاسلام ، فقال : « إن الله يرسل على رأس كل مائة من يجدد لهذه الأمة دينها » . وكيف يحصل هـذا التجديد إذا لم يكن بالنظر فى كل ما تركه لنا الأولون ، والعمل على توحيده وتنسيقه وتقوية أدلته وتدارك ما جد مما لم يكن له وجود على عهدهم ؟

ومن الذى يستطيع هذا كله غير جماعة تقوم عليه تختار من أعلم الناس بالدين وعلومه من جميع الشعوب الاسلامية ؟

هذا ما أراده الأستاذ الامام فى أحد دروسه الدينية ، وأقسم أنه لم ترتفع دعوة إصلاح فى جِواء العالم الاسلامى فى أى عهد من عهوده أرفع من دعوة فضيلته هذه ، فعلى المسلمين أن يدركوا ما تعنيه هذه النزعة الشريفة ، وليعلموا أن هـذه الدعوة إن لم تثمر ثمرتها اليوم ، فستتحقق غدا ما دام المسلمون يريدون أن يبقى دينهم حيا ، يحفز الى المكانات العلى شعوبا حية ، وهو جدير بذلك وهم يشهدون .

محمد فريد وجدى

وفد علماء كلية الشريعة عند الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر :

عقد علماء كلية الشريعة ، صبيحة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٧ اجتماعا فى دار الكلية ، ضم طائفة من حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء جماعة كبار العلماء ، وتباحثوا فى الموقف الذى يصح أن يقفه علماء الأزهر حيال استمرار فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى إلقاء الدروس الدينية فى المساجد العامة التى افتتحها فضيلته فى شهر رمضان المبارك ، ورغب جلالة الملك فى حضورها .

وقد ألفوا وفدا وضع التماسا يتضمن رغباتهم ، وقصد الوفد الى إدارة المعاهد الدينية ، حيث قابل أعضاؤه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام شيخ الجامع الأزهر راجين أن يتفضل برفع شكرهم لحضرة صاحب الجلالة على ندائه الكريم للمسلمين يوم أول رمضان حثا لهم على القيام بفريضة الصيام ، وعلى حضوره الدروس الدينية .

وعلى أثر تقديم الالتماس وقف فضيلة الأستاذ الشيخ محمد هلال الأبيارى عضو جماعة كبار العلماء وألقى كلمة مستفيضة استهلها بتعداد ما أصاب الأزهر والأزهريين من مختلف الويلات والمصائب حتى كاد الأزهر يتردى فى الهاوية ، لولا أن قيض الله له إماما رفيع المكانة عظيم القدر .

وأعقبه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكى وألقى كلمة فى مثل هذه المعانى .

كلمة فضيلة الأستاذ الامام :

حضرات الإخوان :

أحييكم أطيب التحية . وبعد: فانه يسرنى جدا أن أرى فيكم هذا الشعور ، شعور الاعتراف بالجميل ، وإن كنت أعتقد أنى فيما أعمله وما عملته الى الآن لم يكن إلا القيام بالواجب على كل مسلم أن يقوم به ، ومع ذلك فهو الى الآن لم ينتج ثمره الذى يرجوه المسلمون .

نعم : أعتقد أننا فى بداية الطريق . وأقول لكم إن القيام بواجب نشر دين الله لا يكفى فيه المجهود الفردى ، وإنما يحتاج الى تضافر جهود المسلمين وأولى الرأى جميعا ، وإنه ليسرنى منكم هذا الشعور الذى جعلنى أعتقد أن مهمة نشر الدين تحل المحل اللائق بها ، وأنها آخذة فى الازدياد .

ولقد سمعت من خطبائكم ما يفيد أن ناسا لا يسرهم قيام المسلمين بنشر دينهم ويخشون شيوع الروح الدينى بين المسلمين .

وأنا لم يبلغنى هذا من طريق موثوق به ، لذلك فانى على فرض حصوله أتجاهله ولا أفرض وجوده ، لأنى لا أفهم أن مسلما يسوءه نشر دين الله فضلا عن أن يقيم العراقيل فى طريق ذلك .

إن لكل شىء مهمة فى هذه الحياة عليه أن يؤديها ، تلك هى طبيعة الوجود ، فاذا وجد شىء لا يقوم بتلك المهمة كان من الواجب أن يزول .

والأزهر كائن حى ، عليه واجب ، وله مهمة عليه أن يؤديها ، ولقد تلقى عن السلف الصالح ميراثا هو نشر كتاب الله ولغته وسنة رسوله ولغتها والعمل على إحيائهما . فإذا لم يقم بذلك وجب أن يزول من الحياة وكان من العبث بقاؤه .

واختتم فضيلته كلمته بقوله : إن مولانا الملك حفظه الله يسره ، ويرى من أجل أمانيه ، أن يكون الخادم لدينه ، والشديد العطف على أهله . وإنى أبتهل الى الله أن يحفظه ذخرا للدين وعاملا على إحيائه . وإنى أشكر لكم هذه الزيارة وهذا الشعور الطيب .

وفد كلية أصول الدين فى رياسة الأزهر لشكر جلالة الملك

خطبة جامعة لفضيلة الأستاذ الامام

وقصد الى رياسة الأزهر بعد ظهر ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٧ وفد من أصحاب الفضيلة علماء كلية أصول الدين نيابة عن علمائها لرفع شكر العلماء وولائهم لصاحب الجلالة الملك .

وكان الوفد برياسة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى وكيل الكلية فالقى كلمة عن الدروس الدينية ، وعن العواطف الدينية الشريفة التى يبديها جلالة الملك ، وعن واجب الأزهر فى الدعوة الى دين الله وتنقية عقائد المسلمين مما يعلق بها من البدع والخرافات ، ويظهر دين الله على فطرته الأولى من الحق .

وألقى بعد ذلك فضيلة الاستاذ الشيخ على محفوظ المدرس بالكلية كلمة أشاد فيها بمناقب جلالة الملك ، وانتقل الى الحديث عن فضيلة الأستاذ الاكبر وذكر ما كان يقوم به السلف الصالحون من الواعظين فى عصور الاسلام :

ثم قدم الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى التماس كلية أصول الدين موقعاً عليه من خمسين عالما

خطبة فضيلة الأستاذ الأكبر :

تحدث خطباؤكم عن صاحب الجلالة الملك فاروق ، ومن حقنا جميعا أن نتحدث بشكره وأن نشيد بفضله :

فلقد جاء جلالته ونفوس المسلمين فى مصر وغيرها متهيئة لليقظة وللاستفادة ، وقلوبهم متوثبة مستعدة للعمل لخير دينهم وأنفسهم ، معتقدين أن ما حاق بالمسلمين من عسف وذل [illegible] سببه إلا البعد عن الدين وعن العمل به .

جاء الملك فاروق فى هذا الوقت والنفوس متهيئة لذلك، فقاد هذه الحركة قيادة رجل ماهر حكيم يقظ، قيادة جاءت عن طبع فيه، وعن سجية أنشاه الله عليها ولم يتكلفها. فهو ملك خيّر طيب، مؤمن بالله وبدينه، وبما فى الاسلام من جمال وجلال وحق. هذه السجايا الشريفة التى لا كلفة فيها، وهذا الاخلاص لله ولدينه، سيجعلنا بقوة الله نصل الى ما نريده من توفيق وسعادة.

الدروس الدينية ودوامها:

أما الدروس الدينية فانى أعتقد أن إخلاصكم لى ومحبتكم إياى أكبرت من شأنها عندكم بأكثر مما تستحق. فهذه الدروس كانت شرحا لبعض الآيات الكريمة، قصدت به أن يكون فى المستوى الذى يفهمه الجمهور لا فى المستوى الذى يستفيد منه العلماء. فاذا قابله الجمهور بالحمد والاطمئنان والرغبة فى الزيادة فانى أصدق ذلك وأحمد الله عليه وعلى أنهم أفادوا منه. أما إذا سمعت منكم أن هذه الدروس كانت محل إفادة للعلماء فهو ما أحمله على الظن وعلى محمل رضاكم وإخلاصكم ومحبتكم لى، وأحمد الله على ذلك أيضا.

وإذا كان الجمهور متعطشا لمثل هذه الدروس ففيكم والحمد لله كثرة من أهل الفضل والعلم والقادرين على ذلك. فيكم كثيرون ممن يستطيعون أن يؤدوا لجمهور المسلمين ما أداه الشيخ المراغى وما لا يستطيع أن يداوم عليه لمشاغله التى تعلمون بعضها ويخفى عنكم كثير منها.

ولذلك أرجوكم وأطلب اليكم أن يقوم كل قادر منكم بواجبه لخدمة العلم والجمهور، وخدمة هذا المعهد القديم. أرجو هذا منكم كأخ لكم وكشيخ للأزهر، لا معتمدا على القانون، بل معتمدا على تقاليد الأزهر لإفادة المسلمين. وأترك لكم أن تسلكوا طريق هذه الافادة الى الناس بما ترون من إلقاء الدروس أو المحاضرات أو المواعظ فى المجتمعات أو فى المساجد أو أمام المذياع.

وإنى لا أتخلف عن أداء واجبى فى ذلك مادمت قادرا عليه.

أيها العلماء:

ما دمنا جميعا نشعر بروابط المحبة والألفة بين قلوبنا، وتشعر نفوسنا كلها وقلوبنا كلها وإخلاصنا كله بالتوجه الى الله وإلى خدمة دينه والاخلاص للمسلمين فنحن واصلون الى ما نبغى إن شاء الله.

المذاهب الاسلامية:

وبعد أن انتهى فضيلة الأستاذ الأكبر من كلمته السابقة تحدث الأستاذ الشيخ الجبالى(١) عن المذاهب الاسلامية وماتأوله بعض الناس فى كلام الأستاذ الأكبر عنها قائلا: إن هؤلاء

(١) كان الشيخ الجبالى رئيس بعثة الازهر الى الهند.

المتأولين لو شاهدوا ما شاهدنا من الخلافات بين طوائف المسلمين فى الهند لراعهم ما راعنا ولأحزنهم ما اشتد به حزننا على وجود هذه الخلافات بين أبناء ديننا حتى لتسيل الدماء بينهم فى الشوارع لأتفه الأسباب ، وحتى ليكفر بعضهم بعضا .

فقال الأستاذ الأكبر :

إن وجود المذاهب واختلاف الآراء شيء ضرورى لا بد منه ولا ضرر فيه ، ولكن الضرر كله والشر كله من التعصب للرأى والمذهب . وسمعتم وسمعنا ما قاله الأستاذ الجبالى عن الخلافات المذهبية فى الهند .

وقد جاءنى كتاب من العالم الكبير السيد عبد الكريم الزنجانى كبير علماء النجف الأشرف ، شرح لى فيه ما يرى من ضرر هذه الخلافات والخصومات بين المسلمين عن أشياء ما كان يجب أن يوجد عنها خصام .

فهذا الشعور بضرر التعصب للمذاهب والآراء يشترك فيه جميع العقلاء والمصلحين المخلصين فى كل بلاد الاسلام ، وعلى الأزهر واجب عظيم يطلبون منه أن يقوم به .

الانصاف العلمى :

تصوروا أيها العلماء الخلاف الذى وقع بين الشافعية والمالكية عن البسملة وهل هى جزء من القرآن أو ليست جزءاً منه .

تصوروا لو أن هذا الخلاف وقع فى هذه الأيام فماذا تكون الحال ؟

كان أقل شيء يقع هو أن يكفر المختلفون بعضهم بعضا .

هذا خلاف عن القرآن والتواتر ، ومنكرهما كافر . وخلاف يتعلق بالصلاة وهى فقار الاسلام . ولكنه حدث وقام بين السلف فلم يكفر بعضهم بعضا ، ولم يمنع أحدهم من الصلاة وراء مخالفه .

ذلك لأنهم كان رائدهم جميعا الانصاف العلمى والاخلاص للحق . فكان المخالف يرى أن صاحب الرأى الآخر يبنى ما رآه على دليل قام عنده أو أثر صح لديه ، ولا يخطر له أنه خالف لشهوة أو غرض . وهذا الانصاف والاخلاص للعلم والحق هما الذى نسعى إليه ، فالخلاف مع الانصاف لا يجر الى التفرق . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا وتوجه الى قبلتنا فهو منا » .

طريق الوحدة :

أمامنا أيها العلماء طريق سديد الى الوحدة : هو أن نعرض آراء المذاهب والفقهاء

على الكتاب والسنة ، وأنتم تعرفون أن كل إمام كان يقول إنه إذا صح حديث لم يكن يصح عنده فمذهبه ما يقضى به الحديث الصحيح .

فإذا فعلنا نحن ذلك وعرضنا ما نجد من آراء الفقهاء والمذاهب على كتاب الله والسنة الصحيحة ، فسنجد بعد حين أن المختلفين قد التقوا فى ساحة الأمان والتوحد .

كان الامام ابن حنبل يقول : إذا كان أمامك مفت واحد فاعمل برأيه ؛ وإذا كان أمامك مفتيان فلاتتبع أحدهمامقلدا ، بل اعرض الأمر على قلبك ، فأيهما أحس قلبك منه الراحة فاتبعه .

وهذا هو أسلوب القرآن ، وهذه حكمته ، فى إعمال الفكر والنظر والرجوع الى موهبة الله بالعقل والبصيرة . والامام ابن حنبل يجعل راحة القلب قائمة مقام الرأى والدليل عند من لا يستطيعهما . وهذه كما ترون حكمة سامية من حكم التشريع والعبادات فى الاسلام .

الاسلام دين يكره التقليد ويدعو الى النظر ، ولكن هناك مسألة تستحق ان نتعرض لها لافادة الناس هى تقليد العوام من مقلدة المذاهب ، فأنا أرى أن المقلد لا يجوز له أن يتحول عن مذهب إمامه فى المسائل التى قلده فيها بالفعل بل عليه الالتزام بها .

فمن كان شافعياً مثلا : يصلى ويتوضأ على مذهب إمامه ، فلا يجوز له أن يعدل عن مذهبه الى مذهب آخر فى الصلاة ، بل يجب عليه الالتزام ، حتى لا يكون متتبعاً للرخص .

أما فى المسائل التى لم يعمل بها على مذهب إمامه فله أن يقلد فيها مذهباً آخر إذا رأى أن دليل هذا المذهب فى هذه المسألة أرجح من دليل مذهبه . ففى المثل السابق يستطيع هذا الشافعى ان يحج على مذهب آخر على الشرط الذى شرطناه .

مجمع تشريعى للمسلمين :

هذه أيها العلماء مسائل فى الفقه الاسلامى مما لم يترك سلفنا الصالح صغيرة ولا كبيرة فيه إلا و فاها بحثا .

ولكن هناك مسائل كثيرة جدت على حياة الأمم والأفراد لم تكن موجودة فى عصور التشريع القديمة ، فلم يتعرض لها الفقه ، ولم يبحثها الاصوليون . ومن رأيى أن مثل هذه المسائل وهى كثيرة هامة ، لا يصح أن نتركها للرأى الفردى ، بل يجب أن تعرض على هيئة من العلماء كمجمع تشريعى لنستطيع أن نسن لها تشريعا ، وأن ندخلها فى نطاق القواعد الاصولية ، ونكمل بها مايحتاجه المسلمون الآن فى حياتهم الخاصة والعامة .

مادام إمامنا فى كل ما نعمل هو الانصاف العلمى الذى ذكرناه والذى كان ديدن السلف الصالح ، فنحن نستطيع أن نفيد المسلمين ، وأن يصلح الله بسعينا وصفاء قلوبنا ما هو فاسد الآن من أحوالهم .

تاريخ الادب العربى

قبل الاســلام (١)

تحيط البحار ببلاد العرب من ثلاث جهات ، وتفصلها صحراء الشام عن بلاد آسيا الصغرى وحضارتها القديمة ، ويتألف داخل البلاد من سطح مرتفع يبلغ مساحة غرب أوربا ، وتحيط به الجبال التى تعوق المرور الى البحر ، وأما السواحـل فقليلة التعاريج ولا تسمح باتخاذ المرافى الهادية للملاحة البحرية إلا فى الجنوب .

والهضبة الداخلية محرومة من الأنهار دائمة الجريان ، فكانت زراعاتها تحت رحمة الأمطار القليلة التى تجود بها السماء فى أزمان متقطعة بغير انتظام ، ولذلك نرى أن المحصولات الزراعية لتفاهتها لم تستدع الاهتمام والعناية بها إلا فى مناطق ضيقة فى الغرب والجنوب ، وأما الجـزء الأكبر من البلاد فلم يكن ليجود بأكثر مما تعيش به الابل ، وهى أكثر حيوانات البدو قناعة ، وأقدرها على التنقل ، فاهتم العرب بتربيتها حتى أخذت فى حياتهم المنزلة الأولى . وكان البدو يحتقرون مواطنيهم من سكان الأقاليم الخصبة الذين استهوتهم المعيشة الآمنة المطمئنة مؤثريها عن مخاطر الصحراء والحياة الحرة بها .

وافتقرت جزيرة العرب كذلك الى المراكز التى تجتمع بها الأهالى أفواجا فتقوم بينهم حياة مدنية مشتركة ، فلم يوجد من هــذه المدن سوى ماعرف فى السواحل الغربية والجنوبية ، ولم تقم هذه الحواضر سدا لحاجة البلاد ، وإنما نشات تبعا لمقتضيات التجارة العالمية التى تنقل محصولات الهند الى بلاد الغرب ، وكانت هذه التجارة فى أيام ازدهارها سببا فى قيام حضارة عظيمة فى جنوب جزيرة العرب ، تدهورت فى القرون الأولى من التقويم الميـلادى بدون أن يحفظ لنا التاريخ عنها شيئا من التراث الأدبى . وأما المدن التى على السواحل الغربية واشهرها مكة ، فـكانت أقل رونقا ولـكنها أثبت قدرا ، فانها لم تنشأ بسبب موقعها الطبيعى ، بل بفضل جاذبية الأماكن المقدسة بها التى يهرع الى مواسمها البدو من كل ناحية ، حيث يجتمعون آمنين فى حرمة المـكان ، ويتبادلون الزائد من محصولهم بمنتجات الحواضر الخارجية . ولقد استطاع رجالات هذه المدينة من آل قريش بسياستهم الحـكيمة أن يخضعوا الأسواق الأخرى المجاورة لسلطتهم ، حتى تمت لهم السيطرة على تجارتهم .

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الـكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

ولم يكن لسكان الحضر على البدو من امتياز إلا فى الناحية المادية ، أما الصحراء فكانت موطن الجزء الأسمى من الأمة العربية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يمثلون الشعور الوطنى على قدر ما تسمح به الحياة وقتئذ . وأما سكان المناطق الشمالية من بلاد العرب فكانوا يتمتعون بحياة بلغت درجة عالية فى أنظمتها السياسية لمجاورتهم الأمبراطوريتين العظيمتين فى آسيا الصغرى : الأمبراطورية الفارسية ، والرومانية الشرقية ، واحتكاكهم المتواصل بهما ، وبهما أنشأت الولايتان التابعتان للغسانيين واللخميين فى دمشق والحيرة لصد تيار البدو الجارف .

لم يكن الخلاف فى اللغة بين سكان بلاد العرب على تفاوتهم البائن ، بقدر ما يتوقعه الباحث فى تاريخهم الأدبى بالرغم من اتساع البلاد التى جابها البدو وترامى أطرافها ، وفضلا عن تفرق قبائلهم وتعددها ، فاننا نجد أن لغة واحدة عمت جميع البلاد من أقصاها الى أقصاها ، اللهم إلا بين أهل الجنوب حيث نشأت مع حضارتهم الممتازة طرائق خاصة للكلام فرقت بينهم وبين سكان الصحراء . وغنى عن البيان أنه كانت هناك لهجات متباينة يسهل على الباحث الآن استنتاجها دون الجزم بصحتها ، ولكن هذه اللهجات لم تكن بعيدة الأثر ، ولم تقو على فصل قبائل العرب بعضها عن بعض ، خصوصا أن حياة البدو الدائمة التنقل كانت تجمع بين قبائلهم ، وتوثق صلاتهم من آونة لأخرى .

ويستدل من الأنباء التى ترجع الى القرن السادس من الميلاد ، وهو أبعد عهد لنا بالرواية ، على أنه كانت هناك لغة فوق اللهجات المتعددة ، اشترك السواد الأعظم ، وخاصة السادة ، فى التفاهم بها ، تلك اللغة هى العربية على وجه الاجمال . والباحث اليوم لا يستطيع أن يعرف عن أصل نشأتها إلا ما يستند على الفرض والتخمين ، ولما كانت معلوماتنا عنها تقتصر على معرفتها لغة للشعر فحسب ، ولا علم لنا بها كأداة لقضاء حاجات الحياة ، فاننا نفترض تكونها وتطورها مع ظهور الشعر ونشأته الأولى ، وبما أن جميع القبائل على اختلاف لهجاتها اشتركت فى قول الشعر ، فان الأغلب على الظن أن اللغة العربية تغذت من جميع هذه اللهجات ، فأخذت منها ما راق سامعيه واتفقوا على قبوله ، أسوة بما جرى على الشعوب الأولى حيث نشأت فيها لغة للأغانى فوق الخصائص المميزة لقبائلها .

ولغة الأغانى العربية القديمة تكوّن مع كل من اللغتين القحطانية والأمهرية ، الفرع الجنوبى للغات السامية ، وتأخذ بينها جميعا المنزلة الأولى بدون جدل ، وهى وإن سبقها غيرها من اللغات السامية فى قدم العهد على الاطلاق ، أو فى بعض التفاصيل ، فانها كانت بلا شك أقدرها جميعا على التطور ، وأكثرها توسعا وإلماما بالخصائص والمميزات المشتركة ، مع احتفاظها بالوضوح والجلاء التام .

ويرجع تاريخ الشعر فى جميع الشعوب الى عصور قديمة لا يذكرها التاريخ ، ولم تثبتها الرواية ، ولا يأمل الباحث فى تاريخ الأدب العربى أن يعرف شيئا عن أصل الشعر ونشأته عند العرب ، اللهم إلا ما يرجع الى التخمين بطريق المشابهة والمماثلة على وجه العموم .

ولقد ثبت لعلماء النفس أخيرا أن الكلام المنظوم المقفى ذا الأوزان الثابتة نشأ فى مختلف الشعوب مع الحركات الجسمانية المنتظمة التى يفرضها العمل على الانسان ، كعلاج نفسانى منعا للتعب والاجهاد ، وقياسا على هذا الرأى ذهب بعض المؤرخين الى أن بدء الشعر العربى يرجع الى الحركات المنتظمة فى وقع أقدام الابل ، وأن نشيد الرعاة يحتفظ حتى اليوم بالبذور الأولى للشعر العربى ، ومما يؤيد هذا الرأى أن شعراء الأغانى الفنية فى العصور التاريخية الأولى فى الأدب العربى كانوا ينتقلون بخيالهم الشعرى لتصوير حياة الانسان العائش فى البادية .

وبديهى أن هذا الرأى هو إحدى وجهات النظر لبيان العوامل التى دفعت العرب الى المقال الموزون المقفى ، ولكن هناك من التأثيرات النفسانية ما هو أبعث للانسان على التعبير عن مشاعره وأفكاره ، فقد كانت العاطفة الجنسية من أهم التأثيرات النفسية عند أغلب الشعوب ، وكذلك كانت الحال عند العرب ، ولو أن الغزل والتشبيب بالنساء لم يظهر فى الأدب العربى إلا متأخرا بالنسبة الى الحزن والحسرة على فراقهن بسبب رحيل قبائلهن ، إذ كانت تجتمع القبائل المختلفة صيفا حول المراعى والمروج التى تكلؤها الابل ، فيتخلص الأعرابى من همه ويرتاح من متاعب الحياة فيحلو له التقرب من النساء والتحبب إليهن ، حتى إذا ما أجدبت الأرض من حشائشها ، تفرقت القبائل وقطعت العلائق القريبة العهد ، فتتمزق الأوصال الرقيقة ولا تترك سوى آلام الحب وشجونه التى ظهرت فى أشعارهم الأولى .

وأما عاطفة الحب نحو الأقرباء ، فلم تظهر فى الشعر العربى إلا بعد فقدهم ، ففى المراثى نجد كذلك أقدم مصادر الشعر العربى ، وكانت فى أول أشكالها — النحيب والعويل — محتكرا للنساء ، ولذا فاننا نراهن بعد التطور الفنى لهذه الناحية من الشعر ، قد فزن أيضا بالنصيب الأكبر ، فكان عدد الشعراء منهن فى هذا الميدان يفوق بكثير الشعراء من الرجال الذين ظهروا فيه . ودل تاريخ الأسرة العربية على أن حق الرثاء كان فى أغلب الأحوال من نصيب الأخت دون الزوجة . واقتصرت المراثى قبل كل شىء على إظهار التوجع ومدح المتوفى وذكر شمائله .

واعتاد العرب كذلك إظهار البغضاء والضغينة بالكلام المقفى تفريجا لصدورهم وإيذاء لغرمائهم ، وكانوا يرون فى الهجاء ، فضلا عن إهدار كرامة العدو وثلم شرفه ، قضاء على مستقبل حياته ، ولذلك نرى أن طبقة الشعراء ممن برزوا فى هذه الناحية من الشعر ، قد زادت عند الأعداء رهبتهم ، وبالغ الأصدقاء فى إكرامهم .

والى جانب الحب والبغض كانت تجيش فى صدور العرب من التأثيرات النفسية الرغبة فى المفاخرة بالذات أو الأصدقاء أو العشائر ، ولقد امتازت عبارتهم فى هذه الناحية من الشعر بأفخم الألفاظ وأكثرها مغالاة ، وامتد ولعهم بالفخر الى مدح رفيق الصحراء والتغنى بمحاسنه ، فنالت الابل من أشعارهم الوصفية جانبا كبيراً ، وبلغت حماستهم فى هذه الناحية درجة يتعذر على غيرهم من الأجناس إدراكها ، وذلك لقيمة الابل العظيمة فى الحياة البدوية .

وأما أشعارهم فى وصف الظواهر الطبيعية وأحوال الجو فكانت أقرب الى إدراكنا اليوم ، وكانت رحلاتهم الطويلة فى جوف الصحراء هى الباعث لهم فى أغلب الأحوال على قول الشعر فى وصف الطبيعة ومظاهرها المتعددة .

والأصقاع العربية القاحلة وقفارها الموحشة لم تدع للتغيير فى مناظرها سبيلا ، وكانت حيوانات الصحراء القليلة هى وحدها التى بعثت الحياة فى خيال البدو ، فظهرت فى أشعارهم فى وصف الصيد والقنص ببراعة فائقة ودقة بالغة .

وتلك كانت أهم البواعث النفسية التى غلبت فى أشعار العرب القديمة التى حفظها لنا التاريخ حتى اليوم ، وقد يسترعى النظر أن الرواية لم تأت بشىء عن مشاعرهم الدينية ، على أنه يمكننا القول على وجه اليقين بأن العرب لم تستعبدهم دياناتهم كما استعبدت من قبل غيرهم من الشعوب السامية كالبابليين مثلا ، خصوصا أن احترامهم لآلهتهم وتبجيلهم لمعبوداتهم كانا قد أخذا فى النقصان الى حد الزوال فى القرن السابق للاسلام ، ولم يبق لهم من العقائد الدينية إلا فكرة فناء العالم البشرى ، وكانت هى عزاءهم الوحيد فى متاعب العيش ومشقات الحياة ، ومع ذلك لا يبعد كذلك أن كانت لهم أشعار دينية لم تصل إلينا لا بسبب عدم اهتمام الأجيال الوثنية الأخيرة وقلة اكتراثهم بالشئون الدينية فحسب ، ولكن — وهذا أكثر ترجيحا — يحتمل أن تكون يد غلاة رجال الاسلام قد امتدت اليها ، وحرمت تاريخ الأدب العربي من روايتها .

ويختلف عادة المقال الذى يعبر به الانسان عن مشاعره القوية عن الكلام العادى ، بما يتطلبه أولا من تعديلات صوتية فى الالقاء ، ثم بما يدخل عليه من مميزات خاصة فى الألفاظ ، فانقسم المقال الى أجزاء لم يراع فى أول الأمر التماثل فى تركيبها ، ولكنها تنشد الانسجام فى الجمال الذوقى بواسطة تقريب التجانس بينها ، وأول حلية أدخلها العرب عليها هى السجع ، فنشأ بذلك النثر المسجوع الذى استطاع بعد ذلك أن يحتفظ بكيانه بعد تقدم تعبيرات اللغة الفنية ، وكان النثر المسجوع يلازم دائما أبدا الحالات الخطيرة والمناسبات الرهيبة أو الطقوس والحفلات الرسمية ، ولم يقصد به بعد التسلية أو إدخال السرور على النفوس ، وإنما قصد به وقتئذ الاستيلاء على قلوب السامعين وسحر أفئدتهم ، فاستخدمه العرافون والكهنة وشعراء الهجاء .

وتدرج العـرب من النثر المسجوع الى وزن تفعيلى بسيط بعد أن سيطرت على مشاعرهم القافية والتوقيع ، بفضل الأسباب والتأثيرات الخارجية ، وتطور هذا الوزن بعد ذلك الى أشكال فنية عديدة ، ولم يبق له أثر إلا فى بعض الأشعار الشعبية .

تعددت بعد ذلك صور الأشعار العربية واختلفت أشكالها دون زيادة ظاهرة فى الجوهر أو البواعث ، فعادت نفس العوامل السابقة الى الظهور فى المجموعات الشـعرية الـكبيرة التى عرفت بالقصائد ، ولم يشذ عن ذلك الا أشعار الرثاء والهجاء التى استطاعت المحافظة على نوعها المستقل . وعلى تعاقب الأيام أخذت هذه القصائد تنسيقا ثابتا ، فيبدؤها الشاعر عادة بذكر لوعته على فراق عشيقته ، ثم ينتقل لجأة بعد أن يرى عقم ما يندبه من حظ ضائع الى وصف مطيته ، وتتعاقب بعد ذلك صور مشاهد الطبيعة وأنباء الـكفاح ، وأخيرا يختتمها بالأشعار التى تعين قصده منها ــ ولذا سميت قصيدة ــ وهى عادة فى المباهاة أو المفاخرة بعشيرته أو مدح ولى نعمته ممن يرجو عفوه أو يأمل عطيته .

ويغلب على الظن أن هـذا التعاقب فى البواعث الشعرية كان من المستحدثات المرغـوبة فى ذلك العهـد الذى ترجع إليه القصائد التى لدينا ، وقد يرجع الأصل فيه الى أحـد الشعراء الأولين . ولم يتحد الرواة فى تحديد ترتيبها ، خصوصا أن العلاقة بين أجـزاء القصيدة كانت مفككة كل التفكك .

لم تكن الـكتابة فى شمال بلاد العرب أو فى أواسطها فى ذلك العهد مجهولة ، ولو أن استعمالها لم يكن منتشرا انتشاره فى البلاد المجاورة فى الجنوب والشمال ، ولـكننا لا نظن أن الـكتابة كانت تستعمل فى تلك العصور المتقدمة كأداة لتدوين الشعر ، بل إنه كان يعتمد فى نقله على الرواية الشفوية ، فـكانت مـنزلة الشاعر بين قبيلته واهتمامهم بأشعاره هما وحـدهما العاملان اللذان تتوقف عليهما درجة حفظ أشعاره وانتشارها ، وكثيرا ما اتخذ كبار الشعراء من هواة هذا الفن من المبتدئين رواة يلازمونهم حرصا على إنتاج قرائحهم وصيانة لبنات أفـكارهم .

والرواية الشفوية ، مهما افترضنا فيها أمانة الراوى وخلوص ذاكرته ، لا يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كليا ، خصوصا أنه لم تعـرف وقتئذ حقوق شخصية للشاعر فى أعماله ، بل وثبت لنا اليوم أن القوم لم يرعوا لذلك حرمة ، فاجترءوا عليها بالاستعاضة عن بعض عبارات الشعراء بعبارات أخرى مرادفة لها ، وما أغنى اللغة العربية بها .

فاذا كانت النصوص الأصلية لم تصدق الرواية فى نقلها فما أحرى أن يدخل الشك فى صحة ترتيب أبيات الشعر فى القصائد الـكبيرة ، لاسيما وأن الشعراء أنفسهم لم يعنوا كثيرا بترتيب أجـزائها .

ولكننا على الرغم من اللبس الشائع فى هذه التفاصيل ، نجد فى الرواية الأخيرة التى حفظها لنا التاريخ صورة صادقة من فن الشعر القديم ، على أنه يتعذر جدا أن نرى اليوم بواسطتها مميزات كل شاعر على حدة ، كما يصعب علينا أن نخلص هذه المجموعات الشعرية على وجه اليقين من الزوائد الدخيلة عليها .

ويرجع الفضل فى حفظ الأشعار العربية القديمة الى النهضة الأدبية التى قامت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة ، حيث بدأ هواة الشعر فى جمعه فوجدوا فيما علق بأذهان البدو كنوزا لا تفنى لم يبق منها حتى الوقت الحاضر إلا جزء يسير بسبب عدم اكتراث علماء الاسلام المتأخرين بكل ما لا علاقة له بالدين ، فكانوا إذا لم يبيدوا شيئا من آثار الوثنية فانهم لا يهتمون ببحثه ودرسه ، ولقد أتت غزوات المغول بعد ذلك على أكثر دور الكتب فى آسيا الصغرى ، وعلى الأخص بالعراق مركز الدراسات العربية القديمة ، فضاع أغلب أعمال الشعراء ولم يبق منها كاملا إلا لنفر قليل منهم .

واجتهد المتأخرون بعد ذلك ، كل على حسب ذوقه ، فى جمع مختارات من دواوين الشعراء ، وكانوا يأخذون لها إما قطعا شعرية كاملة ، وإما أجزاء منها ، واشتهر بين هذه المختارات مجموعتين : الأولى وهى المعلقات ، جمعها راو محترف هو حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ ﻫ ، والثانية وهى الحماسة ، جمعها أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ ﻫ .

والمجموعة الأولى عبارة عن سبعة قصائد طوال ، وسميت بالمذهبات لما احتمله اسم المعلقات من تفسير خاطىء ذاع عنها فى كتب التاريخ ، من أنها كانت مختارة فى العصور الوثنية ومعلقة على الكعبة ، والرواية الأصلية لهذه المجموعة تشمل قصيدة لكل من امرىء القيس وطرفة وزهير ولبيد وعنترة وعمرو والحارث .

وأما الحماسة فسميت كذلك تبعا لأول موضوعاتها وأطولها ، ويليه تسعة أبواب فى المراثى وفى الأدب وفى التشبيب وفى الهجاء وفى الأضياف والمديح وفى الصفات وفى السير والنعاس وفى الملح وفى مذمة النساء . وعنى أبو تمام فيها بجمع نماذج من الشعر لكل من عصرى الوثنية وفجر الاسلام فى أغلب البواعث التى ظهرت فى الشعر العربي على وجه العموم .

أما النثر فانه لم يكن له مظهر أدبى خاص بالنسبة الى حالة العرب المدنية قبل الاسلام . على أن التطور الذى صادفه بعد ذلك يكشف لنا عن بذور نشأته فى العصور الوثنية ، وإليها ترجع قبل كل شىء مجموعة الأمثال والحكم التى ظهرت منذ أزمان بعيدة ، وفيها تنعكس صور حياة البدو ، وترجع نشأتها الى مناسبات وأحوال خاصة فى الحياة القديمة ، جهلها الرواة الأولون وبقى معظمها محاطا بالابهام ، وتعذر على المفسرين المتأخرين تفسيرها على وجه اليقين .

ولم تخل كذلك الحكايات التى رويت عن دواعى الأشعار القديمة ، وذاعت بين القبائل المختلفة من بذور ساعدت على نمو النثر وتطوره بعد ذلك ، ولو أن أغلب هذه القصص التى لدينا عن الأشعار القديمة قد استنبطها المتأخرون بالاجتهاد من الأشعار نفسها ، إلا أن البعض الآخر يحمل الطابع القديم الذى لا يدعو الى الريبة فى حقيقة أصله .

على أنه كانت هناك أيضا فى العصور الوثنية القديمة قصص عديدة ذائعة عن أعمال القبائل وبعض الأبطال ، وإن كنا لا نتوقع فيها كل الصدق والأمانة التاريخية ، فانها تدلنا على روحهم الشعبية على وجه العموم ، وقد تسربت الى البدو بجانب هذه القصص مواد أخرى مما عرفت فى العصور الوسطى وكانت جزءا هاما فى الأدب العالمى حينذاك ، إلا أنهم استطاعوا تعريبها الى حد بعيد .

« يتبع »

أحسن ما قيل فى وصف الفاقة

وفى الصبر عليها

قال أبو العير الهاشمى الشاعر :

قنعت نفسى بما رزقت	وتمطت فى العلى هممى
ولبست الصبر سابغة	هى من قرنى الى قدمى
فاذا ما الدهر عاتبنى	لم يجدنى كافر النعم
لا أقول الله يظلمنى	كيف أشكو غير متهم

وذكر شاعر آخر للفقر حكمة فقال :

الحمد لله ليس لى فرس	ولا على باب منزلى حرس
ولا غلام إذا هتفت به	بادر نحوى كأنه قبس
ابنى غلامى وزوجتى أمتى	ملكتها بالملاك والعرس
غنيت باليأس واعتصمت به	عن كل فرد بوجهه عبس
فما يرانى ببابه أبدا	طلق المحيا سمح ولا شرس

ولكن الحق أن الفقر مكروه ، فمن أصابه وجب عليه أن يسعى لتحسين حالته من خير الوجوه ، وأ كفلها بصيانة كرامته ، لا أن يقعد مع القواعد منتحلا لنفسه المعاذير . ولقد قيل : رب حسب دفنه الفقر .

وقال شاعر :

الفقر يزرى بأقوام ذوى حسب	وقد يسوّد غير السيد المال

السلطتان الدينية والدنيوية

كما يراهما الاسلام

ليس فى الاسلام سلطتان تتنازعان الغلب كما هو الشان عند غير المسلمين ، وإنما هى سلطة واحدة ذات ناحيتين إحداها دينية والأخرى دنيوية . فالأولى هى التى تنظم علاقة الانسان بربه فى عباداته ومعاملاته الظاهرة والباطنة . والسلطة الدنيوية هى التى تنظم علاقة الانسان بالانسان وترسم لتلك العلاقة حدودا فى المعاملات بشتى ملابساتها . وتتالف هذه السلطة من سلطات ثلاث : التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية . وبدهى أن الاسلام دين روحى زمنى ينتظم فى أبلغ أوضاعه عملى الدنيا والآخرة ، فهو بطبيعة وجوده مصدر يصل بين حياتى المعاش والمعاد ، ويكل الى المضطلعين باعباء الحكم أن يستمدوا قوانينه ومبادئه من مستقر جميع الأصول الكاملة وهو القرءان .

فلو أغفل الاسلام الناحية الروحية لكان مزيجا من أخلاق متدافعة وعادات متناقضة ، ولكان قصارى جهد معتنقيه أن يخضعوا لنواميس هذا المجتمع فى علله وأوصابه وتدافع أسبابه ، وأن تكون الغلبة فيهم للقوى العاتى ، وأن توجد الفروق بين الطبقات والاسر .

من أجل ذلك امتزجت الناحية الدنيوية فى الاسلام بالناحية الدينية فى نظام الحكومة ، على معنى أن نظام الحكومة كان مستهديا فى جميع أدواره بنور القرءان .

حمل الاسلام فيما حمل من أسمى المبادئ مبدأ الشورى ، لتكون أساس الحكومة الصالحة ، ودعامة تتلاقى عندها سائر الرغبات والأمانى ، لأن الشورى فى أبسط أحكامها خير من رأى الفرد ، فهى وليدة آراء مستخلصة من قوة الجماعة لا يراد بها غير إسعاد المجموع وإشعاره بمبدأ العدالة والمساواة حتى يظل آمنا فى سربه حصينا فى أغراضه ومراميه ، وإن لم تكن الشورى القائمة بيننا الآن فى الشرق والغرب هى التى تعنيها مبادئ الاسلام. فالشورى التى تعنيها مبادئ الاسلام هى المستخلصة من قوة الجماعة كما قلنا ليس فيها أثارة من تشيع لهوى أو أخذ بنحيزة أو إصغاء الى ضغن فى سائر مرافق الدولة .

الناحية الدنيوية ترسم شكل الحكومة ومقاصدها المختلفة ، وتؤسس الأنظمة المتنوعة للافراد والأسر والجماعات والقبائل والأمم ، وتضع أحكام الحرب والسلم وسياسة القضاء والادارة ونواميس الاجتماع ، ثم هى تنساب بعد الى الأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانسان فتنشئ علاقة زوجية صالحة بين الرجل والمرأة ، وترتب عليها حقوقا قبل المرأة وحقوقا قبل الرجل ، ثم تتناول أحكام الارث فتوزع الانصباء من تركة الميت على ذويها توزيعا قائما على أدق أنواع

الرعاية وأحكم مرامبها ، ثم تتعهد الحاكين بالوصايا الجامعة حتى لا ينِدّوا عن شريعة الحق ولا تصغى قلوبهم الى شوائب الهوى، ثم تهيب بالمحكومين الى السمع والطاعة فيما أمر الله . وبهذا التساند بين الهيئتين ينتظم الأمةَ والحكومةَ عدل قائم على الاخلاص المتبادل ، وتسودها روح طيبة فى مرافق البلاد وحيويتها .

لقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية ، فأقام بهاتين السلطتين خير حكومة من حكومات الأرض فى تاريخ البشرية ، وأسس للانسانية العامة أفضل المناهج فى الحكم حتى فاضت القلوب باليقين الراسخ والطمأنينة الشاملة . ولا أدل على ذلك من أقوال الرسول وأعماله وما ينزل به الملك من الآيات منجمة بحسب الوقائع ، سواء أكان ذلك متعلقا بأمر من أمور المعاش أم المعاد ، إذا استثنينا بعض مسائل تقليدية تافهة لا يتصل وجودها بقانون الحكومة أو الاجتماع ، ثم درج من بعده خلوفه على قدمه صلى الله عليه وسلم فكانوا نعم الخلف لنعم السلف . وناهيكم بعمر الفاروق الذى كثرت على يديه الفتوحات الاسلامية مؤسسة على الكتاب والسنة وهدى الرسول الأعظم ، فاستدام بذلك الناموس السماوى أصلح الطرائق فى أنواع الحكم ، وأهدى السبل فى إسعاد الأفراد والجماعات والأمم .

إن الشريعة الاسلامية السماوية هى شريعة الخلود والبقاء ، لأنها جمعت بين حلقات الزمن من دابر وحاضر ، فوضعت لكل عصر وجيل أحكامه وطرائقه ، فكانت شريعة الاسلام خير الشرائع وأمثل القوانين .

وغنى عن البيان بعد هذا التقرير أن الذين يقولون بضرورة فصل الدين عن السياسة قد جهلوا حقائق الاسلام أو على الأقل تجاهلوا نظام الحكم فيه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وفى عهد خلوفه من بعده ، أولئك الغر الميامين الأطهار الذين حكموا دينهم فى الدولة فسادوا ، لأنهم قضوا بهذه السياسة العالية أوطار الأفراد والجماعات ، وحققوا لهم كل رغبة صالحة ، ثم اجتاحوا لوثة الوثنية ومستهجن العادات فى عهود الجاهلية .

ولعل النمط الذى جرى عليه توزيع الزكاة والصدقات وإقامة الولاة فى الدولة ورسم الحدود ووضع الخطط التى ينتهجونها فى أمثل حكومة عادلة بواسطة برامج تكشف لهم حقيقة حكم الشعوب الداخلة فى الاسلام وأخذهم بالهوادة فى موضعها وتيسير الأمور عليهم حين لا يضيق عنهم التيسير ونوع معاملة أولئك الولاة للذميين والمعاهدين والمحاربين والمدى الذى توزع به السلطات بين شئون الرعية ـ آية الآيات على أن الاسلام فى حقيقته دين يقوم على أهدى السبل وأعدل المناهج ، وأنه الوارث لجميع الأوضاع البشرية « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

عباس طه
المحامى الشرعى

تقرير بعثة الهند

— ٦ —

٥ — العيد الألفى للأزهر :

وها هى ذى فرصة ذهبية تتيح للأزهر أن يخطو خطوة عملية فى هـذه السبيل ؛ فبعد سنوات معدودات يحتفل الأزهر احتفالا عالميا بعيده الألفى ، ومما لا شك فيه أنه سيتقدم للجامعات الأوربية والأمريكية بالدعوة لحضور هذا العيد؛ فهل يتاح لنا أن نرى فى مصر ممثلى جامعات الهند ورجال الفكر فيها ؟

أكبر ظننا أن الأزهر الشريف ، وعلى رأسه حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، لن تفلت من بين يديه هـذه الفرصة ، لاسيما وأن كثيراً من رجال العلم والفكر فى تلك البلاد قد طالعونا برغبتهم فى أن يتاح لهم حضور هـذا العيد الذى يجب ألا تستأثر به مصر وحدها ، خصوصا وقد أعلنت أن الأزهر جامعة عالمية ، لكل مسلم على وجه الأرض حق فيها .

٦ — مشروع تفسير القرءان الكريم :

وقد عنيت البعثة عناية كبرى بالتحدث الى زعماء الهند ، ومحاضرة الطلبة خاصة ، والمثقفين عامة ، على مشروع تفسير القرآن الكريم ، الذى يقوم به الأزهر الآن ؛ وقد شرحنا الضرورات التى استلزمت هذا التفسير الحديث ، كما أشدنا بالحكمة التى تجلت فى تأليف اللجنة من حيث إنها جمعت بين رجال تثقفوا ثقافة دينية كاملة ، ورجال آخرين ساهموا فى الثقافتين الدينية والمدنية ، وتلقنوا العلم على أحسن أساتذته بالجامعات الأوربية ؛ فآنسنا من الجميع ارتياحاً عظيما الى هذا المشروع الذى يرجى منه للاسلام فوائد تفوق الحصر .

وجميعهم يتوجهون بالشكر لله تعالى ، أن هيأ للازهر تلك الفرصة التى ستمكنه إن شاء الله من أداء خدمة كبرى للاسلام ؛ وكم من خطيب قام يعلق على خطبنا بازجاء جزيل الشكر الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، لصائب تفكيره وثاقب نظره .

ولما أن تطرقنا بالحديث الى مشروع ترجمة هذا التفسير الى اللغات الأجنبية ، طولبنا بأن نرفع الرجاء صادقاً ، الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، أن تكون اللغة الأردية من بين اللغات التى نترجم إليها تفسير القرآن الكريم ؛ فانها لغة عامة المسلمين فى الهند . وقد بلغ تشوقهم الى ذلك

المشروع أن طلبوا ألا يرجىء الأزهر الترجمة حتى ينتهى من التفسير ، بل الأوفق أن يترجم كل جزء تنتهى اللجنة من تفسيره .

ومما يذكر لحكومة صاحب السمو العالى « نظام حيدر آباد » بالشكر والثناء : ماورد على لسان معالى وزير المعارف عند ماسمع بمشروع الترجمة ، فقد قال : إنه يسره كثيراً أن يعلم تفاصيل ذلك المشروع ، حتى يتسنى لحكومته أن تساهم فى مشروع الترجمة الى لغة الأردو ، وأظهر استعداد الحكومة للقيام بمشروع هذه الترجمة لحسابها الخاص ، وكذلك بطبع عشرات الألوف من نسخ هذه الترجمة .

أما السير « روس مسعود » وزير معارف سمو « نواب بهوبال » ، فقد أبدى ارتياحاً عظيما للفكرة ، وطلب الاطلاع على تفاصيلها ؛ لأنه يرجو أن تبذل حكومته مساعدة تذكر فى هذه السبيل ، ولكنها لا تستطيع تحديد موقفها قبل أن تطلع على التفاصيل .

وقد أبديت إلينا بشأن هذا التفسير فكرة تستحق البحث ، هى أن الأزهر يجدر به أن يشرك بعض علماء الهند فيه ؛ ولكنا أجبنا على ذلك بأن ما يحق للهند يحق لغيرها من الدول الاسلامية ، فاذا اتسعت دائرة المفسرين هذا الاتساع تعرض المشروع للعطل الناشئ عن الجدل والنقاش ، ثم عن عدم تكامل الأعضاء ؛ ورأينا أن الأجدر من ذلك بالنظر ، هو أن يسمح بالحضور فى لجنة التفسير لاثنين أو ثلاثة من العلماء الهنود ، ليكونوا عونا لقسم الترجمة الى الأردو ، إذا خرج المشروع الى حيز التنفيذ .

ولما أن تذاكرنا هذا الأمر مع « نواب مهدى يارجنك » وزير معارف حيدر آباد ، أظهر استعداد حكومته لأن توفد العالمين اللذين يقع عليهما الاختيار على نفقتها تمهيداً لمشروع ترجمة التفسير .

٧ - مجلة الأزهر :

وقد كان لمجلة الأزهر نصيب من نشاط البعثة ولكنه محدود ؛ ذلك بأن المجلة غير ذائعة فى الهند الذيوع الذى يسمح للقوم بأن يتتبعوا حديثنا فى شأنها ، ولكن « السيد سليمان الندوى » وهو من كبار علماء الندوة ، ذكر لنا أنه يقرؤها بانتظام ، وقد كون رأيه فيها بأنها ينبغى أن تكون أرقى من حالها اليوم ، لتناسب ما للأزهر من مكانة سامية .

وقد شاءت الظروف أن يفتتح باب الكلام فى هذا الموضوع قبيل سفر القطار بحيث لم تتسع لنا فرصة لتفصيل الحديث ، على انه وعد بأن يكتب إلينا فى هذا الشأن .

وفى رأينا أن المجلة يجب أن ترسل الى كثير من الأمكنة فى الهند ، فانها خير مذكر للقوم بالأزهر ورسالته ، وهى الكفيل بأن يستمر الاتصال الروحى بين القطرين ، وحبذا لو عنيت

إدارة المجلة بأن تطلب الى بعض عظماء الهند : أمثال السيد سليمان الندوى ، ومولانا أبي الكلام أزاد — أن يوافوها بالمقالات بين آن وآخر .

٨ — دور الكتب الدينية والعربية :

بالهند كثير من دور الكتب الدينية والعربية ، يحتوى عدد منها مؤلفات لايستهان به ؛ ومن أهمها مخطوطات يرجع عهدها الى العصر الاسلامى فى تلك البلاد ، وكثير منها استورده ملوك المسلمين من بلاد فارس .

ولم يتسع وقت البعثة لبحث مستفيض فى هذه الكتب ، غير أننا كونا فكرة عامة عنها ؛ ويجدر بالأزهر ، الذى يعتزم تنظيم مكتبته ، وتوسيع الانتفاع بها ، أن يعنى بدور الكتب التى أشرنا إليها . وحبذا لو فكر فضيلة الأستاذ الأكبر ، فى أن يوفد أحد المتخصصين فى شئون المكتبات ، يكون له إلمام بما فى المكتبة الأزهرية من المخطوطات ، لزيارة دور الكتب التى سنذكرها هنا ، عسى أن يجد فيها ما يكمل بعض المخطوطات ، أو يلقى بعض الضوء على تاريخها ، وإلا فلا أقل من أن يكلف بعض المصريين الذين يبعثون الى الهند ، فى شئون الثقافة الاسلامية ، بأن يطوفوا بتلك الدور طواف الباحث المدقق ، على أن يوافوا الأزهر بما يرون .

ومما أسفنا له أن كثيرا من هذه الدور ، لم تطبع لها فهارس منظمة ، ولذلك ما جاءت البعثة إلا بما استطاعت أن تحصل عليه من هذه الفهارس .

وفيما يلى بيان بهذه الدور :

١ — مكتبة بهو بال

٢ — مكتبة رامبور (وفيها أكبر عدد من المخطوطات) .

٣ — مكتبة جامعة البنجاب بلاهور .

٤ — مكتبة الأستاذ محمد شفيع مدير الكلية الشرقية بلاهور .

٥ — مكتبة الكلية الاسلامية فى بشاور

٦ — مكتبة بهاولبور الخاصة بسمو النواب .

٧ — المكتبة الآصفية بحيدر آباد .

٨ — المكتبة السعيدية بحيدر آباد .

آراء فى الثقافة الاسلامية :

لاشك فى أن مصر بلد اعترف له بالزعامة الثقافية بين امم الشرق قاطبة . وقد شهدنا بأعيننا

فى الهند مايدل على سمو مكانتها بين هذه الأمم ، مما عرضنا له فى فصول سابقة من هذا التقرير ، غير أننا نشير هنا بوجه خاص الى ما تنتظره الهند الاسلامية من مصر فى عهدها الجديد ، ذلك بأن تساهم مصر فى رفع مستوى اللغة العربية فى المدارس والجامعات الهندية ، محافظة منها على هذه اللغة التى تصل بين أمم الاسلام فى العالم كافة .

فما قصدنا الى مؤسسة علمية ، ولا تحدثنا الى شخصية كبيرة ، دون أن يرد ذكر هذا الأمر . وهم يتطلعون الى مصر ، لأنها القطر الوحيد الذى يستطيع أن يقوم بهذا العمل الجليل اليوم .

وفيما يلى بيان بما وصلت إليه البعثة فى هذه السبيل :

أولا : فى إمارة بهوبال الاسلامية : عند ما كنا فى زيارة إمارة بهوبال الاسلامية ، وكان سمو النواب متغيبا ، تحدثنا فى هذه الشئون الى « السيرروس مسعود » وزير المعارف ، فقال : « إن البلاد هنا فى مسيس الحاجة الى طبقة من العلماء المصريين ، يجمعون بين علوم الدين وبين العلوم المدنية ، مع التمكن فى اللغة العربية وآدابها والطرق الحديثة لتدريسها ، وتقريب علومها الى الأذهان ؛ ولو استطاعت مصر أن تستغنى عن واحد أو أكثر من هؤلاء ، لاستخدمتهم حكومة بهوبال . ولكن الحكومة تشترط فيمن يبعث إلينا أن يكون مثلا عاليا للاسلام ، فى حياته العملية والعلمية ، وأن تكون حياته نبراسا يهتدى به العامة فى حركاته وسكناته » .

وقد قال السيرروس مسعود أيضا : إن الحكومة على استعداد لأن تمنح مثل هذا المبعوث كل التسهيلات اللازمة ، الى راتب يناسب مؤهلاته . وظهر من خلال الحديث أنهم على استعداد لدفع راتب شهرى قدره أربعون جنيها مصريا ، مع حق الاقامة فى منزل تعده له الحكومة فى حى كبار الموظفين ، فضلا عن امتيازات أخر يستطيع المبعوث الحصول عليها ، بما يكون له من مزايا ، تكون موضع تقدير ولاة الأمر بعد حضوره .

ولما دعينا لمقابلة سمو النواب فى أخريات أيام رحلتنا فى الهند ، فتح سموه الكلام فى نفس الموضوع ، ثم قال : إن حكومته قد تحتاج الى اثنين أو ثلاثة من هؤلاء ، بالشروط التى تكلم عليها السيرروس مسعود ، وإنه يرجو أن يعنى الأزهر بهذا العرض ، وقد صرح سموه بأنه قوى الأمل فى ألا يمضى عام واحد قبل أن يتحقق هذا المشروع ، كما أبدى سموه الرغبة فى أن يعمل الأزهر على إعداد طبقة من علمائه البارزين للخدمة فيما وراء البحار ، فان هذا أفضل عمل يستطيع الأزهر أن يقوم به لتدعيم أواصر الصلات العلمية والدينية بين مصر والأقطار الاسلامية الأخر .

ثانيا : فى جامعة عليكرة : عندما كنا فى زيارة جامعة عليكرة عرضنا مع الدكتور ضياء الدين ، حال قسم اللغة العربية بالجامعة ؛ ومن ثم قال الدكتور إنه يوافقنا على ما ذهبنا اليه ، ويرى أن

الطريق الوحيد للسير بهذا القسم الى الأمام ، هو الاعتماد على الأزهر فى تدريس اللغة العربية ، والأخذ بالوسائل الحديثة التى تتبع فى تعليمها بمصر ، وفى تشجيع الطلبة على التخاطب بهذه اللغة ، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان بهذا القسم واحد أو اثنان من المدرسين المصريين ، وإن الجامعة على استعداد لأن تدفع راتب أستاذ واحد ، فاذا رأى الأزهر أن يرسل اليها اثنين ، وقبل أن يكون راتبهما مناصفة بين الأزهر وجامعة عليكرة ، فان الجامعة يسرها أن تتقدم بينها وبين الأزهر المحادثات فى هذا الشأن .

ثالثا : فى الجامعة الملية : لما كانت الجامعة الملية كما ذكرنا مؤسسة تقوم على تدعيم الدين الاسلامى واللغة العربية فيها ، ربطاً للهند الاسلامية بكافة الأقطار الاسلامية الأخر ، فقد عنيت الجامعة بالدين واللغة معاً ؛ ولكن مواردها ، كما ذكرنا ، لا تساعدها على التوسع . لكل هذه الاعتبارات ، تقدم الينا الدكتور « زاكر حسين » عميد الجامعة ، برجاء أن يساهم الأزهر فى هذا العمل الجليل ، فيقرر إيفاد مدرس أو مدرسين — على نفقته — لتعليم اللغة العربية والدين الاسلامى بالجامعة .

وتوسيعا للانتفاع بهؤلاء المبعوثين ، يقترح الدكتور زاكر حسين ألا ينحصر عملهم فى التدريس بالجامعة الملية ، بل يصح أن يتفق مع الجامعات والمؤسسات الاسلامية الأخر على أن يزورها المبعوثون زيارات دورية ، لإلقاء المحاضرات وتشجيع الاهتمام باللغة العربية والدين .

رابعا : فى إمارة رامبور : زرنا مدرسة للعلوم الدينية والعربية تديرها حكومة سمو النواب ، ولما تحدثنا على هذه المدرسة الى السيد « بشير الزيدى » رئيس الوزراء ، ألفينا منه استعدادا لإصلاح أحوالها وفق ما يشار به ، ثم حدثنا على حاجة المدرسة الى مدرس مصرى من خريجى الأزهر يقوم بالاشراف على شئونها ، فيساعد الرئيس الحالى ، على أن يحل محله حين ترى الحكومة إحالته الى التقاعد نظراً لكبر سنه .

خامسا : فى الجامعة العباسية : سبق أن تحدثنا على الجامعة العباسية فى بهاولبور ، فذكرنا أنها تريد أن تماشى الأزهر فى أحدث تطوراته ، غير أننا لم نتحدث الى رجال الحكومة هناك عما يمكن الأزهر أن يساهم به فى هذه السبيل . وفى رأينا أنه إذا عرض على الحكومة أن تستعين بواحد أو بأكثر من خريجى الأزهر ، فى تدريس العلوم العربية والدينية ، أو الاشراف على شئون الدراسة فى هذه الجامعة ، أو الالتحاق بوزارة المعارف للتفتيش على المدارس الدينية ومساعدة القائمين بالأمر فيها ، فان حكومة سمو النواب قد ترحب بهذا المقترح .

سادسا : فى إمارة حيدر آباد : رأينا حركة شاملة فى صالح اللغة العربية والدين الاسلامى فى إمارة حيدر آباد ، وأحسسنا من جميع من حادثناهم شعوراً طيبا وميلا ظاهرا نحو تأسيس

علاقات الود والصداقة بين مصر وبين تلك البلاد . وقوام اللغة العربية والدين الاسلامى فيها طائفة من الأساتذة تخرجوا جميعاً كما ذكرنا فى المدارس والمعاهد المصرية على اختلاف أنواعها ، ويعتبر هؤلاء تربة خصبة لإنماء علاقات الود بين حيدر آباد ومصر .

وقد تحدثنا الى وزير المعارف هناك فى شئون شتى ، نقتصر منها هنا على ما اقترحناه ، وهو أن تساهم حكومة حيدر آباد فى نفقات إنشاء قسم لتدريس لغة الأردو بالأزهر الشريف ، فتدرس فيه هذه اللغة كما كانت تدرس اللغة اليابانية فى « تخصص الوعظ والارشاد » بكلية أصول الدين ، او على مقياس أكبر من ذلك .

وهنا أدلى لنا معالى الوزير برغبته فى ان يكون إنشاء هذا القسم وإدارته على نفقة صاحب السمو العالى النظام ، وأن يسمى « كرسى حيدر آباد لتعليم الأردو » ، وقال : إن الحكومة مستعدة للتحدث فى الموضوع على هذا الأساس .

وفى رأينا أن القسم اذا افتتح وعين له أستاذ من أساتذة الجامعة العثمانية الذين يعرفون اللغة العربية ويقومون بتدريسها ، أو بتدريس بعض علوم الدين هناك ، فان الأزهر يستطيع عندئذ أن يرشح أحد خريجيه ليشغل الوظيفة التى تخلو فى الجامعة .

ولا نظن أن الاعتبارات المالية تحول دون تنفيذ هذا المقترح ، ولاسيما من ناحية حكومة حيدر آباد .

تقرير عن حال المنبوذين :

مقدمة :

يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام على المنبوذين ، أن نشير الى أن استقصاء أحوالهم ، قد أحاطت به ظروف محلية وملابسات كان من شأنها أن تضطر البعثة الى التانى فى هذه الدراسة ، وأن تعمد ، فى بعض الأمكنة ، الى الانكماش ، حيث لا تجد الجو صالحاً لهذه المباحثات ، كما تعمد فى أمكنة أخر الى بحث الموضوع فى غير حذر ، عند ما تجد الجو صالحا لذلك .

ولا نرى مندوحة من الإشارة الى أن وصول البعثة الى الهند ، قد أحاطت به ظروف شائكة ؛ فقد نشرت الجرائد الهندوسية ، بل بعض الجرائد الاسلامية أيضا ، أن البعثة قادمة للقيام بحركة بين المنبوذين ، بغية تحويلهم الى الاسلام ، فقامت القائمة ، وتكهرب الجو ، مما دعا البعثة الى إصدار بيان للصحافة ، قد أشرنا إليه فى صدر هذا التقرير .

وبهذه المناسبة تتقدم البعثة بجزيل الشكر الى جميع من أمدها بالمعلومات ، والى من ساهموا فى البحوث ، وتخص بالشكر « السير محمد إقبال » الذى ضحى بالكثير من وقته وصحته فى هذه

السبيل ، وكذلك تزجى الشكر الى الأستاذ الكبير « غلام بهيج نيرانج » الذى كان له أكبر قسط من النشاط فى هـذا العمل الجليل ، والذى عنى بأن يجيب البعثة على كل ما وجه إليه من الاستشارات ، وكذلك الأستاذ « فضل رحيم » ، والطبيب « أسرار أحمد » ، و « نواب محمد يارجنج » ، والأستاذ « محمود فاندرمان » ، وغير هؤلاء ؛ ممن لم تسع الذاكرة أسماءهم .

وتتقدم البعثة كذلك بجزيل الشكران الى حضرات من ساهموا بقسط وافر من العمل ، لإنجاح البعثة فى مهمتها ، ثم شاءت ظروف خاصة ألا تذكر أسماؤهم فى هذ التقرير .

إحصاء عام عن المنبوذين :

يبلغ عدد المنبوذين — وفق آخر إحصاء رسمى صدر منذ ست سنوات : ٥٠ر١٩٥ر٧٧٠ نسمة ، أى بنسبة ١٤ فى المائة من مجموع سكان الهند ، وبنسبة ٢١ فى المائة من تعداد الهندوس العام ، وتختلف نسبتهم الى عامة السكان ، ثم الى الهندوس ، بين إقليم وآخر ، وفيما يلى بيان ذلك :

أولا : فى الهند البريطانية :

الاقليم	عدد المنبوذين	نسبتهم للهندوس	نسبتهم العامة
الولايات المتحدة	١١ر٣٢٢ر٠٠٠	٢٨ فى المائة	٣٢ فى المائة
مدراس	٧ر٢٣٤ر٠٠٠	١٨ «	١٥ «
بنغال	٦ر٩٠٠ر٠٠٠	٣٢ «	١٤ «
بحار ، وأوريسا	٥ر٧٧٤ر٠٠٠	١٩ «	١٥ «
الولايات الوسطى، وبرار	٢ر٨١٨ر٠٠٠	٢١ «	١٨ «
آسام	١ر٨٢٩ر٠٠٠	٣٧ «	٢١ «
بومباى	١ر٧٥٠ر٠٠٠	١١ «	٨ «
البنجاب	١ر٢٨٠ر٠٠٠	٢٠ «	٥ «
دلهى	٧٣ر٠٠٠	١٨ «	١١ «
أجمير ، ومروار	٦٧ر٠٠٠	١٨ «	١٤ «
كرج	٦٥ر٠٠٠	١٧ «	١٥ «
بلوخستان	٥ر٧٠٠	١٤ «	١ «
مقاطعة الحدود	٥ر٥٠٠	٤ «	٠ «
جزر أندمان ، ونيكوبار	٥١٠	٨ «	٢ «

ثانيا : فى الامارات :

الاقليم	عدد المنبوذين	نسبتهم للهندوس	نسبتهم العامة
حيدر آباد	٢٫٤٧٣٫٠٠٠	٢٠ فى المائة	١٧ فى المائة
ترافانكور	١٫٧٧٠٫٠٠٠	٥٦ »	٣٥ »
راجبوتانا	١٫٥٦٥٫٠٠٠	١٦ »	١٤ »
ميسور	١٫٠٠٠٫٠٠	١٧ »	١٥ »
إمارات الهند الوسطى	٧٨٠٫٠٠٠	١٤ »	١٢ »
جواياالور	٦٧٨٫٠٠٠	٢١ »	١٩ »
إمارات بحار، وأوريسا	٦٣٢٫٠٠٠	١٥ »	١٤ »
إمارات البنجاب	٣٩٣٫٠٠٠	٢١ »	٩ »
إمارات بومباى	٣٤٩٫٠٠٠	٩ »	٣ »
إمارات الهند الغربية	٣١٨٫٠٠٠	١٠ »	٨ »
الولايات الوسطى	٢٥٣٫٠٠٠	١٤ »	١٠ »
الولايات المتحدة	٢٠٩٫٠٠٠	٢٢ »	١٧ »
بارودا	٢٠٣٫٠٠٠	٩ »	٨ »
كشمير	١٧٠٫٠٠٠	٢٣ »	٥ »
كوشين	١٢٥٫٠٠٠	١٦ »	١٠ »
إمارات مدراس	٦٥٫٠٠٠	١٦ »	١٤ »
إمارات بنغال	٣١٫٠٠٠	٥ »	٣ »
سخيم	٢٫٠٠٠	٤ »	٢ »
إمارات آسام	١٫٤٠٠	١ »	—
إمارات الحدود	٥٤٠	٤ »	١ »
إمارات بلوخستان	٢٠	—	—

يستنتج من ذلك أن نسبة المنبوذين الى عامة السكان ، بل أن نسبتهم الى الهندوس ، تتفاوت تفاوتا كبيراً باختلاف الاقليم ؛ وقد حاولنا أن نصل الى قاعدة لتوزيع المنبوذين بين الهندوس فلم نستطع ، مما يدل على أن عوامل كثرتهم أو قلتهم لا ترجع الى طريق معيشتهم ؛

أو الى مدى استعدادهم ، أو مدى اعتمادهم على بقية الهندوس أو غيرهم ، فى كسب قوتهم ، بل إن أكبر الظن أن توزيع المنبوذين على المقاطعات والولايات لا يخضع لقاعدة ما ، بل يستمد كيانه من الوراثة فحسب .

ولما كنا ندرس أحوال المنبوذين لغرض خاص ، هو الاطلاع على مدى استعدادهم لتغيير دينهم ، فى الآونة الحاضرة ، أو فى المستقبل القريب ، وكان التعليم من أهم العوامل التى تدعو القوم للتبصر فى أحوالهم العامة ، وإدراك ما هم عليه من شقاء تحت نظامهم الحالى ، بحيث يصح القول إجمالا : إن استعدادهم لتغيير دينهم يتناسب تناسبا طرديا مع نسبة انتشار التعليم بينهم ، لذلك رأينا أن نقف القارئ على نسبة التعليم بينهم فى الولايات المختلفة :

١٤٩	فى الألف	فى ترافا نكور
١٢٩	«	« إمارات آسام
١٠٣	«	« إمارة بارودا
٦٩	«	« بلوخستان
٥٠	«	« بنغال
٤٨	«	« إمارة كوشين
٣٦	«	« مقاطعة الحدود
٣٥	«	« إمارات سدراس
٣١	«	« آسام
٢٨	«	« بومباى
٢٨	«	« إمارات بومباى
٢٥	«	« إمارات بلوخستان
٢٢	«	« أجمير
١٩	«	« إمارات الهند الغربية

وتلى تلك مجموعة من الولايات والامارات تتضاءل فيها نسبة التعليم بين المنبوذين ، حتى تصل فى بعض منها الى ٢ فى الألف فقط .

وسنرى فيما يلى من تاريخ ثورة المنبوذين على الديانة الهندوسية ، باسبابها ، ونتائجها ، والحال الحاضرة فيها ما يبعث على الاعتقاد بصحة هذا القياس .

الأصل فى الطبقات المنبوذة :

يرجع أصل حركة « النبذ » الى تقاليد الديانة الهندوسية منذ أقدم العصور ؛ ويرجعها عامة الكتاب الى عاملين : أحدهما تاريخى ، وثانيهما دينى .

الأصل التاريخى :

يروى لنا المؤرخون أن الجنس الآرى قد استوطن منذ أقدم عصور التاريخ الهضبة الأسيوية الوسطى ، فقد هاجر منها فى حقب مختلفة من التاريخ الى أوربا وايران والهند . وقبل قدوم الآريين الى الهند ، كانت البلاد آهلة بأجناس مختلفة ، ضرب بعضها بسهم وافر فى المدنية ، مما يستدل عليه بآثارهم العمرانية التى كشف عنها التنقيب فى أنحاء مختلفة من الهند .

وقد ظل الآريون يتوغلون فى الهند رويداً رويداً ، متغلبين على كل ما صادفهم من عقبات ، حتى ليقال إنهم لم يكتفوا بالتغلب على سكان البلاد الأصليين وإخضاعهم لسلطانهم الزمنى فحسب ، بل جردوهم من كل ممتلكاتهم ، ونزلوا بهم الى مستوى أحط من مستوى الأرقاء . وقد لجأ كثير من أفراد العنصر المغلوب الى الغابات والجبال المنيعة ، حيث لا يزال أحفادهم على قيد الحياة يعيشون عيشة المتوحشين الأقدمين ؛ فى حين لجأ فريق آخر ، ممن جردوا من منازلهم وضياعهم ، الى معيشة التجوال ، ومنهم نشأت القبائل الرحل التى لاتزال تجوب أنحاء الهند لا تلوى على شىء . وقد اتخذ كثير من هؤلاء على مر الأيام السرقة والخطف مهنة يلتمسون الرزق من سبيلها . ولا يزال ذكر هؤلاء يرد حتى اليوم فى الاحصاءات الرسمية باسم « القبائل الاجرامية » ، ويرصد البوليس حركاتهم ويتتبع أحوالهم . وقد أنشأت الحكومة ادارة خاصة بقصد الحد من تصرفاتهم الاجرامية ، أما البقية الباقية ممن ذكرنا فقد ركنوا الى الاقامة بالقرب من المدن الكبرى فى حالة فقر مدقع ، يلتمسون الرزق من أحقر السبل كالزبالة ، والشحاذة ، واقتناص القردة وتدريبها على الرقص واللعب أمام جمهور محدود من النظارة يتصدق عليهم ببعض الحبوب أو ببضعة قطع من العملة النحاسية . والى هذا الفريق ينتسب عامة الحواة الذين يلعبون بالثعابين ؛ والراقصون على الحبل و (البهلوان) ؛ وقد دفعتهم الفاقة الى التهام كل ما يقع تحت أيديهم ، فاذا أعوزهم الطعام فتكوا بالثعالب وأبناء آوى والفيران ، وقد يأكلون الثعابين ؛ ويعيش معظمهم على الجيف ؛ أما ملابسهم فبالية قذرة ، إلا من عاش منهم فى المدن ، فان ملابسه قد تكون أحسن قليلا ؛ ويوجد ببلاد الهند من هذه الطبقات الوضيعة حوالى ثلاثمائة صنف .

الأصل الديني :

يوجد فى تقاليد الديانة الهندوسية قانون قديم جداً ، يعد مرجعاً من أهم مراجعهم ، ويعتقدون أن واضع ذلك القانون كان شخصاً عظيم الورع ، واسع العلم ، اسمه « مانو Manu » ، كما يعتقدون أنه وضع ذلك القانون شريعة لهم ، ولذلك لم ينكر سلطته بل لم يناقشها أحد من المتأخرين .

ولقد قسم « مانو » الهندوسيين بل عامة الجنس البشرى (إذ يظهر أنهم كانوا يعتقدون أن الهند هى كل المعمور ، وأن سكانها هم عامة الجنس البشرى) قسم هؤلاء الى أربعة أقسام :

أولا : البراهمة :

وهم من خلقوا من فم الإله ، وكانت وظيفتهم الوراثية ، هى العلم بكتابهم المقدس (الفيدا Vidas) . ولهم أن يمارسوا كل شئون العبادة ، فهم بذلك قساوسة الهندوسية ، وكانوا يعتبرون من أرقى مراتب الجنس البشرى ، وواجب على كل من لم يكن برهمياً أن يخصهم بأعظم قسط من الاحترام والتقدير ، وأن يتقدم إليهم بكافة أنواع الهدايا ؛ ولا يصح القيام بأى واجب دينى إلا على أيديهم ، أو بعبارة أدق : نراهم قد احتكروا الوساطة بين الانسان وربه .

ثانيا : الشاترى :

وهم من خلقوا من أذرع الإله ، ولذلك كانوا هم رجال الحرب والقتال ، وبيدهم صولجان الحكم الزمنى ، يتوارثون الوظائف أباً عن جد .

ثالثا : الفايشا :

وهم من خلقوا من فخذى الإله ، وينتمى الى هذه الطبقة : التجار ، ورجال المال والزراعة .

رابعا : السودرا :

وهم من خلقوا من أقدام الإله ، وتشمل هذه الطبقة الخدام الذين كتب عليهم – بالوراثة اللانهائية – أن يخدموا الطبقات الثلاث السالفة الذكر ، وأن يعيشوا معيشة كلها خضوع وعبودية ، يحيط بهم الفقر ، ويلازمهم الامتهان .

ويستطيع المجتهد فى قانون مانو ، وغيره من كتب الهندوس ، كما يستطيع المتتبع للسوابق التاريخية فى هذه الديانة ، وكذا من يبحث أمور أصحاب هذا الدين فى حاله الحاضرة ، أن يستنتج أن تقسيم النوع البشرى الى أربع طبقات ، قصد به أن يكون وراثياً ؛ فأبناء البرهمى

وأحفاده ، لابد لهم من أن يكونوا براهمة كما كان آباؤهم وأجدادهم ، وكذلك الحال فى كل من الطبقات الأخر .

ولكن العصر الحديث قد انجلى عن حملات شعواء ، يشنها المسلمون والمسيحيون على نظام الطبقات ؛ ولذلك نشأ من بين الهندوس جماعة من المثقفين والمفكرين ، يقولون بأن هذا التقسيم لم يقصد به أن يكون وراثياً ، بل إنه تقسيم قد دعت إليه الكفايات ؛ فالرجل المثقف الورع قد يكون برهمياً ، كما أن الجندى المحنك قد يكون (شاتريا) ، أما من اتجهت به مواهبه الى التجارة أو الزراعة فيكون (فايشا) ، ثم تتبقى بعد ذلك طبقة من الشعب ، تكاد تنعدم فيها المواهب السالفة الذكر ، وهؤلاء هم السودرا .

وبمقتضى هذا الرأى ، يجوز أن ينحدر ابن البرهمى الى أحط دركات المجتمع ، إذا لم يكن له من المواهب ما يستطيع أن يؤهل به نفسه لإحدى الطبقات الأخر ، كما يحتمل أن ينشأ ابن السودرا ، وقد وهبته الطبيعة المقدرة على إحراز المعرفة والتمسك بأهداب الورع ، فيرتفع بذلك الى درجة البراهمة ؛ وقياساً على ذلك يجوز لابن الشاترى أو الفايشا أن يرقى الى درجة أعلى من درجته ، أو أن ينحط الى طبقة أدنى من طبقته ، وفق مؤهلاته . على أن الرأى الذى نادت به هذه الطبقة من المفكرين لم يعدو أن يكون رأيا نظريا ، لا تؤيده السوابق التاريخية ، ولا تصرفات الجيل المعاصر .

وتنقسم « السودرا » بعد ذلك الى قسمين : قسم يجوز لمسه ، وقسم يحرم لمسه ؛ فمن الفريق الأول حمالو الماء ، والخدم المكلفون بتنظيف الأوانى ؛ ويجوز لهؤلاء ان يلمسوا أجسام الهندوس من الطبقات التى تعلوهم ، كما يجوز للهندوس لمس أجسامهم ، دون أن يسبب هذا التلامس نجاسة ، ولكن سواد السودرا يعدون أنجاساً ، لا يسمح لهم بلمس أجساد الهندوس من الطبقات العليا ، بل لا يجوز لهم أن يلمسوا « السودرا » من الطبقة الأولى ، كما لا يسمح لأولئك بلمسهم ، وهؤلاء هم المنبوذون .

« يتبع »

رسالة أبي الربيع محمد بن الليث :

هذه رسالة كتبها أبو الربيع محمد بن الليث عن لسان الخليفة هرون الرشيد الى الامبراطور قسطنطين ملك الرومان لعهده ، يدعوه وقومه للاسلام ، وقد طبعها فى رسالة على حدتها حضرة الأستاذ الالمعى النابه أسعد لطفى حسن مؤلف كتاب الاسلام . ولست أرى أبلغ فى تقدمة هـذا العمل الجليل الى القراء من نقل كلمة حكيمة توجه بها حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى . قال فضيلته حفظه الله :

« اطلعت على كتاب الاسلام الذى ألفه حضرة الاستاذ أسعد لطفى حسن فوجدته كتابا يوضح مناحى الدين ، ويأخذ بحظ وافر من الأخلاق ، ويضرب بسهم غير منزور من الأدب والاجتماع ، بعبارة سهلة وأسلوب يشوق النفس ، تتشربه الأفهام ، وتشتهيه الأنفس الطيبة ، وقد أورد فيه من النصوص القرآنية ما فيه بلاغ لقوم يعقلون .

« وبعد أن أتى على ما أراد من هذه النواحى أورد رسالة من انشاء أبى الربيع محمد بن الليث كتبها عن الخليفة الخامس هرون الرشيد الى قسطنطين ملك الروم لعهده يدعوه وقومه فيها الى الاسلام ، وهى فى أسلوبها وجزالة ألفاظها ، وحسن تنسيقها ، ومسحة تأليفها ، تشبه ما كان يتعاطاه فحول الـكتاب فى ذلك العهـد كسهل بن هرون وتلميذه الجاحظ . فهى وما كتب فى مشاورة المهدى كأنما يمتحان من قليب واحد ، إذ منشؤهما واحد ، استهلها بحمد الله بمحامده والثناء بآلائه ، ثم انتقل الى بيان ما يحمل من أمانة وجوب تبليغ الدين والاعذار الى من لم تبلغه دعوة الاسلام ، وأنه يريد أن يحط عنه ثقل الامانة بتبليغه الاسلام على الوجـه الذى يدعو الى النظر ، اقتـداء برسول الله وامتثالا لأمر الله ، ورجاء أن يكون ممن قصد بقوله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » .

« ثم أخـذ يجول فى ميادين الدعوة ، ويتنقل من برهان على التوحيد الى برهان آخر ، ومن حجة الى حجة ، باسطا ذلك كل البسط بالأدلة القوية المتينة .

« ثم تصدى لتوحيد الذات الالهية وبعـدها من التركيب ، وتعرض للعقيدة النصرانية بالأدلة العقلية ، وأتى من ذلك على ما شاء ، وما امتد به نفس القلم ، وكان من أواخر ما ورد من هذه الرسالة قوله :

« وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده ، ومقدمه إن شاء الله من جيوشه ، إلا أن تؤدى الجزية التى دعاك أمير المؤمنين اليها ، وحداك ومن قبلك عليها ، رحمة للضعفاء الذين لا ترحمهم ، وتوجعا للمساكين ممن لا تتوجع منه لهم ، من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم ، وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء

الفقراء المساكين ، لا تمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون فى الرحمة لهم ، والتعطف عليهم أدب المسيح إياكم ، وقوله فى الكتاب لكم : « طوبى للذين يرحمون الناس فأن أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم »

« أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب سامعه وقارئه ، وأن يهدى به ، ويثيب مؤلفه ، إنه سميع الدعاء »

التهذيب فى علم الفقه :

لايزال حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ احمد كامل الخضرى يوالى عمله العظيم فى إعادة صوغ الكتب العلمية الأزهرية فى قوالب عصرية ، وهو عمل سبق لنا أن قلنا عنه إنه أوثق صلة يمكن أن يتوسل بها للتقريب بين الناس وكتب الدين ، واستفادتهم منها كما يستفيدون من جميع مصادر العلم . وقد نجح الاستاذ فى مشروعه هذا نجاحا عظيما : فقد وصل إلينا من فضيلته أخيرا كتاب (التهذيب) وهو تهذيب كتاب (النهاية) للعلامة ولى الدين البصير رحمه الله ، وهو شرح لكتاب (غاية الاختصار) ، ولم يكن معروفا بل ولم يسبق طبعه .

قال الأستاذ وقد ذكر أنه عهد اليه تدريسه :

« فرأيت من واجبى أن أتابع خطتى فأجمع كتابا يشتمل على ما فى النهاية بالأسلوب الذى درجت عليه فى (تهذيب الكفاية) من تحرير الأحكام ، وتتميم المسائل ، وزيادة الفوائد ، وحسن التبويب ، وسهولة التراكيب ، وتخريج الأحاديث » .

وقد وفى فضيلته بكل ما وعدبه ، وزاد بأن طبع كتابه على ورق جيد بحروف جديدة ، فجزاه الله خير ما يجزى به العالمين العاملين .

الفتح الربانى :

لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى .

لا يزال فضيلة الأستاذ المفضال الشيخ احمد عبد الرحمن البنا الساعاتى يتابع جهوده فى طبع ما وفق لعمله من ترتيب مسند الامام أحمد مع شرح وضعه له ، وقد أتم طبع الجزء السابع منه .

إن مسند الامام احمد يشتمل على جميع الأحاديث الصحيحة المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا عددا محصورا منها أتى به الأستاذ فى المناسبات وهو بصدد الشرح ، وهذا يعتبر من أضخم الأعمال ، يقوم به فرد واحد بهمة لا تعرف الكلال .

وقد سار على توزيع هذا الكتاب كراريس وأجزاء ، فنرجو لكتابه الانتشار ، ولعمله التوفيق . وعنوانه بعطفة الرسام رقم ٩ بالغورية بالقاهرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحـــج

فى هذه الآونة ياخذ الذين أسعدهم الله بازماع الحج الى بيته المحرم فى السفر لأداء هذه الفريضة الجليلة، ومنهم من بادر به ليطيل مكثه بتلك البقاع الطاهرة . وما يُرى من هذه الحركة هنا يوجد مثالها فى كل بلد إسلامية من مطلع الشمس الى مغربها ، ونحن إن كنا على بعد ثلاثة أيام من تلك البقاع الشريفة بحرا وبضع ساعات جوا ، فان من المسلمين من لا يكفيهم الشهر فى قطع هذه المساوف المترامية بينها وبين بلادهم برا وبحرا ، وقبل قرن من الزمان كانت لا تكفيهم السنة يتعرضون فيها الى إخطار لا يقوى على تحملها إلا كل من كتب له طول البقاء .

هذه العاطفة القوية التى كانت ولا تزال تهيب بالنفوس الى زيارة بيت الله ببكة ، لم تضعف بضعف العاطفة الدينية فى هذا القرن المادى ، ولكنها ازدادت قوة ، فاصبح اليوم يحج من لا كان يرد له الحج ببال ، من الرجال المثقفين والنسوة المتعلمات ، والفضل فى ذلك يرجع الى قوة بنية هـذا الدين ، وازدياد تأثيره فى النفوس بازدياد ترقى العـلم والحكمة . فانه بينما يشكو العالم كله من مجافاة المتعلمين للاديان ، يزداد متعلمو المسلمين تقربا من الاسلام وإقبالا عليه . ولايمكن أن يعلل هذا الأثر بفعل الوراثة ، ولابدافع التقليد ، فانهما لايتعديان حدود الجمود العقلى الى الأعمال الشاقة التى تكلف الانسان مالا وانتقالا .

الحج فى ذاته ليس خاصا بالاسلام ، فقد كان أهل الجاهلية يحجون ، واليهود والنصارى يحجون ، وكان أهل الهند والصين واليونانيون القدماء وغيرهم يحجون الى معابد وهيا كل مقدسة لديهم ، ولكن ليس الحج فى واحدة من هذه الأمم يشبه الحج فى الاسلام . فتلك أمم اعتبرت الحج غاية فكانت تؤديه لذاته ، ولذلك اعتقدت أنه كلما كان شاقا مرهقا كان ثوابه أكثر ، وعائدته أوفى ، ولكنه يعتبر عند المسلمين وسيلة لما يبتنى عليه من الفوائد الأدبية والمادية ، وذريعة لما يتولد عنه من العوائد الروحية والاجتماعية . ولذلك شرط الله له توافر الاستطاعة المالية والبدنية ، واستكمال أسباب الراحة الجسمية والانتقالية .

فالحج فى الاسلام فـوق ما هو عليه من الصبغة العبادية ، تلازمه صبغة اجتماعية واضحة ، وهو كجميع العبادات الاسلامية تتمازج فيه هاتان الصبغتان بحيث لايعرف الحد الفاصل بينهما ، وهنا موطن قوة هذا الدين الذى أدهش بها العالم ، وعلة حياته فى قلوب أهله حياة قابلة للتجدد على مر الأيام وتوالى الحوادث .

فيصح والحالة هذه أن تقول : إن الحج يلازمه قيام مؤتمر عام للمسلمين فى كل عام مرة . ومن يتأمل فى جزئياته يرى أن عناصر ذلك المؤتمر ماثلة فيه على أكمل وجه . فان المسلمين فى أول الاسلام كان يحج بهم أمير من اختصاصاته أن يبلغهم إذا اجتمعوا فى صعيد واحد ما كلفته السلطة العليا أن يبلغهم إياه مما له اتصال وثيـق بأمر دينهم ودنياهم . والدين والدنيا فى نظر الاسلام مترابطان ، ترابط الروح والجثمان فى الانسان . فاذا كان الدين يمـد الروح بالايمان الصحيح ، والآداب والأخلاق ، فان أمور الدنيا تمده بأسباب البقاء ، ودواعى الارتقاء ، وإتقان خلافة الله فى الأرض .

هذا وضع جلل فى نظر علم الاجتماع ، لا يعقل أن يبتكر بانى دولة أصلح منه لتوثيق روابط أمة من الأمم ، وإسعافها بالتقوية كلما أدركها ضعف أو أثارة من انحلال .

ثم إنه من ناحية أخرى ، إن روعيت جميع شروطه ، وسيلة عملية لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم الى مصادر الحياة الصحيحة ، بما يقتبسه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر مما يكونون قد هُدوا اليه دون غيرهم ، سواء أكان ذلك فى عالم العلم أم العمل . ولا يخـفى ما فى استمداد الضعفاء من الأقوياء من خير يعود على الطرفين جميعا .

ويتبع هـذا أيضا ناحية ليست تقل خطرا عن الأولى إن لم تكن تفوقها قيمة ، وتكبرها أثرا ، تلك هى الناحية الاقتصادية . فان لكل شعب من الشعوب الاسلامية صناعات ، ونبوغا فى بعض ضروب المحاولات ، ولبلادهم منتجات لا توجد فى غيرها ، فانه بوساطة هذا المؤتمر العام يمـكن إبرام اتفاقات على تبادلها فيما بينهم ، وإن مثول أصحابها فى مجتمع عام يسهل عليهم تدارس الوسائل المختلفة لتسهيل أمر ذلك التبادل وجعله أمرا واقعا ، بتذليل ما عسى أن يقوم أمامه من العقبات .

هذا بعض ثمرات الحج من الوجهة الاجتماعية ، فهل يقوم المسلمون بما يحققها استكمالا للناحية الدنيوية من هذه الفريضة ؟

كل تجديد فى شأن من الشئون البشرية يجب أن تسبقه حاجة ماسة اليه ، فهل أشعرت نفوس المسلمين الحاجة الى الاستفادة من الحج لمصالحهم الأدبية والمادية ؟

ليس لدينا من شك فى حدوث هذا الشعور منذ نحو نصف قرن ، وقد كتب فى حكمة الحج من الناحيتين الروحية والاجتماعية عـدد كبير من الباحثين ، ولكن كان يحول بين المسلمين وتحقيق هذه الأمنية سيادة الجهالة والأمية فى سوادهم الأعظم ، والصعوبة العظيمة التى كان يعانيها الخاصة فى شخوصهم الى الأماكن المقـدسة ، لخلوها من ضروريات الإقامة ووسائل الانتقال . ولا تزال هـذه الحوائل قائمـة وإن كانت فى طريق الزوال . فالمسلمون اليوم يعملون جادين على قشع غياهب الأمية عن عقول عامتهم ، وقد تسهلت وسائل الانتقال بحرا

وجوا ، وتأسست فنادق كاملة العتاد هنالك ، فتيسر لكثير من رجال التفكير العالى زيارة البيت وتلك المشاهد الرائعة ، وازدادوا علما بأن الاستفادة من هذه الفريضة لمصلحة الاسلام والمسلمين يتناول أكثر مما أشرنا اليه . فقد رأوا أنه كما يتناول توحيد وجهة المسلمين وغاياتهم ، قد يمتد فيتناول توحيد لغاتهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وإزالة بدعهم وخزعبلاتهم . وصدور هذه الاصلاحات والتجديدات من البيئة نفسها التى نشأت فيها أول نواة لهذه الأمة ، ومنها استمدت عناصر حياتها ، وروح وجودها وعظمتها ، يطبعها بطابع التقديس فتخضع الرقاب لها صاغرة ، وتنحنى الرءوس أمامها خاشعة . ويزيدها هيبة وتأثيرا أن تلك البقاع أصلح لتمثيل جميع المذاهب الاسلامية من كل بقعة فى الأرض ، فيكون للتعاليم والوصايا التى تصدر منها صفة الاجماع ، فلا يقوى على الحط من شأنها متلاعب مبتدع فى أى بيئة من بيئات العالم .

هذه الأقوال ليست بالأمانى التى يتعزى بها المفكرون ، ولكنها حقائق لا بد من تولدها من فريضة الحج ما دامت مقامة لدى المسلمين ، ومادام هذا الجثمان الضخم من شعوبهم وجماعاتهم قد كتب له أن يعيش .

ومما يحسن بنا أن لا نختتم هذه العجالة حتى نستنزل عجب القارىء من هذا النظام البديع الذى بنى عليه الاسلام مجتمعه العظيم ، فقد وضعه على أسلوب وإن كان لا يمنعه من طروء الضعف عليه إذا قصر أهله فى أداء واجباتهم نحوه ، فإنه يحميه عوادى التحلل والفناء فى غيره . فان ضروب المناعات المبثوثة فى بنيته ، وصنوف الحوافظ المحيطة به ، لما تحار فيها العقول القوية ، وتدهش منها البصائر النافذة .

لقد وصلت بعض جماعات المسلمين وخاصة فى العهود الأخيرة الى حالة من الضعف أصبحت معها حرضا يرثى له ، نسيت معه كل شىء حتى وجودها ، ولكنها لم تنس شيئا واحدا وهو دينها ، فلم تزل تحبه وتحترمه وتعلق عليه آمالا كبارا . فكان الناظر اليها يعد ذلك منها جمودا ، لأنه فى قصر نظره وجهله بحقيقة الاسلام كان يظن أن ما هى فيه هو جناية هذا الدين عليها ، فأكثروا فيها من الدعاة لمللهم ، وبثوا فيها روح النفور من عقائدها ، ولوحوا لها بما ينتظرها من المقاوم الكريمة ، والمكانات العلى إن صبأت عنه الى غيره ، ولكنها ظلت وفية له لا ترجو من حياتها إلا شيئا واحدا وهو أن تموت عليه .

لا نقول إن هذا الثبات من آثار الجمود على التقاليد ، والاستماتة فى الصبر على الموروثات ، لأن شعوبا كثيرة غير إسلامية صبأت عن أديانها فى عهود كثيرة من التاريخ ولم تصل الى مثل ما وصلت اليه بعض الجماعات الاسلامية من الضعف وسوء الحال ، فعدم حدوث هذه الظاهرة الاجتماعية فى هذه الجماعات خلافا لسواها يدل دلالة قاطعة على أن فى نظام الاجتماع على الأسلوب الاسلامى حوافظ خاصة ، ومناعات قوية ، تحميها شر التحلل والتلاشى فى جماعات أخرى .

ونحن وإن كنا نرى أن هذا الموضوع جدير ببحوث مستفيضة ، وتدقيقات عظيمة ، فاننا نستطيع أن نتعجل فنقول : إن فريضة الحج واحدة من حوافظ الاجتماع للشعوب الاسلامية .

وقد فطنت لذلك أمم استعمارية فعملت على تحريم الحج على الشعوب الاسلامية الخاضعة لسلطانها سنين كثيرة ، ولكن وجود غير الحج من الحوافظ والمناعات فى بنية الجماعات الاسلامية أبقتها حافظة لتماسكها فى وجه جميع المغريات التى صبت عليها من مستعمريها الذين اضطروا فى النهاية أن يرفعوا هذا الحجر عنها .

واليوم توجد أمم تتطور فى اتجاه المدنية الأوربية ، وتتقمص العقلية الغربية عن اعتقاد راسخ بأنها إن لم تفعل ذلك لا تستطيع أن تلحق الدول المعاصرة فى توثباتها الحيوية . وكان كل متأمل فى تطور هذه الأمم فى هذه الوجهة يظن أن الاسلام سيلاقى منها ما لقى كل دين سواه لدى الذين سلكوا مثل هذه السبيل من قبل من الجماعات الأجنبية ، ولكن هؤلاء المتشائمون ما لبثوا أن رأوا هذه الأمم تزيد تعلقا بالاسلام ، وتشتد محافظة عليه . فمساجدها أصبحت أكثر حفولا بالمصلين ، ومواسم الدين صارت فيها أظهر مما كانت عليه . ولو امتدت بك حياة الى نحو ربع قرن آخر لترينّ رأى العين أن حوافظ هذا الدين وجواذبه قد عطفتهم اليه من أسمى ما يؤثر على شعورهم ، وأخفى ما يتسلط على عقولهم .

ولقد بدأت هذه القوى الظاهرة والخفية فى الاسلام تنتج آثارها فيهم ، فقد قاموا بترجمة القرآن الى لغاتهم ، فيقول قصار النظر هذه مقدمة لإلقاء نيره عن عواتقهم ، والحق أنهم ترجموه لشدة تعلقهم بكتابهم ، وحبهم زيادة الفهم عن ربهم . فان من يريد التخلص من سطوة كتاب على قومه ، يدعه على لغته التى لا يفهمونها ، ويزيدهم إيهاما بأنه مما لا تجوز ترجمته ، فلا يمضى عليهم عهد حتى تزول معالمه من أذهانهم فلا يعودون يتمسكون به .

الخلاصة أن للاسلام حوافظ ومناعات من ضروب شتى قد يخفى كثير منها على المتأملين السطحيين ، وهى فى الواقع ترتكز على أدخل قوى النفس ، وأخفى غرائزها ، كما يرتكز ظاهره على أظهر عواطفها ، وأوضح مراميها ، فليس لها على الخالين محيد عنه : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها وإليه يرجعون » ؟

محمد فريد وجدى

السُّنَّة

كيف كان يجتهد الرسول وكبار الصحابة
فى الأحكام الشرعية

عن ابن عمر أنه قال : « لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول جاء ابنه عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : تصلى عليه وقد نهاك ربك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنما خيّرنى الله فقال : « استغفرْ لهم أولا تستغفرْ لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفرَ الله لهم (١) » وسأزيده على السبعين . قال عمر : إنه منافق ! قال : فصلى عليه رسول الله ، فأنزل الله « ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تَقم على قبره (٢) » . رواه الشيخان .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) هل يدل الحديث على أنه يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فى الأحكام الشرعية قبل نزول الوحى ؟ (٢) وإذا جاز له الاجتهاد فما فائدته مع اتصاله بالوحى : ألم يكن الأولى أن يتلقى الأحكام كلها عن الوحى ؟ (٣) يؤخذ من الحديث أن عمر قد خالف الرسول فى اجتهاده ، فهل لأحد أن يخالف الرسول فى حكم شرعى ، وكيف يتفق ذلك مع قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (٣) » ؟ (٤) قد صرح الحديث بدليل الرسول الذى بنى عليه اجتهاده فقال : إنما خيرنى الله الخ فما دليل عمر الذى بنى عليه نهى النبى عن الصلاة عليه ؟ (٥) قد أقر الله اجتهاد عمر فى الظاهر حيث قال للرسول : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا » فما هو السر فى ذلك ؟

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فهو بالايجاب ، وذلك لأن الحديث صريح فى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اجتهد فعلا فى حكم شرعى . أما كونه حكما شرعيا فظاهر ، لأن جواز الصلاة على المنافق المتوفى وعدم جوازه حكم شرعى بلا ريب . وأما كونه صادرا عن الرسول باجتهاده لا بالوحى فذلك لأن عمر قد خالفه فيه ، ولو كان صادرا عنه بطريق الوحى لما جاز

---

(١) سورة التوبة : ٨٠ (٢) التوبة : ٨٤ (٣) الحشر : ٧

لعمر أن يخالفه فيه كما ستعرفه بعد ، فهذا دليل واضح على أن للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجتهد ، لأنه قد اجتهد فعلا ولم ينهه الله عن الاجتهاد .

على أن بعض علماء الأصول قال : ليس للرسول أن يجتهد . وقد استدل من قال ذلك بدليلين :

(أحدهما) أن رأى المجتهد يحتمل الخطأ والصواب ، ولهذا لا يجب على الناس أن يقلدوا المجتهد ، وهذا المعنى لايتحقق فى الرسول لأن الله تعالى أوجب علينا اتباعه فى كل الأحكام التى يجىء بها بحيث لا يجوز لأحد مخالفته فيما يأمر به أو ينهى عنه .

(ثانيهما) أن الرسول قد بعث ليبلغ الأحكام عن ربه ، فيجب أن تكون شريعته كلها بنصوص من عند الله ، لأن الشأن فى المبلغ أن يقتصر على مايوحى إليه ، ومتى اجتهد يخرج عن وظيفة التبليغ الى وظيفة الاجتهاد التى لم يبعث لها .

وقد أجيب عن الدليلين بأن النبي صلى الله عليه وسلم متصل بالوحى ، فلو أخطأ فى اجتهاده فان الله لا يقره على الخطأ بل يوحى اليه بالصواب الذى يجب العمل به . ولهذا كان اتباعه فى كل ما جاء به من الأحكام واجبا ، بخلاف غيره من المجتهدين . فالرسول وإن كان يوصف بالاجتهاد فى بعض الأحكام فى أول الأمر ولكن بعد أن يقر الوحى اجتهاده يصبح رأيه فى الحكم صوابا جزما لا يحتمل الخطأ كالنص الموحى به بدون فرق . وبذلك تعلم أن الرسول لا يخرج باجتهاده عن وظيفة التبليغ ، لأن اجتهاده بعد إقرار الوحى إياه يكون كالنص الموحى به بلا فرق .

على أن هناك أدلة كثيرة من الكتاب والسنة تدل على أن للرسول أن يجتهد .

منها قوله تعالى : « لتبين للناس مانزل اليهم (١) » . ولا يخفى أن البيان عام يتناول ما كان بطريق الوحى وما كان بطريق الاجتهاد . بل لو قصرناه على ما كان بطريق الوحى لم يكن له كبير فائدة ، لأن البيان بطريق الوحى مأمور به ضمن الآيات الأخرى .

ومنها قوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار (٢) » . وليس من المعقول إخراج الرسول من أولى الأبصار المأمورين بالاعتبار أعنى الاجتهاد ، لأنه سيد أولى الأبصار وأجدرهم بالنظر والاعتبار .

ومنها قوله تعالى : « وشاورهم فى الأمر (٣) » فانه لو لم يكن له رأى فاصل فى الأمور لم يكن لأمره باستشارتهم معنى ، فان الذى لا يملك البت فى أمر يكون عابثا إذا شاور غيره فيه . ولا يصح أن يقال إنها شورى ظاهرية يقصد بها تطييب خاطرهم فقط لأن ذلك مما ينزه الله عنه ورسوله وأجلاء الصحابة ، فانهم إذا علموا أن الشورى لا فائدة لها مطلقا تهيج خواطرهم

(١) النحل : ٤٤ (٢) الحشر : ٢ (٣) آل عمران : ١٥٩

لا تطيب . وأيضا لو صح هـذا لما كان لمخالفتهم إياه معنى ، مع أنه قـد ثبتت مخالفتهم إياه فى كثير من الحوادث ، وقد أقرهم الله على رأيهم فى كثير منها . وهذا الحـديث الذى معنا شاهد صدق على أن النبى قد اجتهد فعلا وخالفه عمر وأقر الله اجتهاد عمر فى الظاهر ، ولم ينه الرسول عن الاجتهاد . ومثله كثير فى السنة ، بل وفى كتاب الله تعالى .

ومنها قوله تعالى: « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ فى الأرض (١) » الآية . وحاصل ما قيل فيها أن المسلمين قد أسروا فى معركة بدر سبعين أسيرا ، منهم العباس عم الرسول ، وعقيل بن أبى طالب ، وسهيل بن عمر ، من فصحاء مكة وخطبائها البلغاء . فاختلف المسلمون فى أمر هؤلاء الأسرى ، فكان من رأى الرسول صلوات الله عليه وأبى بكر ومعهما بعض الصحابة إطلاق سراح هؤلاء الأسراء بفدية مالية ينتفع بها المسلمون . وكان من رأى عمر وسعد بن معاذ ومعهما بعض المسلمين قتلهم . وظاهر هذه الآية يؤيد عمر ومن معه ، ولـكن الواقع أن الله قد أيد الفريقين .

بيان ذلك : أن وجهة نظر عمر رضى الله عنه قد يقال فيها إن المسلمين كانوا فى بدء قوتهم فمن واجبهم أن يستمسكوا بكل ما يزيد فى هذه القوة التى يتوقف عليها نشر الدعوة الى الله كى يرهبوا أعداءهم الذين يتربصون بهم الدوائر ، ويريدون القضاء عليهم وعلى الدعوة الى الله فى مهدها . فالسياسة الحربية يومئذ تقضى استئصال المحاربين وعدم إطلاق الأسرى فى نظير فـدية مالية ، خصوصا إذا كان الأسير ذا جاه ونفوذ ، فإن إطلاقه فى نظير فـدية من المال فى وقت ضعفهم قد يترتب عليه شر عظيم لا يوازيه مال كثير ، فلذا رأى عمر قتلهم لما فيه من إرهاب المشركين ، وقطع دابر بعض أئمـة الـكفر الذين أخرجوهم من ديارهم وأمـوالهم وآذوهم شر إيذاء .

وأما وجهة نظر الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر ، فقد يقال فيها : إن قتل هؤلاء لا فائدة فيه ، بل قد يثير أحقاد من وراءهم بحالة عنيفة ، فيتألبون على المسلمين قبل أن يقوى جانبهم وتشتد ساعدهم ، فتسوء الحال ؛ وأن الدين الاسلامى يرتـكز فى الواقع على قوة البرهان لا على البطش والارهاب ، وكثير من هؤلاء الأسرى مستعدون للإدراك الصحيح ، فلا بد أن تؤثر فيهم قوة البرهان القاطع ، فيؤمنوا بالله ورسوله ، ويكون للدين بهم قوة ، وذلك هو الغرض من الدعوة الى الله تعالى ، فضـلا عن أن المال الذى يأخـذونه فداء يمكنهم أن يؤسسوا به قوة ترهب الأعداء أكثر مما يرهبهم قتل هـؤلاء الأسرى ، والمسلمون وقتئذ كانوا فى أشد حاجة الى المال .

وقد تحققت وجهة نظر النبى صلى الله عليه وسلم فى عاقبة الأمر من جميع جهاتها ، فقد دخل

(١) الانفال : ٦٧

معظم هؤلاء الأسرى فى الاسلام ، وكانوا من أشد أنصاره وأقوى أساطينه . روى أن عمر قال لرسول الله : إن سهيل بن عمر قد آذى المسلمين بخطبه وفصاحته فيحسن أن ننزع بعض أسنانه التى يتعطل بها لسانه فيستحيي من أن يقف موقف الخطيب الفصيح . فقال له رسول الله : عسى أن يقوم مقاما تمدحه عليه . وأطلقه بالفدية بدون أن يؤذيه ، فدخل سهيل الاسلام وكان من أقوى أنصاره ، ولما مات رسول الله عزم بعض ضعاف الايمان على الردة فقام سهيل هذا فيهم خطيبا خوفهم عن عزيمتهم ، وذلك هو الموقف الذى مدحه عليه عمر . وبذلك تحققت سياسة الرسول كاملة عليه الصلاة والسلام .

فهذا بعض ما قد يقال فى توجيه الرأيين ويؤخذ من فحوى تعليل كل واحد من الفريقين لرأيه . أما الله عز وجل العليم باحوال عباده وبما يؤثر فيهم ، فقد أيد الفريقين فى الواقع ، وذلك لأن الله قد أقر سياسة النبي فى إطلاق الأسرى وأخذ الفدية منهم ، ولو كان يريد قتلهم وعدم أخذ الفدية لأوحى به الى الرسول قبل أن يأخذ منهم شيئا وقبل أن يطلقهم ، كما وقع ذلك فى بعض الحوادث ، فإن النبي لما أراد أن يتفق مع بعض كبار المشركين على أن يقصى من مجلسه بعض ضعاف المؤمنين حرصا على إيمان هؤلاء الكبار ، وأراد أن يكتب لهم بذلك صكا ، نزل عليه الوحى فى الحال ونهاه عن ذلك ، فلم يفعل . وما ذاك إلا لأن الله تعالى عليم خبير بما قد يترتب على إطلاق هؤلاء الأسرى فى النهاية من الخير العظيم ، إذ لو لم يكن فيه سوى إسلام العباس وعقيل وسهيل وأمثالهم من أساطين المسلمين الذين أبلوا فى سبيل نصرة الاسلام البلاء الحسن لكفى . ولكن هذه النهاية لا يعلمها إلا الله عز وجل ، فلذا لم يمنع الرسول من تنفيذ اجتهاده ، ولو شاء لأوحى إليه بالمنع . فضلا عن ذلك فقد أباح سبحانه للمسلمين الانتفاع بالفدية ، وفى ذلك إقرار لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الواقع ، ولكن هذه الحالة خاصة بالرسول المتصل بالوحى ، فهو الذى يمكنه أن يقدم على تنفيذ اجتهاده هذا وهو آمن مما يترتب عليه من شر ، راج لما يترتب عليه من خير . أما غيره من المسلمين فليس لهم أن يفعلوا هذا . فمن أجل ذلك خاطب الله رسوله بقوله « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » الآية . ومعنى الآية : ما كان ينبغى للنبى أن يتسامح مع الأسرى فيأخذ منهم الفداء ويطلق سراحهم من قبل أن يغزو المشركين ويثخنهم قتلا حتى يخضعوا للدعوة الى الله ويعز الاسلام ، فإذا عظمت قوة المسلمين وقويت شوكتهم وأصبحوا آمنين على الدعوة الى الله وعلى أنفسهم من بطش المشركين ، كان لهم أن يفعلوا ذلك ، بل كان لهم أن يطلقوا الأسرى بدون فدية أصلا . وهذا هو الذى وقع فعلا ، فإن الله خيرهم بعد فى أمر الأسرى فقال لهم : « فإما مَنًّا بعدُ وإما فِداءً (١) » فأباح لهم إطلاق الأسرى بدون مقابل منا عليهم .

---

(١) سورة محمد : ٤

ولا يخفى أن ذلك تأييـد لاجتهاد عمر ومن معه فى الظاهر ، فـكان الله سبحانه يقول : إن سياسة الرسول وأبى بكر ومن معهما حسنة فى ذاتها ولـكنها سابقة لأوانها ، ومع ذلك فاذا فعلها الرسول فإنها لا تضر ، لأنه قد يترتب عليها فائدة فى المستقبل ، ولـكن هذه الفائدة غير عادية ، فلا يعلمها إلا الله الذى لا يمنع رسوله منها إن كان فيها خير . أما سياسة عمر ومن معه فهى المطابقة للسنن الطبيعية ، وهى التى ينبغى للمسلمين أن يفعلوها . ففى خطاب الرسول بهذه الآية إشعار للمسلمين بما يجب أن يكونوا عليه فى مثل هـذه الحالة .

والحاصل أن حال المشركين يومئذ كان يستدعى أن يظهر المسلمون بمظهر البطش والقوة ، لأن المشركين كانوا كثيرين أقوياء بالمال والرجال ، والمسلمون كانوا أقلية ضعيفة ، فانلم يشعروا بشدة بأسهم وقوة بطشهم فانهم لا يبالون بهم ، وهـذا ما كان يراه عمر ومن معه ، وهـو ما يجب على كل مجتهد ينظر فى شئون المسلمين الدينية المتعلقة بالمصالح العامة والخاصة . فواجب على المجتهد أن ينظر الى الظروف المحيطة به ، ويبنى اجتهاده على الحقائق الثابتة ، لا على ما عساه أن يقع ، خصوصا فى الأمور الحربية ، فانهاتستدعى الشدة والحيطة من جميع الوجوه . وأما قوله تعالى : « لولا كتابٌ من الله سَبَقَ لمسّكم فيما أخـذتم عذاب عظيم (١) » فمعناه أن الله قد كتب على نفسه أن لا يؤاخذ المجتهدين على خطأ مهما عظم . بل قد ثبت أنه تعالى يثيب المجتهد وإن أخطأ .

وبعد : فان كل هذا واضح الدلالة على أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتهد فى أحكام شرعية لم ينزل بها الوحى ، وقد خالفه أصحابه فى بعضها ، وأقر الله اجتهادهم ولم ينههم عنه ، بل قال لهم إنه كتب على نفسه أن لا يؤاخذ المجتهد على خطأ . فهل بعد ذلك من دليل على صحة قول من يرى جواز اجتهادالرسول صلوات الله وسلامه عليه ؟ فهو إمام المجتهدين ، ومرشدهم الأعظم بلانزاع .

(٢) أما الجواب عن السؤال الثانى وهو : ما فائدة اجتهاد الرسول مع اتصاله بالوحى الخ ؟ فهو : إن له فـوائد كثيرة : أهمها أن فى اجتهاد الرسول وكبار أصحابه أسوة حسنة لمن بعدهم من المجتهدين ، ومثلا كاملا لما يصح أن يختلف فيه المجتهدون ، فان كل المسائل التى اختلفوا فيها سواء كانت متعلقة بالمعاملات كما فى أسرى بدر ، أو بالعبادات كما فى الصلاة على المنافق المتوفى ، كان مدار اختلافهم فيها على أربعة أمور : أحـدها توخى المصلحة العامة التى كان يعتقد كل فـريق أنها الى جانبه . ثانيها : التمسك بالأدلة الواضحة التى لا تعسف فيها ولا خفاء فى مقدماتها بحيث لا يرتاب من سمع الحجة فى أنها صادرة عن قلب مخلص بعيـد عن الهوى والشغب . ثالثها : عدم التعصب للرأى ، والبعد عن التشبث بالجدل متى وضح الحق وظهرت

(١) الانفال : ٦٨

النتيجة . رابعها : أنهم ما كانوا يجتهدون إلا عند عدم النص ، أما إذا وجد النص فانهم كانوا يعمدون الى المعنى المتبادر منه ويعملون به .

ومما لا ريب فيه أن الاجتهاد المبنى على ذلك لا غنى عنه للمسلمين فى جميع الأجيال ، لأن رسول الله مرسل للناس جميعا ، ولا بد من تجـدد الحوادث وتفاوت المصالح بحسب تفاوت الأزمنة والبيئات ، ولا بد من تطبيق ما يتجدد من ذلك على نصوص الدين الخاصة إن وجدت ، أو النصوص العامة إن لم يوجد نص خاص ، ولا بد من تفاوت أفهام الناس واختلاف أنظارهم ، فـكان من اللازم الضرورى أن يجتهد الرسول وأصحابه ليكونوا قدوة حسنة للمجتهدين من بعدهم . ومن أجل ذلك تركهم الله يجتهدون بدون وحى ليعلموا من بعدهم ، ثم حكم الله فى اجتهادهم ليبين للمجتهدين وجه الصواب الذى يجب عليهم أن يتحروه بـكل ما فى طاقتهم ، وليرشد الناس الى أن الاجتهاد ليس من الأمور الهينة ، فان الرسول وهو أرقى الناس ذكاء وفطنة خفيت عليه بعض العلل ، فيجب أن يكون المجتهد قادرا على استنباط الأحكام ؛ وليعلمهم أنه يجب عليهم أن يتبعـوا الرأى الصواب مهما كان مصدره ، وأنه يجب أن لا يجـد العظيم فى نفسه غضاضة إذا أخطأ هو وأصاب غيره ؛ وليشجعهم على الاجتهاد وترك التقليد ، لأن المجتهد لا يؤاخذ على الخطأ متى بذل الجهد وتمسك بكل الوسائل اللازمة .

فهذا هو اجتهاد الرسول وأصحابه ، فهل رأيتهم اختلفوا فى أصل من أصول الدين ، أو فى عقيدة من العقائد ، أو فى نص من نصوص كتاب الله الواضحة الجلية ؟ وهل رأيتهم ينتحلون فى اختلافاتهم دليـلا واهنا أو معنى بعيدا كى يصلوا بذلك الى غرض شخصى أو شهوة كامنة أو اعتقاد باطل ؟ وهل رأيت واحـداً منهم يتعصب لرأى أو يحاول الظهور بين الناس بالعـلم والذكاء والقدرة على إفحام مناظره ؟ أوهل رأيت أحدا منهم يضحى فى اجتهاده المصلحة العامة طمعا فى الحصول على مصلحة خاصة ، أو رأيتهم جميعا فى اجتهادهم على العـكس من ذلك : لا يجتهدون إلا للمصلحة العامة التى يترتب عليها إعزاز دينهم ووطنهم ، فلا يبغون بها بديلا ولو قطعت رقابهم ، وزهقت نفوسهم ؟

نعم : إنهم كانوا كذلك وأكثر من ذلك لمن يتأمل ، فـكانوا خير قدوة لمن بعدهم من المجتهدين الذين درجوا على نهجهم ، وساروا فى طريقهم ، واتبعوا آثارهم فلم يخرجوا عنها قيد شعرة . فجزاهم الله عن دينهم ونبيهم أحسن الجزاء .

أما الذين أضلهم الله وأعمى أبصارهم فإنهم قد افترقوا فى أصول الدين ، واختلفوا فى العقائد التى نهاهم الله ورسوله عن التفرق فيها ، فأصبحوا بذلك خارجين على دينهم ونبيهم وهم مسلمون اسما ، فـكان جزاؤهم عـذاب النار ، كما أخبر بذلك الرسـول صلوات الله عليه ، فقـد قال : « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة كلها فى النار ، إلا واحـدة وهى ما أنا عليه وأصحابى » .

قال صاحب المواقف : وكان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم حيث وقع ما أخبر به . ثم عد الفرق المذكورة فى الحديث واحدة واحدة . فمن أراد معرفتها فليرجع الى المواقف .

فالناجى من هذه الفرق هو ما كان اجتهاده كاجتهاد رسول الله وأصحابه ومن على سنتهم ، يستمسكون بالنصوص الشرعية متى وجدت ، ويعمدون الى ما هو المتبادر الظاهر منها بدون تعسف أو تكلف ويطبقونها على مصالح العباد . فاذا لم يوجد نص فإنه يعمل بالقياس الصحيح . على أنه لا مانع من تفاوت الأفهام فى النصوص .

قال فى اعلام الموقعين :

« إن النصوص الشرعية تشمل جميع الأحكام فى جميع الأزمنة والأمكنة ، فلم يحدث جديد إلا ويمكن أخذ حكمه من نص شرعى ، ولكن للنص معنيان : معنى أصلى وهو الذى يقصده الشارع من اللفظ ، ومعنى إضافى وهو الذى يفهمه السامع . وبديهى أن الناس متفاوتون فى الادراك والفهم ؛ وللكلام نواح وجهات متعددة يختلف بسببها ذلك الادراك ، ولهذا قد اختلف الناس فى فهم النصوص فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يرجعون اليه فيقرر لهم المعنى الذى يريده الله تعالى ، ولم ينههم عن الفهم الذى يخالف مراد الشارع من اللفظ . وهذا التفاوت فى الادراك يظهر جليا عند الفتاوى فى الحوادث واستنباط الحكم ، فمن الناس من يهديه ذكاؤه الى استنباط حكم صريح خفى على غيره خفاء تاما ، كما وقع لعلى مع عثمان رضى الله عنهما ، فإن عثمان قرر أن المرأة التى ولدت لستة أشهر زانية وأراد رجمها ، فراجعه على ، وقال له : كلا إن المرأة قد تلد لستة أشهر ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا (١) » . ووجه الدلالة أن الله تعالى قال : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين (٢) » فاذا طرحنا الحولين — أربعة وعشرين شهرا — من ثلاثين كان الباقى ستة وهى مدة الحمل ، فاقتنع عثمان بهذا النص » اهـ ملخصا .

ومما يلفت النظر اقتناع عثمان بمجرد أن ظهر له معنى الدليل واضحا ، فلم يحاول أن يرد عليه أو يجادل فيه بأى جدل ، فذلك هو المثال الكامل فى الاجتهاد .

إن هذا المعنى الذى كتبته هو ما فهمته من درس الأستاذ الأكبر الامام المراغى بمسجد أبى العلاء فى شهر رمضان ، فانه حفظه الله قال ما معناه : إن الله قد أوحى الى رسوله بأصول الشرائع التى أوحى بها الى من قبله من كبار النبيين ، وهذه الأصول لا ينبغى لأحد أن يختلف فيها لأنها غير قابلة للاختلاف ، ومن يختلف فيها فهو فى شك مريب من دينه . ثم نعى على الذين يختلفون ويتفرقون فى دينهم على هذا الوجه الذى ذكرناه ، أما ما وراء هذا من المصالح التى تتطور بتطور الأمم وتختلف باختلاف الأحوال فانها تتبع الدليل ، فان وجد نص فانه

(١) الاحقاف : ١٥ (٢) البقرة : ٢٣٣

يجب الرجوع اليه بدون تعسف أو تكلف . وإلى هذا أشار الله بقوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (١)

(٣) أما الجواب عن السؤال الثالث وهو مخالفة عمر للنبي صلى الله عليه وسلم فى الاجتهاد ، فانه لا منافاة بين هذه المخالفة وبين قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول » الخ ، وذلك لأن هذه المخالفة كانت بامر النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لأبى بكر وعمر : قولا فانى لم يوح الىّ فى هذه مثلكما . وعلى هذا يكون المراد من الآية النصوص الموحى بها أو المجتهد فيها بعد إقرار الوحى . أما قبل إقرار الوحى فالاجتهاد فيها مطلوب ، فان النبي كان يحث أبا بكر وعمر على الاجتهاد .

(٤) وأما الجواب عن السؤال الرابع ، وهو دليل عمر على منع النبي من الصلاة على رأس المنافقين ، فالظاهر أنه قول الله تعالى « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٢) فقد فهم عمر أن النهى عن الاستغفار نهى عن الصلاة عليهم من باب أولى .

وقد يقال فى بيان وجهة نظر الرسول أنه عليه الصلاة والسلام فهم من آية التوبة أنه لا يجوز له أن يستغفر لمن ثبت موته مشركا . ولا يثبت الشرك إلا بأحد أمرين : إما بالوحى كما هو الحال فى أبى لهب ، فان الله تعالى قد أخبر نبيه بأنه لا يؤمن ؛ وإما بطريق إعلان الكفر كما هو الحال فى المشركين الذين أعلنوا شركهم . أما المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الايمان فان النبي صلى الله عليه وسلم قد عاملهم بمقتضى الظاهر كما هى القاعدة الاسلامية . وهم وإن كانوا قد جاهروا فى بعض الأحيان بمحاربة الله ورسوله إلا أنهم قد أظهروا الايمان وتبرءوا من الأعمال التى نسبت اليهم ، فكان الرسول يعاملهم معاملة المؤمنين الفاسقين ، فيستغفر لهم رجاء أن يغفر الله لهم ذنوبهم ويصلح حالهم .

والله لم ينه الرسول عن الاستغفار لشخص إلا إذا تأكد أنه من أصحاب الجحيم كما هو نص الآية ، فانها صريحة فى النهى عن الاستغفار بعد التحقق من أن الميت من أصحاب الجحيم ، وهذا لا يتأتى إلا إذا مات وهو معلن للكفر ، أو يوحى الى الرسول بأن فلانا لا يؤمن . أما المنافقون فقد خيره الله فى شأنهم بقوله « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » .

وحيث إن عبد الله بن أبى قد أظهر الإيمان ، وقد ورد أنه استشفع بابنه ليأتيه بقميص الرسول ويكفنه فيه ، وطلب من الرسول أن يصلى عليه ، فان كل ذلك يجعله مؤمنا فى الظاهر . أما كونه كافرا فى الباطن فذلك لا يمكن الجزم به إلا بالوحى . فاجتهاد النبي من هذه الجهة هو الظاهر المعقول ، بل لا يمكن أن يفهم سواه ، والله سبحانه لم يعب عليه هذا الفهم أو هذا

(١) سورة المائدة الآية ٤٨ (٢) سورة التوبة الآية : ١١٣

الاجتهاد مطلقا ، لأنه قال له بعد ذلك « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » . ومعنى هـذا أن الله قد أوحى اليـه بأنهم ماتوا وهم على كفرهم ، وقد عبر عنه بالفسق لأنهم كانوا فى الظاهر يظهرون الاسلام ، وبديهى أن الذى يموت كافرا لا تصح الصلاة عليه ، أما موتهم على الـكفر فهو موقوف على الوحى حتى ولو علم الرسول الحقيقة ، لأنه فى هذه الحالة بمنزلة القاضى الذى يحكم بما يظهر له ، فـكل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يكون مسلما ولو كان يبطن خلاف هذا .

أما اجتهاد عمر رضى الله عنه فقد كان مبنيا على علمه بالقرائن القاطعة أنه مات وهو منافق، فعمر كان يعتقد أنه قـد مات على الـكفر ، ويعتقد أن الرسول لا يخفى عليه حال الرجـل ، فالصلاة عليه فى هذه الحالة فيها مخالفة للنص ، وهو قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » . ولـكن النبى صلى الله عليه وسلم رد على عمر فقال له : إن هـذه الآية فى المشركين الذين أعلنوا الشرك وماتوا عليه ، أما الذين أظهروا الايمان وهم المنافقون فلم ينه الله عن الاستغفار لهم بل خيرنى فيهم فقال : استغفر لهم أولا تستغفر لهم » الخ ، وحيث إن لى الخيار فساستغفر له وأزيده على السبعين الذى قال الله إنه لا يغفر لهم بها . ولا يخـفى ما فى هذا من إيضاح جميل . فاقتنع عمر بهذا وسكت ، ولـكن الله تعالى قال لنبيه بعد ذلك : إنه لا أمل فى إيمان من بقى من المنافقين ، فهم سيموتون كفارا ، فلا تصل عليهم بعد ذلك . وليس فى هـذا رد لاجتهاد الرسول أو لدليله كما ذكرنا ، وإنما فيه إعلام له بأنهم سيموتون كفارا ، فمن مات منهم فلا تصل عليه بعد ذلك . وبذلك تبين له أنهم من أصحاب الجحيم .

ومن هذا البيان يتضح لك أن لـكل من اجتهاد النبى صلى الله عليه وسـلم واجتهاد عمر وجهةً لا تعارض الأخرى ، وأنه عندما اطلع عمر على وجهة نظر النبى اقتنع بها . وليس فى قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم » رد لاجتهاد الرسول وإقرار لاجتهاد عمر كما فهم الناظرون ، بل غايته أن الله تعالى أسرع بتنفيذ سياسة عمر باخبار النبى بأنهم كافرون وماتوا وهم كافرون .

والحاصل أن ها هنا أمورا ثلاثة : أحدها : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار لمن تبين له أنه من أصحاب الجحيم بموته كافرا . ثانيها : الاستغفار للمنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الـكفر ، ولـكن يبدو فى أقوالهم وأعمالهم ما يدل على نفاقهم ، وهؤلاء لم ينه الله رسوله عن الاستغفار لهم بل خيره فيهم . على أنه قال إن الاستغفار لا ينفع من مات منهم كافرا . ثالثها : الصلاة على من مات منهم على حاله ، وهـذا إن جاء الوحى بانه مات على الـكفر فانه يعامل معاملة الـكافرين ، وإلا عومل معاملة المسلمين فيصلى عليه .

(٥) أما الجواب عن السؤال الخامس ، وهو : لماذا أقر الله سياسة عمر فى الظاهر ؟ فذلك يتوقف على بيان وجهة نظـر اجتهاد الرسول عليـه الصلاة والسلام . ويفهم من سـيرته أنه

كان على أكبر جانب ممكن فى النوع الانسانى من العطف والرحمة، فقد كان صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للنوع الانسانى فى التخلق بالأخلاق الكاملة، ولذا مدحه الله عز وجل بقوله: « وإنك لعلى خلق عظيم » (١) وقال له « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » (٢) وقال « ورحمة للذين آمنوا منكم » (٣) فاجتهاده عليه الصلاة والسلام فى هذه القصة وأمثالها كان مبنيا على رحمته وعطفه، ورغبته فى هداية النوع الانسانى الى سواء السبيل، وحرصه الشديد على إخلاص الناس لربهم ليظفروا برضاته فتتم لهم السعادة الخالدة. ولاريب فى أن هذه القصة تصور لنا شيئا من رحمته، فان عبدالله بن أبى المنافق قد آذى النبى بكل مايستطيع من ضروب الايذاء، فكان دائما يعمل فى الخفاء على كل ما يقضى عليه وعلى الدعوة الى الله، وكان يسعى دائما لاثارة الفتن والحط من كرامة المؤمنين كلما سنحت له فرصة، وكان يجاهر برأيه فى بعض الأحيان فيصل علم ذلك الى الرسول، فاذا وقف أمامه وحلف له أنه لم يقل ولم يفعل فانه يتركه، ومع ذلك كله فقد غلبت عليه الرحمة والعطف فأخذ يجاهد من أجله ويتأول ما نزل عليه من ربه رجاء أن يغفر الله له ذنبه (على ظن أنه مات مؤمنا) ويرفع عنه العقاب الأخروى، ويجعله من المنعمين بجناته.

فمعاملة عبد الله بن أبى بهذه المعاملة تدل على ما تكنه نفسه الكريمة من الرحمة بعباد الله والشفقة عليهم وحب الخير لهم، حتى ولو أساءوا الى شخصه الكريم وآذوه فى سبيل الدعوة الى ربه؛ وتنادى كل عاقل منصف بأن من كان هذا شأنه فانه لا ينبغى لعاقل أن يتخذه عدوا أو يشك فى نصيحته أو يرتاب فى صدقه، لأن الذى يتصف بهذه الصفات العالية يجب أن يكون منزها عن الكذب والخديعة وتضليل عقول الناس وإرادة الشر لهم. وبديهى أن ذلك كان له أحسن الأثر فى نشر الدعوة الى الله. على أنه قد ورد فى هذه الحادثة أن عبد الله بن أبى لما طلب أن يكفن فى قميص النبى صلى الله عليه وسلم ورأى ذلك أتباعه من الخزرج أسلم منهم ألف، وكفى بذلك مدحا لسياسة الرسول واجتهاده.

أما اجتهاد عمر وسياسته فهى مبنية على الظروف الوقتية المحيطة بالمسلمين يومئذ، فإن ضررهم كان عظيما، إذ هم يتمكنون باظهار الاسلام من الاطلاع على مواطن الضعف من أنفس الضعفاء، فيحاولون التأثير عليهم وتشكيكهم فى إيمانهم وإفساد أخلاقهم. وأيضا فإنهم يمكنهم أن يرشدوا الأعداء المحاربين الى خطط المسلمين فيعرضونهم لأشد الأخطار والمحن، فكان من رأى عمر استعمال القسوة معهم الى أبعد مدى. أما معاملتهم بالرحمة، وتفهيم الناس أن الله قد يغفر لهم فإن فيه تشجيعا للمنافقين، وحملا للناس على الاستهانة بالنفاق.

ومن يتأمل فى هاتين السياستين يجد أن كلا منهما لازم، وذلك لأن سياسة عمر وإن كانت

(١) سورة ن: ٤ (٢) آل عمران: ١٥٩ (٣) التوبة: ٦١

وجيهة فى بعض الظروف فانه قد يقال فيها أيضا إن الشدة المتناهية قد يترتب عليها استمساك المنافقين بما هم عليه ، فيزداد حقدهم على الرسول ، ويتضاعف بغضهم لدينه ، فلايفارق النفاق قلوبهم ، ويمعنون فى الكيد للمسلمين بالطرق الخفية الضارة بهم وهم غافلون .

أما معاملتهم بالرفق واللين ، واستعمال الرأفة بهم وإسداء المعروف اليهم المرة بعد المرة ، فإنه قد ينزع الحقد من أنفسهم ، ويقلل من بغضائهم لله ورسوله ، فيتوبون عن النفاق ، لأن النفوس الانسانية مهما كانت جامحة فإنها لابد أن تلين وتخضع بموالاة الاحسان وتكرار العطف والعفو .

والواقع الذى لاريب فيه أن طبائع الناس فى ذلك تختلف كل الاختلاف ، فمنهم من يصلحه العفو ، ومنهم من يطغيه ويغريه على التمادى فى الشر . فالواجب أن ينظر المجتهد فى الأمرين كى لا يفوته شىء منهما . ولذا قلنا إن كلتا السياستين ها هنا لازمة بحيث ينبغى استعمال كل منهما فى الظرف المناسب لها ، فسياسة الرسول صلوات الله عليه قبل أن ينزل عليه قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم » كانت هى المناسبة ، لأنها بعثت المستعدين للادراك الصحيح الى نبذ النفاق والتمسك بالايمان الصحيح .

أما من بقى من المنافقين بعد ذلك فقد ران على قلوبهم ، وأصبحوا غير مستعدين لسماع الحق ولا للايمان ، فلا فائدة حينئذ من معاملتهم بالرفق والرحمة ، فلهذا أوحى الله الى نبيه بأنهم سيموتون كفارا ، فلا تصل على أحد منهم .

هذا التفصيل الذى ذكرناه إنما هو بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم المتصل بالوحى ، لأنه يمكنه أن يتقى شر المنافقين بالوحى ، فانهم إذا حاولوا عملا يضر المسلمين فان الله يطلع عليه نبيه فيحبطه ، كما وقع ذلك فعلا ، فان الله تعالى كان يوحى الى الرسول بما يعملون ، قال تعالى « قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم » (١) وقال مهددا لهم « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم (٢) » فسياسة الرسول مع المنافقين حسنة من جميع الوجوه . أما إذا لم يكن وحى ولا رسول فان الواجب على المجتهد أن لا يأمن للمنافق الذى ثبت نفاقه مطلقا ، بل يعامله بمنتهى الشدة والقسوة ، لأنه أضر على الدعوة الى الله من المشرك الذى يعلن الشرك ، اللهم إلا إذا ترتب على معاملته بالرفق إيمانه وإيمان غيره ، فانه يعامل فى هذه الحالة بالرفق مع الاحتياط التام . وهذا هو السر فى إقرار سياسة عمر فى الظاهر ، لأن الأصل فى معاملة المنافق هى الشدة ، ولا فائدة فى معاملتهم بالرحمة بعد ذلك ، فنزل قول الله « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا » .

والذى يتأمل فى كتاب الله تعالى فانه يتضح له هذا المعنى الذى ذكرناه . فان الله سبحانه

(١) سورة التوبة : ٩٤ (٢) التوبة ٧٨

لم ينه نبيه عن استعمال الرحمة بالمنافقين ، بل امتن على المنافقين بما للنبي من الرحمة بهم ، فقال : « ورحمة للذين آمنوا منكم » . أى وهــو رحمة للذين أظهروا الايمان منكم أيها المنافقون . وفى هــذا مديح له عليه الصلاة والسلام بالرحمة بهم . ثم إنه لم ينهه عن الاستغفار لهم بطريقة جازمة ، بل أبان له أن الاستغفار لن يقبله الله لمن مات منهم كافــرا . أما الاستغفار لمن يظهر الايمان فى الدنيا فانه لم ينهه عنه ، قال تعالى : « يحلفون لـكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (١) . ومعنى الآية أن الله لا يمنعكم من قبولهم والرضا عنهم لأنـكم إنما تنظرون الى ظاهر أمرهم ، أما العليم بقلوبهم فانه لا يرضى عنهم ، وهم كاذبون فى إيمانهم منافقون بقلوبهم . وفى هذا تهديد لغير المخلصين مع عدم إغلاق الباب فى وجوههم لأنه قـد أباح لهم الاختلاط بالمسلمين ومشاركتهم فى المباحث الدينية ، والنظـر فى البراهين القاطعة التى أتى بها الله ورسوله . وفى كل ذلك فرصة لهم فى النظر الباعث الى الهــداية الحقة والايمان الصحيح . وفى هــذا من دقائق التشريع الاسلامى والحث على الاجتهاد فى المصالح العامة ما لا يخفى . والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيرى

(١) التوبة : ٩٦

جود عثمان بن عفان

أصاب الناس قحطا فى خلافة أبى بكر حتى بلغ بهم الجهد ، فشكوا أمرهم الى أمير المؤمنين فقال لهم : أصبروا لعل الله أن يفرج كربكم . فلما كان آخر النهار ذاع فى المدينة أن عيراً لعثمان جاءت من الشام محملة قمحا وزيتا وزبيبا . فلما أصبحوا أقبلت العير وأناخت بباب عثمان رضى الله عنه ثم أدخلت الى داره . وكان قد بلغ ذلك التجار فاقبلوا إليه ليشتروها منه ، قائلين له : إنك لتعلم حاجة الناس إليها فى هذه الآونة .

فأجابهم : حبا وكرامة ، فكم تربحونى على شرائى ؟ قالوا : الدرهم درهمين . قال لهم أعطيت زيادة على هذا . قالوا له : أربعة . قال لهم أعطيت زيادة على هذا . قالوا له خمسة . قال لهم أعطيت أكثر من هذا .

قال التجار : يا أباعمرو مابقى فى المدينة غيرنا فمن الذى أعطاك هذا الثمن ؟ قال لهم عثمان : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ قالوا : لا .

قال عثمان : فانى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين !

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه

– ٤ –

رجاء للحكومة لمصلحة الحكومة

لنرجئ الكلام فى أدلة التوحيد مؤقتا ، وسنفيض القول فيه بعد . على أن مسألة ثبوت الصانع جلت قدرته كادت من وضوحها أن تخفى ، وأوشكت من مزيد حضورها أن تغيب . وليس لدى منكريها سوى المكابرة بالوهم والخيال ، ومقابلة اليقين بالاحتمال « معارضة الشراب بالسراب » . وكل من تكلم فى هذه المسألة التى هى أظهر من الشمس وأوضح من الحس بالانكار ، فقد أحيا جهله ، وأمات عقله ، وقتل وجدانه ، وأخمد إحساسه ، وخنق شعوره . فهى لدى العقلاء من أوضح الواضحات ، وإن خفيت على أنعام البشر الذين يجب إسقاطهم من سجل الانسانية وضمهم الى صفوف البهائم : « إن شر الدواب عند الله الصُّمُّ البُكْم الذين لا يعقلون » .

ولنوجه كلمتنا اليوم لحكومتنا الإسلامية ، وما يجب أن تعرفه من حال الملحدين وتقويضهم لبناء العمران ، وأثر دعايتهم على بنى الانسان . فما وُجدوا فى أمة إلا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم ، وصاعقة مجتاحة لخير أممهم ، وصدعا متفاقما فى بنية جيلهم ، يميتون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم فى الأرواح بآرائهم ، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم . فما رزئت بهم أمة ولا منى بشرهم جيل إلا انتكث فتله ، وسقط عرشه حين تبددت آحاد الأمة وفقدت قوام وجودها . وكيف لا وهذه الطائفة الملعونة تحمل فى طيات تعاليمها وثنايا مبادئها الاجرام الخاتق ، والتهتك العلنى ، والمطاعن الهوجاء فى الديانات ، والسخرية الجهرية بخالق الأرض والسموات ، ولمز المعتقدات المقدسات .

إن الحكومة تعاقب من يتكلم فى الوزارة بما يمس شرفها أو ينقص من كرامة أشخاصها ، أو يمس القانون والدستور ، فما لها لا تهتم هذا الاهتمام ، أو شيئا من هذا الاهتمام ، بحماية دين الدولة من طعن الطاعنين وسفه الجاهلين ؟ ! وهل حماية الدستور أعظم فى نفوس الأمة من حماية دينها ؟ وهل الطعن فى الدستور آلم لعواطفها وأدمى لقلوبها من إهانة الدين والكلام فى نبى المسلمين ورب العالمين ؟ ولسنا نقول لا تحفظوا الدستور ولكن نقول : **احفظوا الدين أيضا كما تحفظون الدستور الذى تفتخرون بصيانته ، فليس الدستور أضمن لسعادة الأمة من الدين .**

يأيها الزعماء العظام والوزراء الفخام : إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدنياكم ، فإن الملحدين الطاعنين على الأديان ما ظهروا فى أمة من الأمم إلا أفسدوا أخلاقها ، وأوقعوا الخلل فى عقولها ، وتخطفوا قلوب آحادها بأنواع من الحيل ، وألوان من التلبيس حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها ، وتفطر بناؤها ، واغتالتها رذائل الأخلاق : من الأثرة وعبادة الشهوات ، والجرأة على ارتكاب الخيانات ، ولا يزال الفساد يتغلغل فى أحشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود ، أو تضرب عليها الذلة والصغار ، ويخلد أبناؤها فى الفقر والعبودية .

وانظروا الى الأمة الاسلامية أيام تمسكها بدينها كيف كان مجدها ورفعتها ، ثم انظروا حالها اليوم عندما ظهر فيها الماديون وكثر فيها الجاهلون الملحدون وقل فيها المخلصون ، الى آخر ما لا يمكننا شرحه فى هذه العجالة .

هل لا تحمون تلك العقائد المقدسة التى يسهل على ذويها أن يبذلوا وجودهم فى سبيلها ؟ ! عقائد هى أقوى دافع للامم الى التسابق لغايات المدنية ، وأمضى الأسباب الى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والابداع فى الصنائع . وإنها لأبلغ فى سوق الأمم الى منازل العلا ومقامات الشرف من كل شيء سواها « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

أما هؤلاء الملحدون الداعون لمحو الأديان فما مقصدهم إلا وضع أساس الاباحة والاشتراك فى الأموال والأبضاع بين الناس عامة . وقد كدحوا لاجراء مقصدهم هذا وبالغوا فى السعى اليه ، وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة ، وتقلبوا فى مظاهر متعددة ، وكلما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها ، وأنزلوها من علياء مجدها الى حضيض الذلة والمهانة ، حيث يكونون بالحيوان أشبه منهم بالانسان . ولهذا كله اجتمعت جميع الدول على مطاردة الشيوعيين ، علما بما تؤول اليه مبادئهم من الفساد الذى تأباه سنن الله فى خليقته ، وتمقته الشرائع السماوية كلها ، ويقضى العقل بمجافاته للحق ومنافرته للصواب .

ولنقل مرة أخرى لزعمائنا وحكامنا : إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدنياكم .

أما حرية الأديان والمعتقدات التى يستند إليها الجاهلون فمعناها أن كل أحد يعتقد ما شاء ، ويتدين بما أراد ، لا أنه يجرح القلوب ، ويطعن فى العقائد ، ويسفه الأحلام ، وينشر النشرات ، ويؤلف المؤلفات ، ويهيئ الجمعيات والدعايات كما فعل اسماعيل أدهم المعترف بذلك كله فى كتابه . فأين هذا من ذاك يارجال القانون ؟ !

وإن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لايعتقدون بشيء ، ولا يقولون بحلال ولاحرام ، ولا حساب ولاعقاب ، ولارب ولا كتاب . بل يظنون أن الانسان حيوان كسائر الحيوانات جده القرد أوالكلب . ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، والى أى حد تصل بهم الشرور ، وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف أن السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية والأذواق الوجدانية والمقامات الروحانية .

وبعد : فهذا الدين الذى نطالبكم بحمايته ، ويطالبكم الدستور أيضا بحمايته ، هو الدين الذى فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس ، وكشف لها عن غايته ، وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة ، وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ، ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لاغير . فالناس فى نظره إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة « إن أكرمكم عندالله أتقاكم » « لا فضل لعربى على عجمى ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى »

والخلاصة : أن من أشربت هذه العقيدة عقيدة التوحيد قلبه ، ينبعث بحكمها وينساق بنورها وقوة روحها لإضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف الصافية ، فلا يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطالبه ، ثم ينصرف همه لابراز ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له ، فينجلى كماله من عالم الكون الى عالم الظهور ، ويرتقى من درجة القوة الى مكانة الفعل ، فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولايناله التقصير فى تقويم ملكاته النفسية ، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة ، متنكبا عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة ، معرضا عن أبواب الرشوة ، مترفعا عن الملق الكلبى والخداع الثعلبى الذى لا يعرف هؤلاء غيره ، ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذى يليق ، وعلى الوجه الذى ينبغى ، وبالقدر الذى ينبغى ، لايأتى فيه باطلا ، ولايغفل حقا عاما أوخاصا ، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ولآخرته كأنه يموت غدا .

فهذه العقيدة أحكم مرشد ، وأهدى قائد للانسان الى المدنية المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لا عماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه ، والقيام على صراط العدل المستقيم .

هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم ، إذ لاعقد لها إلا مراعاة الصدق ، والخضوع لسلطان العدل فى الوقوف عند حدود المعاملات

هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدوء والمسالمة ، فإن المسالمة ثمرة العدل والمحبة ، والعدل والمحبة زهر الأخلاق والسجايا الحسنة . وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيه من متائه الشقاء وتعاسة الجد ، وترفعه الى غرف المدينة الفاضلة ، وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة ، فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس ، كما نشاهد ذلك فى كثير من مسلمينا الآن ! وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال ! وكم تحس فيه من جفاء للعلم وغشوة عن نور المعرفة !

وإن مسألتنا مسألة نشر ما يثير الفساد ويوجب الأحقاد ، ويحقر دين الدولة الذى يحترمه الدستور وتقدسه الأمة .

ولا يردع هؤلاء الطغمة إلا العقاب الصارم الذى يخرس ألسنتهم ويأخذ على أيديهم :

تمادوا فى الضلال بلا متاب ولو سمعوا صليل السيف تابوا

ولكننا فى زمان يضيق التعبير عن وصفه وبيان عقلية أهله :

ألا إنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولا يزال لنا بقية أمل فى القائمين بالأمر ، أن يشفقوا على أمتهم من عبث العابثين وإفساد المفسدين ، وأن يحفظوا الأمانة التى جعلها الله فى أعناقهم للدين والوطن .

نسأل الله أن يرزقنا الرشد والبصيرة ، حتى لا نأتى ما يضحك الثكلى ، ويبكى الحليم ، بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

الشدائد ولا الهوان

قال شاعر ألمعى فى هذا المعنى :

حلفت لأن ألقى الشدائد كلها وما لى بأن ألقى الهوان يدان
تذكرت أنى هالك وابن هالك فهانت على الارض والثقلان
فدع كل شىء خالف العزم إنه سيكفيكه جدان معتلجان
وما يدرك الحاجات مثل مثابر ولا عاق عنها النجح مثل توان

وقال شاعر آخر فيه أيضا :

على كل حال فاجعل الحزم عدة لما أنت باغيه وعونا على الدهر
فان نلت أمرا نلته عن عزيمة وإن قصرت عنك الحظوظ فعن عذر

وقال غيره :

يا إبنة القوم ما تريدين منى صارمى منطق ووجهى مجنى
ما يزور الكرى جفونى إلا جسوه الطائر الذى لا يثنى
فعلوى إذا استقل بعزم لم يعرج بليتنى ولوانى

الحسبة فى الاسلام [١]

طلب الىّ عزيز لدى أن أكتب كلمة فى ذلكم الموضوع الخطير « الحسبة فى الاسلام » تجلو حقيقتها وتشرح أغراضها ومقاصدها فى الدين الاسلامى خاتم الأديان السماوية ، والشريعة الصالحة لكل زمان ومكان . فأجبته لبّيك وسعدَيك ، فالموضوع شائق ، والبحث عنه فيه متعة . شائق لأنه يمت بصلة الى التاريخ الاسلامى فى تلك الحِقْبة من عصور الاسلام الأولى ، الى ماله من رحم وشيجة بحكمة التشريع الاسلامى . وفيه متعة لأنه يدلى بنسب الى شرعة التعاون والتناصر بين بنى آدم ، وهم تلك السلائل التى ورثت آدم خليفة الله فى أرضه ، يستمتع بها هو وبنوه ، ويستعمرونها فى المدى الذى قدر لبقاء العالم فى تلك الحياة الدنيا .

وإنا لنطرق فى كلامنا المباحث الآتية :

عناصر البحث :

الحسبة لغة . الحسبة شرعا . فيم كانت الحسبة أولا وإلام صار أمرها آخرا . سبب إحداث الحسبة . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يتولى القيام بهما . المحتسب . أصناف المحتسب . الفرق بين المحتسب وقاضى المظالم « القاضى الجنائى » وبين قاضى الحقوق « القاضى المدنى » . شروط المحتسب . أعمال المحتسب . الفرق بين المحتسب المولى والمحتسب المتطوع . هل للحاكم أن يسعر على الناس فى الأسواق . حكم الفندق والحمام والمخبز . التدليس فى الدين وحكمه . أعمال أخرى للمحتسب . الوظائف الدينية فى عصر الفاطميين . الوظائف الدينية فى الدولة الأيوبية وعصر المماليك بمصر . العقوبات الشرعية . عقوبة التعزير . عقوبة الحد والفرق بينهما . التعزير بالعقوبات المالية . جواز التصدق بالسلع المغشوشة على الفقراء . الأصل فى المثوبة والعقوبة فى التشريع الاسلامى :

الحسبة فى اللغة :

الحسبة لغة كما فى لسان العرب : اسم من الاحتساب وهو البدار الى طلب الأجر وتحصيله بالأخذ بأنواع البر والخير والقيام بها على الوجه المرسوم فيها ابتغاء الأجر المرجو منها . وفى حديث عمر : أيها الناس احتسبوا أعمالكم فان من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته . واسم الفاعل المحتسب ، أى طالب الأجر .

---

(١) هذا بحث قيم لمسألة اجتماعية هامة انفرد بها الاسلام أنشأه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ النابه الشيخ احمد المراغى واتحف به مجلة الازهر . وانا لننشره شاكرين له هذا الايثار . اكثر الله من امثاله .

وفى القاموس : واحتسب عليه الأمر إذا أنكره عليه ومنه المحتسب . فظاهر عبارة اللسان تدل على أن المحتسب مأخوذ من احتسب الأجر عند الله إذا طلبه ، وصريح عبارة القاموس ترشد الى أنه من احتسب عليه الأمر إذا أنكره عليه . ومن البين أن المناسبة جلية فى أخذه من المعنى الأول ، كما أشار اليه صاحب اللسان . إذ طلب الأجر أسبق فى الفكر لدى المحتسب من إنكار عمل غيره ومنعه من فعله ، وإن كان هذا يحصل تبعا وعرضا لا قصدا أوليا من العمل

معنى الحسبة شرعا :

أصل الحسبة الشرعية : مشارفة السوق والنظر فى مكاييله وموازينه ، ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشترى من مأكول ومصنوع ، ورفع الضرر عن الطريق بدفع الحرج عن السابلة من الغادين والرائحين ، وتنظيف الشوارع والحارات والأزقة ، الى نحو ذلك من الوظائف التى تقوم بها الآن المجالس البلدية ، ومفتشو الصحة ، ومفتشو الطب البيطرى ، ومصلحة المكاييل والموازين ، وقلم المرور ، ورجال الشرطه الموكول اليهم المحافظة على الآداب العامة ، الى غير ذلك .

ثم اتسعت أعمالها فيما بعد حتى كانت من أهم الشئون التى عنى بها الخلفاء والسلاطين وصار لها ولاية خاصة (مصلحة خاصة) شملت كل أمر بمعروف ونهى عن منكر : كاقامة الصلاة فى مواقيتها ، والنظر فى أحوال أئمة المساجد والمؤذنين ، وإلزامهم بأداء وظائفهم على حسب مقتضى الشرع . ومن ثم قال بعض العلماء : الحسبة أمر بمعروف (١) ظهر تركه ، ونهى عن منكر ظهر فعله ، وإصلاح بين الناس .

وأول من أحدثها فى الاسلام عمر بن الخطاب ، فقد ولى عبد الله بن عقبة على النظر فى الأسواق ، والتفتيش على المكاييل والموازين ، ومنع الغش فيما يباع ويشترى . وقد كان الخلفاء والولاة فى الصدر الأول يباشرون أعمالها بأنفسهم ، ويبتغون إصلاح الرعية ، ويرجون جزيل الثواب . فقد كان عمر يقوم بوظائف المحتسب ، ويشارف السوق ، ويراقب المكاييل والموازين ، ويأمر باماطة الأذى عن الطريق . روى المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب حمالا ويقول : حمّلت جملك مالا يطيق « مفتش قلم المرور الآن » . وفى كنز العمال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال : دخل عمر رضى الله عنه السوق وهو راكب فرأى دكانا « دكة » قد أحدث فى السوق فكسره .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : دعامة من دعائم الدين ، وبه بعث الله النبيين أجمعين . ولولاه لنشطت الضلالة وعمت الجهالة ، وانتشر الفساد ، وخربت البلاد ، وهلك العباد .

(١) المعروف : كل فعل او قول او قصد حسن شرعا . والمنكر كل فعل او قول اوقصد قبح شرعا . والانكار فى ترك الواجب وفعل الحرام واجب ، وفى ترك المندوب وفعل المكروه مندوب .

وإنا لنرى الآن الناس بعد أن استولت على القلوب مداهنة الخلق ، ومحيت مراقبة الخالق ، قد استرسلوا فى الشهوات ، وركنوا الى اللذات ، وقلّ أن تجد مؤمنا صادقا لا تأخذه فى الله لومة لائم . فمن شمر عن ساعد الجد وسد هذه الثغرة ، وأدى عمل الحسبة ابتغاء مرضاة ربه ، أو قلد وظيفتها وقام بأعبائها مراقبا ربه ، فقد قام بقسط وافر فى خدمة دينه ، ونال رضوان ربه « ورضوان من الله أكبر » .

سبب إحداث الحسبة :

السر فى إيجاد الحسبة فى الاسلام أن الناس لا تتم مصالحهم إلا بالاجتماع والتعاون على جلب المنافع ، والتناصر على دفع المضار ، ومن ثم قيل : « الانسان مدنى بالطبع » . وبالاجتماع لا بد لهم من أمور يفعلونها يجلبون بها الخير لأنفسهم ، وأمور يجتنبونها لما فيه من الضرر عليهم .

ولا بد لهم من طاعة الآمر بالمنافع الناهى عن المفاسد ، كما قال تعالى فى صفة نبيه : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر و يحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائثَ » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة (طوبة) فكان الناس يطيفون بها ويعجبون من حسنها ويقولون : لولا موضع اللبنة ! فأنا تلك اللبنة » .

وقد وصف الله الأمة الاسلامية بما وصف به نبيها فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال عز اسمه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . وقال عز من قائل : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : من خير الناس يارسول الله ؟ قال : « آمَرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم لله » . وقال عليه السلام : « مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله ، وانهوْا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله » . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وشناء المنافقين ، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمنين ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين ، ومن أبغض الفاسق وغضب لله غضب الله له . وقال أبو الدرداء لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ، ويدعو خيارُكم فلا يستجاب لهم ، وتستغفرون فلا يغفر لكم ، وتستنصرون فلا تنصرون . وقال عليه السلام : « إياكم والجلوس فى الطرقات ! قالوا : مالنا بد ، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها . قال : فإن أبيتم إلا ذاك فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر ، ورد

السلام ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر » . وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الايمان » .

وروى الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل شهداء أمتى رجل قام الى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك ، فذلك الشهيد ، منزلته فى الجنة بين حمزة (عمه) وجعفر (١) (ابن عمه أخى على) .

الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يتولى القيام بهما :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أفضل القرب وأكثرها ثوابا وقبولا عند الله تعالى . وله شروط إذا لم تتوافر لا ينتج الثمرة المطلوبة :

(١) أن يعمل الواعظ بما ينصح ، لا أن يكون قوله مخالفا لفعله ، وإلا دخل فى الذم وكان ممن يصدق عليه قول الله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بالمقاريض فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم » .

(٢) أن يكون العمل طاعة لله ورسوله ، وهو العمل المشروع المأمور به إيجابا أو استحبابا ، وضده المعصية والفجور والظلم والسيئة .

(٣) أن يكون خالصا لوجه الله ، فالله لايقبل من الأعمال إلا ما يراد به وجهه ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو كله للذى أشرك » . وهذا هو أساس الاسلام والعمود الذى عليه بنى الدين . فحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . ومن ثم كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا .

وإذا كان العمل خالصا نشر الله عليه رداء القبول ، وصادف التوفيق ، وقدر لفاعله فى القلوب مهابة وجلالا ، وتقبّل الناس قوله بالسمع والطاعة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من أرضى الناس بسخط الله وكله الله إليهم ؛ ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه شرهم ؛ ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس ؛ ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ؛ ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه .

---

(١) يلقب بجعفر الطيار ، وينسبون الى على أنه قال [وجعفر الذى امسى واضحى يطير مع الملائكة ابن امى]

ومما يؤثر فى هذا الباب أن أتابَكَ سلطان دمشق طلب محتسبا ، فذكر له رجل من العلماء فأمر باحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له : إنى وليتك أمر الحسبة على الناس . فقال له : إن كنت تريدنى لما تقول فقم عن هذا الفراش وارفع هذا المتكأ فانهما من حرير ، واخلع هذا الخاتم فانه من ذهب ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : هذان حرامان على ذكور أمتى حل لاناثها ! فقال السلطان : سمعا وطاعة ! ونهض عن الفراش وأمر برفع المتكأ وخلع الخاتم من أصبعه وقال : وقد ضممت إليك أمر الشرطة (حكمدار بوليس) فما رأى الناس محتسبا أهيب منه .

(٤) أن يأمر عن معرفة وعلم وفقه بالدين ، وإلا كان العمل جهلا وضلالا واتباعا للهوى ، كما قال عمر بن عبد العزيز : من عبد الله بغير علم كان ما يفسدأ كثر مما يصلح . وكما قال معاذ ابن جبل : العلم إمام العمل والعمل تابعه .

(٥) أن يكون النصح بالرفق والتؤدة حتى يؤتى ثمرته المرجوة ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ياعائشة عليك بالرفق فانه ما كان فى شىء إلا زانه ، ولا كان العنف فى شىء إلا شانه » . وقال أيضا : « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف » .

ومن نوادر المحتسبين وبارع قصصهم : أن رجلا دخل على المأمون وأمره بمعروف ونهاه عن منكر وأغلظ له فى القول ، فقال له المأمون : ياهذا إن الله أرسل من هو خير منك لمن هو شر منى ، فقال لموسى وهارون : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . ثم أعرض ونأى بجانبه .

(٦) أن يكون الناصح حليما صبورا على الأذى ، إذ العادة قد جرت بأن يناله الأذى من جراء عمله ، فان لم يحلم ويصبر كان الضرر أكثر من النفع ، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . ومن ثم أمر أنبياءه ورسله وهم القادة الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر بالاعتصام بالصبر ، كما قال تعالى لنبيه فى بدء رسالته : « يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » . فاختتم الأمر بالانذار وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بطلب الصبر منه . وقد جاء هذا الطلب فى مواضع عدة كقوله تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » وقوله « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا » . وقوله « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » وقوله « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » وقوله « واصبر وما صبرك إلا بالله »

فجماع الأمر بالمعروف ثلاثة : علم قبله ، ورفق معه ، وصبر بعده . وهذا معنى ما يروى عن بعض السلف : لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يامر به ، فقيها فيما ينهى عنه ؛ رفيقا فيما يأمر به ، رفيقا فيما ينهى عنه ؛ حليما فيما يأمر به ، حليما فيما ينهى عنه .

(٧) ألا يتضمن الأمر بالمعروف فوات ماهو أكثر منه نفعا ، أو حصول منكر فوقه ؛ وألا يتضمن النهى عن المنكر حصول ما هو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه . ولأجل هذا سكت النبى صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن أبىّ وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما كان لهم من الأعوان ، فلو أزال المنكر بعقاب هؤلاء غضب قومهم وأخذتهم الحمية حمية الجاهلية فينفرون منه حين يسمعون أن محمدا يقتل أصحابه . والمشاهدة التى أرانا الله إياها فى الآفاق وفى أنفسنا تدل على أن المعاصى سبب المصائب ، والطاعةَ سبب النعمة، كما قال تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . وقال عز اسمه : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك» . وقال: « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم » . وقال : « أوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » . وإذا كان الفسوق والعصيان من أسباب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة من الناس ويسكت الآخرون عن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فيكون ذلك محسوبا عليهم من ذنوبهم ، أو ينكرون عليهم إنكارا منهيا عنه فيكون ذلك من ذنوبهم أيضا ، وبسبب ذلك يحصل التفرق والفساد ، وذلك من أعظم الشرور والفتن فى القديم والحديث . وإن من تدبر ما وقع من الفتنة بين أمراء الأمة وعلمائها علم أن منشأ ذلك اتباع الأهواء والشهوات ، والميل الى البدع والفجور .

المحتسب :

المحتسب من نصّبه السلطان أو نائبه للنظر فى أمور الرعية ، يأمرهم بما يوافق الشرع وينهاهم عما يخالفه ، فى أعمالهم الدينية والدنيوية ، مما ليس من اختصاص القضاة والولاة والجباة . وهو داخل فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فله النظر فى كل مايهم المسلمين فى أسواقهم ومجتمعاتهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض ، ويعين من يراه أهلا لذلك من الأعوان . فهو يبحث عن المنكرات ويعزر عليها ، يعاقب بحسب أهميتها ومقدارها ، وعلى حسب منزلة مرتكبها ، كما سيأتى تفصيل ذلك بعد .

وشرط المنكر الذى يكون للمحتسب التعرض له : أن يُفعل علانية على مرأى من الناس ومسمع . فمن ارتكب معصية خفية فى داره وأغلق عليه بابه لايجوز للمحتسب أن يتجسس عليه ، إلا أن يكون ذلك فى انتهاك محرم بدئ فى الشروع فيه ولم يتم بعد ، كما إذا أخبره من يثق بصدقه أن رجلا خلا بامرأة ليزنى بها ، فيجوز له حينئذ أن يتجسس ويبحث ، حذرا من فوات مالا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات .

أصناف المحتسب :

المحتسب صنفان :

(١) محتسب يعينه السلطان أو نائبه للنظر فى شئون الرعية والكشف عن أعمالهم ، فيأمر بما يوافق الشرع وينهى عما يخالفه ، كما تقدم ذلك .

(٢) محتسب متطوع يرى منكرا فينكره ، أو يأمر بمعروف يرى الناس قد تركوه .

وبينهما فرق من جهات عدة :

(أ) أن الأمر والنهى فرض عين على الأول بحكم ولايته ، وفرض كفاية على الثانى ، فاذا قام به غيره سقط عنه الحرج والاثم : كصلاة الجنازة ، ورد السلام على غيره .

(ب) أن قيام الأول به من واجبات عمله التى لا يجوز أن يتشاغل عنها بغيرها ، وقيام الثانى به من النوافل التى يجوز أن يتشاغل عنها بغيرها .

(ج) أن الأول له أن يتخذ على الانكار أعوانا لأنه عمل هو له منصوب وإليه مندوب ، وليكون أقدر على القهر والغلبة ، وليس كذلك الثانى .

(د) أن الأول له أن يعزر فى المنكرات الظاهرة بضرب ونحوه ، ولا يتجاوز بها بحيث تصل الى الحدود الشرعية المقدرة ، وليس للثانى ذلك .

والفرق بين المحتسب والقاضى :

أنه لا يجوز للمحتسب النظر فى الدعاوى الخارجة عن ظواهر المنكرات . فلا ينظر فى العقود والقروض ونحو ذلك ، إلا إذا كان معترفا بها . أما ما يدخله الانكار والجحد ويحتاج الى البينة أو شهادة الشهود ، فهذا وظيفة القاضى لا وظيفة المحتسب .

ويزيد على القاضى معه وجوه عدة :

(أ) أن له أن يتعرض للامر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن لم يحضر خصم يطلب منه ذلك . وليس للقاضى أن يتعرض لذلك إلا بحضور خصم يشتكى ، ولو تعرض لذلك خرج عن حدود وظيفته .

(ب) أن له من القوة والجبروت ماليس للقاضى ، لأن الحسبة موضوعة على الرهبة والتخويف ، فاذا أغلظ المحتسب فى القول وكان سليط اللسان لايعد هذا منه خروجا عن عمله .

(ج) أن له أن يبحث عن المنكرات التى ترتكب علانية ليقوم بأداء وظيفته بانكارها ، وليس ذلك لغيره .

ويوافق عمل القاضى من ناحيتين :

(١) أنه يجوز تقديم الشكوى اليه وسماعه دعوى المشتكى فى حقوق العباد التى تتعلق ببخس فى ثمن أو تطفيف فى كيل أو وزن ، أو تدليس فى بيع أو ثمن ، أو تأخير دين مستحق مع إمكان دفعه .

فهذه كلها منكرات ظاهرة وظيفته إزالتها ، إذ من أعمال الحسبة إيصال الحقوق الى ذويها والمعونة على استيفائها .

(٢) أن له أن يلزم المدعى عليه بدفع الحق الذى وجب عليه باعتراف أو إقرار مع وجود اليسار ، لأن فى تاخيره منكرا ، لقوله عليه السلام : « مطل الغنى ظلم » .

والفرق بين المحتسب وقاضى المظالم (القاضى الجنائى) : أن النظر فى المظالم يكون فيما يعجز عنه القاضى، والحسبة فيما يرفّـه (١) عن القاضى . ويشتركان فى أن عمل كل منهما مبنى على الرهبة المستمدة من سلطان الحكومة ، وأن كلا منهما لا يتعرض إلا لعدوان ظاهر لاخفاء فيه ؟

« يتبع »

احمد المراغى

(١) رفه عنه : وسع وخفف .

من أخبار الفصحاء

دخـل المأمون ديوانه يوما فمر بغلام وسيم الطلعة ، حسن البزة ، فاعجبه شكله . فقال له : من الشاب ؟ فقام وقال : الناشئ فى دولتك ، المؤمل لخدمتك ، والمتقلب فى نعمتك : الحسن ابن رجاء . فاستحسن المأمون جوابه وأمر له بجائزة .

يقال إن أبا العباس السفاح لام يوما خالد بن برمك وزيره على كثرة عطائه وصلاته ، فقال له خالد : لم أر شكرى يحيط بنعم أمير المؤمنين ، فاستعنت بألسنة الناس عليها .

وقف المنـذر ملك العراق على عجوز من العرب ، فقال لها ممن أنت ؟ قالت : من طىء . فقال : ما منع طيأ أن يكون فيهم مثل حاتم ؟ قالت : ما منع الملوك أن يكون فيهم مثلك . فعجب المنذر من سرعة جوابها وأمر لها بصلة .

موقف الدعوة الاسلامية

من الشعر والشعراء

يحاول بعض الباحثين من المتأدبين العصريين أن يلصق بالاسلام دعوى منافرته للأدب من الوجهة الفنية ، ولا سيما الشعر ، استناداً الى موقف الدعوة الاسلامية من فريق من الشعر والشعراء على عهد البعثة المحمدية . وهى دعوى لا تجد لها دليلا من التاريخ ولا شبهة من الواقع ، وإنما دفعهم اليها ما رأوه من عناية الاسلام القوية بالأخلاق الكريمة ، وإحاطتها بسياج من الحصانة التى كان من لوازمها مقاومة البذاء والتفحش فى الهجاء ، والكذب والافتراء فى المدح والاستجداء ، والاباحة الداعرة فى الغزل والتشبيب ، فالاسلام سلك للفن الأدبى طريق الفضيلة ليقيم للناس حياة فاضلة خيّرة لا تشوهها تلك النقائص النفسية والمعايب الخلقية . وإذا كان الاسلام قد اشتد بعض الشىء أمام نوع من الشعر وفريق من الشعراء كان لا يرى للأخلاق وزنا ، فله فى ذلك عذره الناصح ، الى جانب أنه شجع نوعا من الشعر وفريقا من الشعراء جعلوا فنهم مطية للكرائم الأدبية .

كان الشعر — كما يقول عمر بن الخطاب — علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه ، وكان الشعراء عند العرب هم أهل الحذق والثقافة الذين يصلون فى ميادين الأفكار وتسجيل الآراء ، واليهم يركن الناس فى الاحتجاج لهم والذب عن أحسابهم ونشر فضائلهم ، وقد كانوا شاعرين بهذه المنقبة لهم فى نفوس الجماهير مدلين بها عليهم ، فترى الأعشى يمن على ممدوحه بقوله :

قلدتك الشعر ياسلامة ذا فا ... ئش والشىء حيثما جعلا
والشعر يستنزل الكريم كما ... ينزل رعد السحابة السبلا

فلما جاء الاسلام بتعاليمه التى أشعرت العرب بحياة جديدة كل الجدة ، لم تألفها نفوسهم ولم يتعودها مجتمعهم ، وكانت تلك التعاليم أشد وقعا على نفوس الشعراء والمتزعمين ، لأنها تحمل فى ثناياها مايذهب بكبريائهم ويقوض سلطانهم ، ويزرى بمواضعاتهم ، فاشتدت الخصومة بين الدعوة الجديدة والعاكفين على التقليد ، وانتهض شعراؤهم لمناهضة القرآن الكريم الذى هتك ستر بلاغتهم ، ووضع بسمو براعته ونصاعة بيانه من قيمة فصاحتهم ؛ ورصد قوم منهم أنفسهم لهجاء النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأقذع فى هذا أمية بن أبى الصلت ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن رواية شعره ، فيما يقول الرواة ، وكان طبيعيا أن يجد الاسلام فى أنصاره ألسنة حدادا ترد كيد المعتدين فى نحورهم ، وكان هؤلاء الأنصار يجدون من النبى صلى الله عليه وسلم رضاء واغتباطا ، لا بل أمرا وتحريضا ، فقد روى أصحاب السير عن جويرية

ابن أسماء قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى وأشفى . وعن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه قال : لما كان عام الأحزاب وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا قال النبى صلى الله عليه وسلم : من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب رضى الله عنه : أنا يارسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة : أنا يارسول الله ، وقال حسان بن ثابت : أنا يارسول الله ، قال عليه السلام : نعم اهجهم أنت فانه سيعينك الله بروح القدس . ومن مواقف حسان رضى الله عنه التى نافح فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رده على الزبرقان بن بدر شاعر وفد بنى تميم الذين نزل فيهم قول الله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » فقد خرج اليهم النبى صلى الله عليه وسلم واستمع الى خطيبهم الأقرع بن حابس وشاعرهم الزبرقان ، وأمر خطيبه ثابت بن شماس فرد على خطيبهم ، وأمر شاعره حسان بن ثابت فقام فأنشد عينيته المشهورة ، وهى من رائع شعره ، وفيها يقول :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الاله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق — فاعلم — شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطبعون ولا يزرى بهم طبع
ولا يضنون عن جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طمع
يسمون للحرب تبدو وهى كالحة ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم فى الوغى والموت مكتنع ... أسود بيشة فى أرساغها فدع
خذ منهم ما أتوا عفوا وما غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
فإن فى حربهم — فاترك عداوتهم — ... سما يخاض عليه الصاب والسلع
أكرم بقوم رسول الله قائدهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يؤازره ... فيما أراد لسان حاذق صنع
وأنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جدّ بالناس جد القول أوسمعوا

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : إن هذا الرجل لمؤتى له ، والله لشاعره أشعر من شاعرنا ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا ، ثم قال : أعطنى يا محمد ، فأعطاه ، فقال : زدنى ، فزاده ، فقال : اللهم إنه سيد العرب !

فنحن نرى فى هذا الضرب من المحاورات الكلامية ، والمناظرات الأدبية ، مايدلنا دلالة صريحة على أن صاحب الدعوة الاسلامية جعل الأدب بعض أسلحته فى تأييد دعوته ، مجانسة لما كان عند خصومه من هذا القبيل ، فلما فلج عليهم أبوا الا لجًّا فى العناد حتى شاموا سيوفهم فى وجه الدعوة ، فأبى الله إلا نصرة دينه القويم .

ومن الشبه التى يتمسك بها هؤلاء المتادبون آية فى كتاب الله تعالى تصف الشعراء بالضلالة والبهتان ، وقد ردها على إخوان لهم من قبل صاحب العمدة فقال : « فأما احتجاج من لم يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » فهو غلط وسوء تأول ، لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ، ومسوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شىء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا » يريد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه »

على أننا إذا نظرنا الى التاريخ الأدبى فى هذه المرحلة وجدنا من القصص والحوادث الثابتة مايثبت اعتزاز الاسلام بالأدب وخاصة الشعر ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أقام لحسان منبرا فى مسجده وقال له : « اهجهم — أى المشركين — فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام » . وقصة كعب بن زهير مشهورة ، فقد أنشد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم قصيدته :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وفيها يقول بعد أن تخلص من الغزل — على عادة الشعراء — الى المديح والاعتذار :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فىّ الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

فرضى عنه النبى صلى الله عليه وسلم وأثابه بردته . وهذا أيضا النابغة الجعدى : وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومدحه بقصيدته الرائية :

خليلى عوجا ساعة وتهجرا ... ولوما على ما أحدث الدهر أوزرا
أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيرا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنت من النار المخوفة أحذرا

الى أن قال فيها مفتخرا بنفسه وقومه :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أين المظهر يا أبى ليلى ؟ » فقال : الجنة يارسول الله ، قال : « أجمل ! إن شاء الله » فلما بلغ قوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أجدت لا يفضض الله فاك » .

ويروى أن الزبير بن العوام رضى الله عنه مر بمجلس لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحسان ينشدهم وهم غير آذنين لما يسمعون من شعره ، فقال : مالى أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن القريعة ؟ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه إذا أنشده ! ولعل هذا هو السبب فى مدحة حسان للزبير التى يقول فيها :

أقام على عهد النبي وهديه حواريه والقول بالفعل يعدل

وقد مر عمر بن الخطاب بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فقال له : أرغاء كرغاء البكر ؟ ! فقال حسان : دعنى عنك ياعمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فما يغيّر علىّ !

وذكر الشيخ عبد القاهر أنه يروى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول لى : « أبياتك » فأقول :

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه يوما فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

ومما اشتهر عنها أنها كانت تحفظ شعر لبيد جميعه . ودخل عليها حسان بعد ما كان من أمره فى شأنها معتذرا فأنشدها قوله :

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فان كنت قد قلت الذى قد زعمتم فلا رفعت سوطى الىّ أناملى
فإن الذى قد قيل ليس بلائط ولكنه قول امرئ بى ماحل

ولو شئنا أن نتتبع الحوادث لما اتسع المقام لسردها . وهكذا نجد الاسلام فى شخص نبيه الكريم وأعيان أنصاره وجنوده ، اعتز بالأدب وآخاه ، بيد أنه لم يرض أن يمد لغواة الشعراء فى حبل الضلالة ، بل حجزهم فى رفق تارة ، وفى صلابة تارة ، عن مزالق الشر والافساد فى الأرض ، وفتح لهم أبوابا من الفضيلة والخير . والحق لو أنهم اتخذوها منافذ الى مظاهر الوجود لكان الأدب العربى الآن ناموسا من نواميس الأخلاق الفاضلة ، كما أنه الناموس الأعظم فى البراعة والبيان ؟

صادق ابراهيم عرجون

الدعوة الى الله

ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

—

الدعوة الى الدين وتثبيت اليقين وإرشاد الناس ليخرجوا من الظلمات الى النور ، هى فى الأصل عمل الأنبياء والمرسلين ، يخلفهم فى ذلك صفوة عباد الله ممن اختارهم وقربهم اليه .

ولقد كان لها فى سلفنا الأول المقام الأول ، فكان يليها كبار الصحابة والتابعين ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وكان الناس لا يزالون يذكرون ما كانوا عليه من جاهلية جهلاء وخطة عمياء ، ركبوا فيها العسف ، وتباهوا بالجبروت والظلم ، حتى عمتهم الفوضى ، وساءت بهم حال الحياة . فكانت ذكرياتهم عنها أكبر عون لمسارعتهم الى الجادة التى رحمهم الله بها « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فلما طال عليهم الأمد ونسى الماضى السيئ ، واستقر بهم العيش ، وأتتهم الحياة الطيبة بما نعموا به من الشريعة السمحة ، حسبوا ما غنموه من هذه الثمار حقا لازما لايخشى عليه ضياع ولا يحتاج الى حراسة ، فسكروا بلذة النعيم ، وانغمسوا فى شهواتهم لاهين ساهين ، وبحر الشهوات لا ساحل له . وقد كان ذوو النفوذ والسلطان والجاه والثراء أوفر الناس قسطا من الاستهتار والاندفاع فى تيار اللذائذ ، واقتدت بهم الدهماء حتى تعرضوا لوعيد الآية الكريمة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . فكم من أمة من الأمم الاسلامية سقطت من شامخ رفعتها ، وذلت بعد عزتها ، وانتزعت من ملكها وسطوتها ، وتحكمت فيها أمم كان أعز أمانيها أن تكون من حاشيتها . ولولا ما وعد الله به هذه الأمة الكريمة من بقاء الخير فيها الى يوم القيامة لكان ما انغمست فيه كافيا للقضاء عليها ، ولكن الله اللطيف الخبير كان يتداركها على تعاقب الأحوال بمن يجدد لها أمر دينها .

وإن من أكبر ما يوجه القلوب الى الله بالحمد والشكر ، ما نراه فى هذا العصر من نعمة الله على مصر ، بما حباها به من ملك صالح ، بوأه عرشها ، وسلمه زمامها ، وقد نشأ فى عبادة ربه وتحلى بحلية الدين من أول تنشئته ، وآتاه الله من الحكمة والحزم ونور البصيرة وقوة العزم ماظهرت آثاره جلية فى توجيه أمته الى سعادتها ، وإرشادها الى التمسك بدينها ، والدين مدعاة الفضائل جميعها ، وفى التمسك بالفضائل من أمانة وصدق وحسن عشرة وعدل واستمساك بعزة وحمية ، فى هذه الفضائل صون الكرامة ، وعلو المكانة ، واكتساب الاحترام ، والجدارة بالثقة .

شهدت به مصر عهدا طالما تمنته وسألت الله أن يحققه لها ، فاستجاب لها ربها ، فكان أول ما بدأها به الكلمات الطيبة يوجهها إليها مشافهة ، يهنئها بشهر الصوم ، وينبهها الى ما فيه من فرصة اغتنام الخير ؛ وما بين يديها من سعادة تغتنمها باقبالها على أحكام دينها وطاعة ربها ، فتحرز بذلك سعادة الدنيا والآخرة ، تفتحت له قلوبها بالمحبة ، وتطلعت إليه عقولها تغتنم الرشاد من نصحه ، وأكبرت فيه مظاهر الدين تتوالى عليها .

وكان من أكبرها وأيمنها : أن عهد الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المصلح الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر ، بإلقاء دروس فى تفسير آى الذكر الحكيم ، بحيث ينتفع بها الخاصة ، ولا تعلو على أفهام العامة . وتفضل بحضورها والاستماع لها ، فأقبل عليها العظماء يتسابقون ، وتبعهم الجماهير متلهفين . وساعدت وسائل الاذاعة على نشرها لأوساط الأمة ، فكانوا يتلقفونها ما استطاعوا ، فكان النفع بها عظيما ؛ والتطلع إليها أعظم . وحسبك بدروس دينية يحضرها الملك الصالح بنفسه ، وينوه بشأنها ، ويعلى من قدرها . فكان فى هذا من تنبيه الشعور الدينى ما نحمد الله فيه على نعمة التوفيق ، ونسأله جل شأنه منه المزيد .

ولقد سمعنا من غير واحد من العظماء إلحافا فى طلب المزيد منها والمداومة عليها ، يقولون : إن فى عنق الأزهر حقا وأمانة للأمة فى هذا التذكير الذى جذب أرواحنا ، وأشبع قلوبنا ، وذكرنا بواجبنا ، والذكرى تنفع المؤمنين ، فلا يصح أن يهمل الأزهر هذا الأمر وهو الأدرى بقيمته عند الله . وإنا لنرجو أن تجاب هذه الرغبات الشريفة إن شاء الله .

بقيت كلمة لا بد من الالماع إليها بإشارة وجيزة :

تلك أن بعض صغار الأحلام أساء فهم كلمات وردت على لسان فضيلة الأستاذ الأكبر ، فبدلا من أن ينعم النظر فيها ، ويتأمل سابقها ولا حقها ، أطلق لنفسه عنان الطيش ، وراح يرسل الكلمات فى غير ما روية ، ويقول : إن فضيلة الأستاذ الأكبر ينكر على الأئمة اجتهادهم فى مذاهبهم .

ياللعجب العجاب ! لم ندر كيف يخطر هذا الوهم فى نفس رجل له فهم ؟ وكيف يستقر عند من يزعم أنه من أهل العلم ؟ وكيف يجرى على لسانه ولا يتوارى خجلا من نفسه ! أليس هذا الذى تزعم عليه أنه ينكر الخلافات المذهبية هو الذى يتعهد دروس الفقه على المذاهب الأربعة ، ويطالب طلاب الجامعة الأزهرية وجميع المعاهد الدينية أن يحذقوا أحكام مذاهبهم ، ويطالبهم بتقرير أدلتها وبيان حكمة التشريع فيها ، وربط مصالح المجتمع بما يدرسونه منها ، كل على حسب درجته فى التعلم ؛ ولا يسمح لواحد من الطلاب الذين وضع الله أماناتهم فى عنقه أن ينتقل من سنة الى سنة أو أن يجاز فى النهاية باجازة التدريس والارشاد ، إلا بعد أن يكون قد أجاد فهم مذهب إمامه ومن انتصبوا لتقريره وبسط أدلته وتوجيه قواعده ؟ !

فكيف ينكر شيئا هو دائب على تعهده وتنميته ، وحريص كل الحرص على أن يبلغ غاية الكمال والاتقان ؟ !

هذا فى مركزه الرسمى . فاذا فاته التنبه الى هذا فكيف يغفل عما جاءت الآية التى يفسرها فضيلته لتقريره ؟ ألم يكن سياقها فى مذاهب الأمم الماضية من أهل الكتاب وغيرهم ، وأنها ابتدأت مذاهب مختلفة ثم تطورت الى أن صارت أديانا يكفر كل أهل مذهب منهم من خالفه فى مذهبه ، ويعتبره خلافا فى الدين لا اجتهادا مذهبيا ؟ أليس من واجب حراس الدين أن ينبهوا للحذر من هـذا الاختلاف الذى وقع لمن قبلنا حتى لا يصيبنا ؟

لعلك تقول : ومالنا نحن وهذا التنبيه ولم نصَب بمثـل ما وقعوا فيه ؟

ونقول لك : إن التنبيه على الخطر لا يتوقف على الوقوع فيه بالفعل ، بل يجب التحذير من الضرر قبل التردى فى هاويته ، حتى يكون التحذير مفيدا ، فان أبيت إلا أن ترى الضرر قد حصل بالفعل حتى يصح التعرض للتحذير منه ، فماذا تصنع فى فائدة ما قصه علينا القرآن الكريم والسنة النبوية من قصص الأولين !

على أن الذى تزعم نفيه عن الأمة الاسلامية وأن لا داعى للتعرض له ، قد وقع فيه الكثير من الطوائف فى غير مصر : فكم ترى من افتراق طوائف مسلمة افتراقا أشبه ذلك الافتراق الذى حصل لمن قبلنا من أهل الكتاب . وإذا كان الله قد نجى منه الأمة المصرية وله الحمد والمنة ، فقد ارتكست فيه طوائف فى غير مصر يكفر بعضهم بعضا ، والجميع من أهل القبلة يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسـول الله ! وابحث إن شئت فى مصرك تجد جماعات تعمل دائبة فى مصر على خفية منك ، تعمل على تـكفير غيرها . ولو اطلعت على ما تدعو اليه لسارعت بتكفيرها . وكم من فئة تمزق من الأمة ما جمعه الله ، فانا لله !

وبعد : فلم يخل المصلحون فى زمن مّا من التعرض لهم باللمز والتأويل وشتى الأقاويل ، فإن كانوا يعملون ليقال عنهم ، فترت همتهم ، وإن كانوا يعملون لله ولرسوله وليرضوا ضميرهم ويرضوا ربهم ، لجأوا الى قوله عز وجل : «فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

هـذا ولقد رأى جمهرة من أهـل الرأى وتقدير الأعمال بما تستحقها : أن يكون النفع بهذه الدروس عاما وثابتا مستقرا ، فاقترحوا على فضيلة الأستاذ الأكبر أن يأذن بطبعها لينتفع بها من فاتته فرصة استماعها ، فتفضل حفظه الله وأذن بذلك .

وإنا لنرجو أن تكون باكورة لثمار بستان يؤتى أكله كل حين بإذن ربه ، وأن تكون بداية طيبة لنفع متصل .

وإنا إذ ننوه بهـذه الآثار الجليلة التى هى فى غنى عن تنويهنا ، نغتبط أتم الاغتباط بان تكون هذه الآثار على يد ملك اصطفاه الله لـكنانته ، وبوأه ملك مصر التى جمع الله لها من مزايا العـلم وحراسة الدين ما لم يجمعه لغيرها ، وعرف لها أمم الإسلام من جليل الآثار ما جعلهم يحلونها محل القيادة الدينية العامة ، ويعلقون آمالهم بها يرجون أن يكون بها جمع كلمة المسلمين على التمسك بفضـائل الدين ، حتى يحرزوا ماهم أهله من احترام الشعوب ومحبة الأمم ، والثقة الـكاملة لدى العالم أجمع .

ولقد نذكر بمجىء هـذه الآثار على يد جلالة الملك الصالح المحبوب الموفق الملك فاروق الاول ، ما روى لنا عن سميه الفاروق ثانى الخلفـاء الراشدين : من أن إسلامه كان بدء الجهر بالدعوة الى الإسلام ، وقد كانت قبل ذلك سرا ، فسماه عليه السلام بالفاروق ، فرق الله به بين الحق والباطل .

وكذلك فى عصرنا هـذا تستقبل مصر عزة دينية ، ويجهر رجال الدين بالدعوة الى الله فى حضرة الملك وبتشجيعه . فإن كان ملـكنا حفظه الله فاروقا الأول فى ملوك مصر ، فهو أيضا فاروق الثانى فيمن أعلى الله بهم كلمة الدين .

فاللهم أيد الإسلام بتأييده ، وأعل كلمة الحق باعلاء كلمته ، واجمع القلوب على الخير بجمعها على محبته — آمين !

ابراهيم الجبالى

عمر يقص من نفسه

حكى أبو الحسن المـاوردى فى كتابه الأحكام السلطـانية عن ابراهيم النخعى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى الرجال أن يطوفوا مع النساء ، فرأى رجلا يصلى مع النساء ، فضربه بالدرة . فقال : والله إن كان عملى هذا حسنا لقد ظلمتنى ، وإن كان سيئا فما علمتنى .

فقال عمر : أما شهدت عزمتى ؟ فقـال : ما شهدت لك من عزمة ، فألقى اليه عمر الدرة ، وقال له اقتص . قال لا أقتص اليوم . قال عمر : فاعف عنى . قال لا أعفو ، وافترقا على ذلك .

ثم لقيه من الغد فتغير لون عمر . فقال له الرجل : ياأمير المؤمنين كأنى أرى ما كان منى قد أسرع فيك . قال عمر : أجل . قال الرجل : فاشهد أنى قد عفوت عنك .

(من كتاب السمير الواعظ) .

أثر القرآن فى تحرير الفكر الانسانى

أول ماوجد الانسان على الأرض كان جاهلا كل الجهل ، وكان مع جهله هذا ليس بمجرد من عاطفة دينية كما يدل عليه كل ما وجد من آثار الأمم السابقة على التاريخ ، فلم تشاهد جماعة من جماعاته محرومة من دين ساذج يناسب الحالة العقلية التى كانوا عليها . ولا تزال توجد فى الأرض قبائل متوغلة فى التوحش تعطينا مثلا محسوسا على ما كان عليه الانسان فى أول وجوده . ومما هو محقق أن الخالق سبحانه وتعالى لم يحرم الانسان وهو فى ذلك الدرك الأسفل من وجوده من رسل يهدونه الى الحق بالقدر الذى يطيقه تعقله . ولكنه ما كان يلبث أن ينقاد لأوهامه فيؤلّه قوى الطبيعة ، أو يتخيل وراء ظواهرها روحا أو أرواحا تمنحه الخير متى رضيت عنه ، وتقذفه بالشر متى سخطت عليه ، فكان يستجلب رضاءها عليه بما تزينه له عقليته الناقصة ولو بتضحية فلذة كبده لاسترضائها . ولا شك أنه كان يصدر فى كل ذلك عن رجال نحلوا أنفسهم صفة الوساطة بينه وبين الآلهة . فكان يدين بما يوسوسون له به غير طالب على مايقولون دليلا ، لا لأنه كان يقدسهم فحسب ، ولكن لأنه لم يكن يميز بين ما هو حق وما هو باطل من العقائد ، فكل شىء كان عنده صحيحا ما دام يصدر عن المهيمنين على ديانته .

فلما حصل للانسان بعض العلم بالوجود الذى يعيش فيه ، وأخذت قواه العقلية تشعره شعورا ساذجا بأن من الأمور ما هو حق ومنها ما هو باطل ، ازداد تعويلا على قادته ، وتمسكا بما يفضون به اليه ، وتسليما منه بأن الحق لا يعدو ما يؤانونه إياه على أية حال .

انتقل الانسان درجة بل درجات فى باحات العلم ، وقويت فيه غرائزه الأدبية ، واستعدت للقيام بحصتها من حياته العقلية ، فلم يؤثر هذا فى خضوعه لأوليائه ، لأنهم بما انقطعوا لمهمتهم الروحية كانوا يسبقونه الى التطور فيوفونه حاجته من الغذاء العقلى ، فكان يضطر للانقياد لهم ، إذ يصادف لديهم كلما حفزته الحاجة الى المزيد منه ، فيظل أسيرا فى قبضتهم .

تتابعت القرون والأجيال ، والناس جميعا على هذه الحال ، حتى ولدت الفلسفة اليونانية ونبغ بين أحضانها رجال وقر فى أنفسهم أن من حق عقولهم عليهم أن يناقشوا رجال الدين فيما يدلون به الى الناس من عقائد ، فكان جزاؤهم القتل ، وأكبر من ذهب منهم ضحية لهذه التهمة الفيلسوف سقراط عمدة الفلسفة اليونانية .

ولكن ما لبث هذا الحجر على الفكر أن خفت وطأته ، فتمكن فلاسفة كثيرون من الافضاء بمذاهبهم الى الناس ، وفى بعضها ما يخالف عقائد عامتهم ، بل منها مايفضى الى المادية الباحتة .

ولكن هذا العهد لم يدم طويلا ، فانه لما عمت الديانة المسيحية أوربا أصبح لحفظتها من السلطان ونفاذ الكلمة ماليس للملوك المتوجين ، فوضعوا حدودا للنظر لا يسمح لأحد بتعديها ، فوقفت حركة الفكر أكثر من ألف سنة لم ينبغ فى أثنائها على ما يقول المؤرخون عالم واحد فى أى فرع من فروع العلم ، وبقيت كتب الأوائل مكدسة فى المكتبات ترعى فيها الحشرات .

فكان العالم لا يخلو فى أثناء تلك القرون الراكدة من نبوغ عقول نيرة تبحث فى بعض الشئون الكونية ، وتأتى بما يعده القائمون بالأمور الدينية زيغا ، فكان هؤلاء المفكرون يحاسبون على ما أتوا به حسابا عسيرا ، فيستتابون ويعزرون إن كانت جريمتهم هينة ، فان عادوا لمثل ما أخذ عليهم فجزاؤهم كان القتل على أبشع حالة .

هذه الشدة المتناهية فى القسوة لم تمنع العقول القوية من الظهور آونة فآونة ، فكان حفظة العقائد يلتقطون أصحابها واحدا واحدا ويخمدون أنفاسهم ، حتى لا تسرى عدواهم لسواهم . ظلت الحال جارية على هذا النحو حتى بلغ عدد ضحايا الفكر الحر أكثر من ثلثمائة ألف ، أحرقوا بالنار ، أو ألقوا فى البحار ، أو ماتوا وخزا بالسفافيد المحماة الخ .

ومن عجب أنه كلما ازداد عدد هذه الضحايا كثر المترسمون لخطواتهم ، وكلما أمعن رجال الدين فى عنادهم ، استبسل رجال الفكر فى جهادهم ، وتيقظ الناس من سباتهم ، وبعد أن كان النزاع محصورا بين رجال الدين ورجال العلم ، تعداهم الى رجال الدين أنفسهم ، وما هى إلا فترة حتى انصدعت وحدتهم ، فأعان جمهور كبير منهم عزلتهم ، مؤسسين مذهبا جديدا للمسيحية باسم البرتستانتية ، فيها تسامح كبير إزاء رجال العلم ، ومجال فسيح للفكر الحر والرأى المستقل ، وكان ذلك فى القرن السادس عشر ، أى بعد ظهور الاسلام بنحو ألف سنة .

الناظر فى هذه السلسلة الطويلة من التنازع يظنها تطورات أدبية محلية ، والحقيقة أنها تتصل بالنهضة التى أحدثها القرآن فى الشرق اتصالا وثيقا ، فإن المسلمين اتصلوا بأوربا من جهة غربها منذ أواخر القرن الثامن الميلادى بفتحهم للأندلس ، فأسسوا فيها دوراً للعلم ، وجروا فيه من حرية البحث واستقلال الرأى على ما يقضى به الدستور القرآنى ، فتأدوا الى مدى بعيد من المعارف والفنون ، وصارت جامعات قرطبة واشبيلية مثابة لطلاب العلم الغربيين ، فنهلوا من معينها الصافى ما لا يصلون الى مثله فى بلادهم ، ومرنوا على الأسلوب الذى كان يجرى عليه علماء المسلمين من الحرية والاستقلال ، فتشبعت به نفوسهم ، وارتاحت إليه عقولهم ، فلما عادوا الى بلادهم أخذوا يبثون فى مواطنيهم هذه الروح الجديدة ، فسرت فى أذكيائهم سريان النور فى الظلام ، وفتحت أمامهم آفاقا من النظر ، ووقفتهم على مواطن الفساد من نظمهم التعليمية ، وسلطاتهم الاستبدادية . ومتى أشعرت النفوس بنقصها اندفعت مضطرة بغرائزها لتكميله ،

فانتدب أفراد منها للتفكير والنظر، غير معتدين بالحدود التى أمرت السلطة الدينية بعدم تعديها، فحدث من جراء ذلك كل ما ذكرناه من ذلك التاريخ هنا .

أما دخول العلم الاسلامى الى أوربا من طريق الأندلس وطريق إيطاليا فأمر قد اعترف به مؤرخوهم، وأما استمدادها روح نهضتها من النهضة الاسلامية فحادث لا يمكن المراء فيه، لإجماع مؤرخيها أن علوم المسلمين وآدابهم هى التى أيقظت أهلها من سباتهم، ودفعتهم لبلوغ هـذا الشأو من المدنية التى هم عليها اليوم . ولست أحب أن أطيل الكلام بايراد الشواهد من كتب مؤرخيهم، فانه أصبح معلوما من الناس أجمعين، وقد أكثرنا من ذكره فى جميع بحوثنا السابقة .

أما بيان الأسلوب الذى تمكن به القرءان من كسر القيود الفولاذية التى كان يرسف فيها الفكر الإنسانى فى مدى سنين معدودة، بعد أن لبث عليها قرونا كثيرة، فإن فى بيانه عبرة للسائلين، وآية للناس أجمعين .

أنزل الله القرءان والناس على ما تعلم من عبادة الأهواء، والجمود على تقاليد الآباء، والطاعة العمياء للزعماء، فلو كان جرى على الأسلوب البشرى فى بعث هذه العقليات الخامدة، وتنبيه هذه النفوس الهامـدة، لاستدعى ذلك قرونا وأجيالا . ولكنه أتى فى هـذا الموطن بآية سيرفعها الناس الى أعلى من مستوى إحياء الموتى، حين يعرفون أن نقل النفوس عما ورثته طفرة، دونه نقل الجبال الشم من أماكنها .

تصدى الاسلام لتحرير العقلية الانسانية من طريق غير مباشر، فجاءها من الناحية التى يشتد شعورها بها، وهى ما ستؤول اليه بعـد الموت، فأفاض فى ذكر العذاب الذى ستلاقيه النفوس الكافرة الجاحـدة إفاضة لم تؤثر عن سـواد، وبالغ فى تهويله على ضروب تنخلع لها القلوب وترتعد منها الفرائص، مؤكداً أن الانسان وهو فى تلك الحالة لا تجديه شفاعة شفيع ولو كان ملكا مقربا، ولا قرابة قريب ولو كان رسولا مكرما، بل لا يجد من يتطوع لانجاده من أب أو أم أو صديق، لاشتغال كل امرئ بنفسه : « يوم يفـر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » « يوم تكون السماء كالمهـل وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميما، يبصَّرونهم، يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيـه، وفصيلته التى تؤويه، ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه » « ليس للانسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » « إذ تبرأ الذين اتُّبـعوا من الذين اتَّبـعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » « وقالوا (أى أصحاب النار) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » الخ الخ .

الناظر فى هذه الآيات ، وفى الكتاب عشرات من أمثالها ، يعجب من كثرتها ، ولكنه لو أدرك أن هذا كله تمهيد لأعظم إصلاح تم حدوثه فى الأرض ، وكان فاتحة لكل الاصلاحات التى تلتها من بعد ، ذلك الاصلاح الذى رمى لأن يرفع عن النفوس البشرية نير العبودية للاوهام والتقاليد التى أمسكتها فى الظلام أجيالا طويلة ، تبين له وجه الحكمة من الاكثار من هذه الزواجر .

ألا ترى أن النفوس متى تحققت أنه لا ينجيها من عذاب الآخرة شىء غير عملها الذاتى ، انساقت للنظر فى وجه خلاصها ، وما دام لن ينفعها شفاعة شفيع ، ولا قرابة قريب ، ولا اتباعها لمن تتخيل فيهم الهداية ، وتتوهم منهم الوساطة ، كرهت الجمود على الموروثات ، ومقتت التقليد للآباء ، وأيقظت فى نفسها خاصة النقد والتمحيص فى كل ما يعرض لها من العلم ، فلم تعد أسيرة أحد فيما تعتقده وما تأخذ به ؟ وهذا هو معنى حرية الفكر واستقلال الرأى الذى سعى لاقامة دولتيهما العباقرة أجيالا متطاولة ، وبذلوا فى تشييدها دماءهم رخيصة ، وأقامها الاسلام فى سنين معدودة ؟

وقد رأيت أن الاسلام قد جاء بهذا الاصلاح للآخذين به طفرة ، مؤسسا إياه على أرسخ غرائز النفس ، وأعمق نحائزها ، فنشأت أمة تنظر وتفكر ، وتدعو كل فرد منها ليفكر لنفسه ، ويعمل لها ، وقد خلد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأصل بكلمة من صميم العلم الالهى ، وهى قوله لابنته : « اعملى يافاطمة فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » .

وقد نشأ فى هذه الأمة عدد لا يحصى من العلماء والحكماء فلم يقل واحد منهم : خذوا بما أقول لاتنظروا فيه ، بل قالوا كلهم كما قال مالك : « ما من أحد إلا وهو ماخوذ منه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ؟

محمد فريد وجدى

ماقيل فى حفظ اللسان

لا تكشفن من مساوى الناس ماستروا	فيكشف الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن مافيهم إذا ذكروا	ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وقال شاعر آخر :

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى	ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوأة	فللناس سوآت وللناس ألسن
وعينك إن أبدت اليك مساويا	لقوم فقل : ياعين للناس أعين
فعاشر بانصاف وكن متوددا	ولا تلق إلا بالتى هى أحسن

الاخلاق الفلسفية

– ٧ –

(ب) الضمـــير

السريرة :

يرى بعض الأخلاقيين تعدد السريرة واختلاف أوصافها ، وتباين أفعالها ، فيقسمها الى سريرة صادقة وهى ما توافق أعمالها القانون الأخلاقى ، وسريرة ضالة وهى ما ترى الخير شرا والشر خيرا ، وسريرة موسوسة ، وهى ما تحظر المباح ، وسريرة مترددة ، وهى ما تتحير فى إصدار الحكم على الخير والشر .

ولست أدرى ما هى الفروق التى صحت عند هذا البعض من الأخلاقيين فميزوا بها السريرة من الضمير ، وجعلوا الأولى متعددة ، والثانى واحدا لا يختلف ولا يتغير ؟ ثم لا أدرى كذلك ما هـو المرجع الأخير الذى يلجؤن إليه فى الحكم بين هـذه السرائر المختلفة حتى يتبينوا الصادق والكاذب منها : أهو العقل ، وقد علمنا مقدار ما يكتنفه من ضعف والخداع بسبب خضوعه للحواس ؟ أم هى إحدى السرائر تتولى الحكم على بقية أخواتها ، وقد عرفنا أن تفضيل أحد المتساويين على الآخر وجعله حكما عليه بلا مبرر تحكم وخروج على ناموس العدالة ؟ أم هـو القانون الأخلاقى ، وقد أصبحت ثقتنا فيـه ضئيلة تافهة ؛ لأننا بدأنا نرتاب فى مشرعه وهو السريرة ما دمنا نوقن بأنها متعددة متغيرة خاضعة لظروف الحياة وطوارئها ؟ وليس أدعى الى الارتياب ولا أبعث على فقدان الثقة من هذه الحال المضطربة . وإذاً فرأيهم هذا مردود ، ولا يستطيع التسليم به عقل يسير على نظام المنطق المستقيم ، ولكن الرأى عندى هـو أن الضمير والسريرة شىء واحد لا يتعدد ولا يتغير ، ولا يكذب ولا يوسوس ولا يتردد ولا يشك ، لأنه من عالم الأبدية كما قررنا ذلك مررا . وأما ما نشعر به أحيانا من تردد وارتباك فمصدره هو نشوب حرب داخلية بين هـذا الضمير الصادق والناصح المتثبت من رأيه ، وبين إحدى القوتين الحيوانيتين الموجودتين فى النفس البشرية . وأما ما نشاهـده من ضلال فى أعمالنا وسقوط فى هوى الشر والرذيلة ، فما هو إلا تغلب إحدى هاتين القوتين على ذلك الصوت الأعلى . وليس معنى هذا أن الانسان أثناء النضال الداخلى بين ضميره وشهوته يكون مرتديا ثوب السريرة المترددة ، فاذا انتصر الضمير نزع هـذا الثوب واستبدل به ثوب السريرة الصادقة ، وإذا كانت الغلبة للقوة الشهوانية ، ارتدى ثوب السريرة الضالة ،

فاذا تعلم أو تهذبت أخلاقه عاد فألقى بالسريرة الأولى جانبا وتدثر بغيرها . ولو كان الأمر كذلك لكانت السرائر شيئا تافها لا يكلف المرء تغييرها إلا عناء استبدال القفاز كما يقولون ، ولكن الواقع أن التردد والشك والهوى والضلال ليست إلا حالات للنفس البشرية تعرض لها من تنازع القوى الثلاث التي تسيطر عليها ، وأيها كانت لها الغلبة فهي صاحبة الحكم والسلطان .

أما إذا كان هذا البعض من الأخلاقيين يقصد بالسريرة الخلق ، فإنا نوافقه على تغيره وتحسنه بوساطة الرياضة والثقافة والدين وتتبع سير العظماء والمصلحين ، ولا نخالفه في أن هدى الخلق وضلاله مقرونان بالبيئات التي تحوط الانسان ، وبالعناصر التي تتكون منها ثقافته ، وبالعوامل التي تساهم في تربيته ؛ ولكننا لا نسلم مطلقا بأن الصوت الأساسي الخفي يعتوره تغير أو نقص أو ضلال ، لأنه هو البرهان الأول على رفعة الانسان وجدارته بالاتصال بخالقه ، وعلى إمكان وصوله الى المثل الأعلى . فاذا جاز أن تتعرض هذه القوة العليا للتغير والنقص ، فقد سقطت قيمتها المعنوية ، واندثرت نتائجها المترتبة عليها ، وانقلب كل ما في الكون من حقائق وعقائد وفلسفات ، لأن وجود هذه القوة في الانسان ، وثبات عصمتها من الخطأ والضلال ، والاستيقان بأنها هي الصلة بين المطلق والمحدود ، لأكبر دليل وأصدق برهان على وجود الله وصدق الأنبياء وخلود الروح ، والعودة الى حياة أخرى تجرى فيها العدالة مجراها ، وإن كنا لا ندعي استقلال هذا البرهان باثبات كل هذه العقائد ، وإنما نحن مسلمون بأنه يستعين ببراهين أخرى ، ولكنه هو بينها قطب الرحى وبيت القصيد .

العواطف الأخلاقية :

أشرنا عند تحديد أفعال الضمير الأدبي الى أن الأفعال السلبية للضمير ، وهي ما تعقب الفعل ، تسمى بالعواطف الأخلاقية ، وقلنا : إن هذه العواطف تنقسم الى قسمين : قسم يعقب الفضائل والخيرات ، وهو السرور والغبطة والاستراحة ، والآخر يلي وقوع الرذائل والشرور ، وهو وخز الضمير والألم والندم ، وهذه العواطف بقسميها درجات ، فكما أن فاعل الخير يشعر على أثر هذا الفعل بالرضى عن عمله ثم بالغبطة ثم بالسكينة التامة والسعادة الشاملة ، كذلك فاعل الشر يشعر على أثر جريمته بتقريع من الضمير دونه وخز الابر ، ثم يحس بالألم ثم بالندم الذي يقود الى التوبة والانابة .

ولما كان بعض الفلاسفة الفرنسيين يرى أن العواطف الأخلاقية سلسلة متصلة الحلقات فقد قال : أول مراتب الفوز برضى الله تأنيب السريرة . ولكن « كانت » لا يوافق على أن العواطف الأخلاقية تبتدئ بعد الفعل ، بل هو يؤكد أنها تبدأ على أثر الحكم بخيرية الشيء أو بشريته فيقول : « إن الشعور بالالتزام يصحبه حتما إحساس بالاحترام » . والذي حدا « كانت » الى هذا اليقين بسابقية العواطف الأخلاقية إنما هو إيمانه بكمال الحرية في داخل النفس البشرية .

ولا ريب أن هـذا رأى حكيم يسير مع المنطق الذى تخلف عنه « أفلاطون » حين زعم أن الانسان خيّر بفطرته ، وليس للشر فى نفسيته نصيب ، فأفقده بهـذا حريته وإرادته وجدارته بالاحترام ، لأن الشخص لا يعترف له بالانتصار إلا إذا خاض معمعان الحرب بالفعل وخرج منها فائزا على أعدائه الأشـداء ، وإلا لحمد الشخص على مالم يفعل ، وعـد منتصرا على غير عـدو . وإذاً فاول شرائط المسئولية الادبيـة هى الحـرية المطلقة ، والـكسب الاختيارى المستقل ، كما سنبين ذلك فى حينه .

المثل الأعلى :

يمتاز الانسان عن بقية أصناف الـكائنات الحية بميله الدائم الى الصعود والرق ، وبشغفه الذى لا يفتر ولا يكل الى الرفعة والعلو ، ومحاولة اللحوق بالمثل الأعلى . وهذا دليل آخر يسوقه « كانت » على وجود الروح فيقول : « إن انفراد الانسان بهذا الشغف يدل على أن فى داخل نفسه عنصرا ساميا حكم عليه مبدع الـكون بالسجن وقتا ما فى دائرة الجسم الضيقة ، ولـكنه أباح له حرية التغلب على هذا الـكائن الحيوانى لجعله يميل دائما إلى الرفعة التى لو انتهى الى آخر حلقة من حلقاتها ، لالتحق بأصله ، وهو العالم الأعلى . فميل الانسان إذا الى المثل الأعلى فطرى فى نفسه الناطقة لا يزال يصبو اليه حتى يلتحق به فى حياته ، أو ينقضى عمره وهو فى طريق السير اليه . غير أن هذا المثل الأعلى يختلف باختلاف الظروف والأحوال . فمثلك الأعلى بينك وبين نفسك هو أن تـكون خيراً ، وبينك وبين الناس أن تـكون غيريا مضحيا ، باحثا عن سعادة البيئة التى تعيش فيها ما استطعت الى ذلك سبيلا ، وبينك وبين ربك أن تعرف له حقه ، وتقدر عليك فضله ، وتذعن لأوامره ونواهيه ، لا رغبة فى جنة ، ولا رهبة من نار ، ولـكن لأن خالقك يحب أن تـكون كذلك .

وبهذه المناسبة نرى لزاما علينا أن نشير هنا الى مارمى به بعض أخلاقى الغربيين الاسلام من ظاهرة النفعية والتجارة فى أخلاقه . وقد استشهدوا على هذه التهمة بما يرد دائما فى القرآن من إحكام الصلة بين الفضيلة والجنة وما فيها من متع جسمية ولذات مادية ، وبين الرذيلة والنار وما فيها من عذاب وتنكيل ، وعلقوا على ذلك بقولهم : « إن دينا هذا شأنه من المادية لا يمكن أن يـكوّن نفوسا عالية تعمل الخير لذاته ، وتحب الفضيلة لأنها فضيلة وكفى لا لغاية أخرى تسعى وراءها » .

ولـكننا إذا أنعمنا النظر مليا فى هذه المشكلة ألفينا قول أولئك الفلاسفة مبنيا على أسس سوفسطائيـة ، إذ أنه حين نزل القرآن الـكريم على النبى صلى الله عليه وسـلم كانت الحياة الأخلاقية والاجتماعية عند العرب منحلة انحلالا لايمكن معه لأمة من الأمم أن تسير الى الأمام ،

فرأى البارىء جلت إرادته أنه من الحكمة أن يفسح فى الشريعة الاسلامية مكانا عظيما للاخلاق وتمجيد الفضائل ، والحط من شأن الرذيلة بكل الوسائل الممكنة ، واستعمل لذلك أحكم أساليب الترغيب والترهيب اللذين هما ضروريان للجماهير . وليست الأخلاق الاسلامية ، كما يزعم بعض أخلاقيي أوربا ، مؤسسة على التجارة والنفعية الموجودتين فى الجنة التى ألح عليها القرآن ووصفها كثيرا واتخذها وسيلة لنشر الفضيلة ، وإلا فماذا يقولون فى تلك الحكمة المحمدية العالية : « نعم العبد صهيب : لولم يخف الله لم يعصه » ، أو فى تلك الجملة المنسوبة الى الامام أبى حنيفة رضى الله عنه : « اللهم اشهد أنى لا أعبدك رهبة من نارك ولا رغبة فى جنتك ، وإنما حبا فى رضاك عنى ، وطمعا فى تقريبى الى نورك الأعلى » !

وإذاً فالأخلاق الاسلامية مؤسسة على رضا الله والقرب منه ، لأنها دينية قبل كل شيء ، ولكن الاسلام قد بدأ مهمته الأخلاقية بالتبشير للفضيلة العملية كما قدمنا ، لأن البيئة التى نشأ فيها هذا الدين لم تكن تحمل أكثر من ذلك النموذج الذى رسمه القرآن الكريم وسارت عليه السنة الغراء .

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

وصايا أمراء المؤمنين لرجالهم

قال معاوية بن أبى سفيان لمسلم بن زياد لما ولاه خراسان : إن أباك كفاك أخاه عظيما ، وقد استكفيتك صغيرا ، فلا تتكلن على عذر منى فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك ، فان الظن إذا أخاف منى فيك ، أخاف منك فىَّ وأنت فى أدنى حظك ، فاطلب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك فلا تريحنَّ نفسك

وكان الرشيد فى بعض غزواته فألح عليه الثلج ليلة ، فقال له بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين أما ترى ما نحن فيه من الجهد والنصب ، ووعثاء السفر ، والرعية قارة وادعة نائمة ؟

فقال له أمير المؤمنين الرشيد : « اسكت فللرعية المنام ، وعلينا القيام ، ولا بد للراعى من حراسة الرعية ، وتحمل الأذية » والى هذا أشار مادحه فقال :

غضبت لغضبتك الصوارم والقنا ... لما نهضت لنصرة الاسلام
ناموا الى كنف بعدلك واسع ... وسهرت تحرس غفلة النوام

هل أقام سيدنا عمر بن الخطاب

الحد على ولده فى الزنا ؟

نشرت بعض المجلات الاسلامية المصرية لبعض كتابها قصة مطولة تتلخص فى أن فتاة أقبلت على عمر رضى الله عنه بينما هو جالس فى المسجد والناس حوله ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ورحمة الله . فقالت : كنت مارة فى بعض الأيام بحائط بنى النجار إذ بولدك أبى شحمة يتمايل سكراً ، وكان قد شرب عند نسيكة اليهودى ، فراودنى عن نفسى ثم جذبنى بقوته ونال منى ما ينال الرجل من المرأة ، وقد أغمى علىّ فكتمت أمرى عن عمى وجيرانى حتى أحسست بالولادة ، فخرجت الى مكان كذا فوضعت هذا الغلام وهممت بقتله ، ثم ندمت على ذلك وأتيتك لتحكم بحكم الله بينى وبينه . وأن عمر رضى الله عنه أمر إذ ذاك مناديا أن ينادى فى الناس ، فأقبلوا الى المسجد يهرعون ثم أتى بابنه الى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وقال : صدقت المرأة . وأقر أبو شحمة بما قالت . ثم أمر بضربه فضرب سبعين وهو يستغيث ، ولما بلغ التسعين انقطع كلامه وضعف ، واستمر الضرب حتى إذا كان آخر سوط سقط ميتا ، فجعل عمر يهدر كالبعير ، ويقول : محص الله عنك الخطايا ! ثم جعل رأسه فى حجره وأخذ يبكى ويقول : بأبى من قتله الحق .. الخ

وهى بطولها قصة مكذوبة ساق حفاظ الاسلام متنها عن شيرويه الديلمى بسنده الى مجاهد عن ابن عباس ، وهم فى ذلك ما بين مطيل ومختصر ، وأبانوا وجه كذبها ووضعها .

ولا يبعد أن يكون الحامل على وضعها حب الثناء على عمر رضى الله عنه وعدله . ولو ثاب الواضع الى رشده ، وعقل سوء عمله لعلم أن الكذب على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرب من الكذب على رسول الله ، وذلك من أكبر الكبائر فى الدين ، وأفظع الخلال عند جميع المسلمين ، وأن عمر رضى الله عنه غنى بمنزلته وعلمه ، وورعه وأخلاقه وجلائل أعماله ، عن التحلى بهذه الأقوال المكذوبة .

والذى لفت نظرى الى كتابة هذا الرد على هذه القضية المزعومة ، قراءة بعض المنتسبين للمعرفة والفهم لها ، ووقوعها منه الموقع المقبول ، وحمله بعض أصحابه على قراءتها والتلذذ بها ، فقلت سبحان الله : إذا خدع بهذه القصة المكذوبة من ينتسب للعلم والمعرفة فغيره أجدر وأحرى ! لهذا بادرت بكتابة هذه الكلمة راجيا نشرها على صفحات مجلة الأزهر الغراء ، خدمة للحق، ووفاء بالعهد الذى أخذه الله تعالى على خدمة دينه — لَيُبيننّه للناس ولا يكتمونه — وصونا لجمهرة قراء مجلتكم الزاهرة أن ينتشر بينهم ما يخالف الحقيقة . والله المسئول أن يتولى هدانا أجمعين .

الرد :

قلت : إن حفاظ الاسلام ذكروا هذه القصة ما بين مختصر لها ومطول ، وأبانوا أنها قصة مكذوبة ، وقضية مزعومة ، لا ينبغى الاعتداد بها ولا يصح نشرها إلا لبيان حقيقتها . وإلى القارىء نص عباراتهم فى ذلك :

قال الحافظ ابن الجوزى ، ووافقه على ذلك الحافظ السيوطى فى لآليه بعد أن ساق هذا الحديث مطولا : حديث موضوع فيه مجاهيل ، قال الدارقطنى :حديث مجاهد عن ابن عباس فى حديث أبى شحمة ليس بصحيح ، وقد روى من طريق عبد القدوس بن الحجاج عن صفوان عن عمر ، وعبد القدوس كذاب يضع ، وصفوان بينه وبين عمر رجال ، والذى ورد فى هذا ما ذكره الزبير بن بكار وابن سعد فى الطبقات وغيرهما أن عبد الرحمن الأوسط من أولاد عمر ويكنى أبا شحمة كان بمصر غازيا فشرب ليلة نبيذا فخرج الى السكر فجاء الى عمرو بن العاص فقال : أقم علىّ الحد ، فامتنع . فقال له : إنى أخبر أبى إذا قدمت عليه . فضربه الحد فى داره ولم يخرجه . فكتب عمر يلومه ويقول : ألا فعلت به ما تفعل بجميع المسلمين ؟ ! فلما قدم على عمر ضربه ، واتفق أنه مرض فمات اهـ .

وقال الحافظ ابن حجر فى الاصابة ج ٤ ص ١٠٤ : أبو شحمة بن عمر بن الخطاب : جاء فى خبر واه أن أباه جلده فى الزنا فمات اهـ .

وقال فى ج ٣ ص ٧٢ : ذكر ابن عبد البر أبا شحمة فى ترجمة أخيه فقال : هو الذى ضربه عمرو بن العاص فى الخمر ثم حمله الى المدينة فضربه أبوه أدب الوالد ثم مرض فمات بعد شهر . كذا أخرجه معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، وأما أهل العراق فيقولون إنه مات تحت السياط ، وهو غلط اهـ .

وقال الحافظ ابن تيمية فى تفسير سورة النور : عاش عبد الرحمن بعد حد الشرب مدة ثم مرض ومات ، ولم يمت من ذلك الجلد ، ولا ضربه بعد الموت كما يزعمه الكذابون اهـ .

وقال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى تاريخ عمر بن الخطاب ص ٢٣٨ بعد أن ذكر قصة الشرب ولم يذكر قصة الزنا أصلا ، مانصه :

قلت : ولا ينبغى أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر ، وإنما شرب النبيذ متأولا وظن أن ما شرب منه لا يسكر ، فلما خرج به الأمر الى السكر طلب التطهير بالحد ، وقد كان يكفيه مجرد الندم على التفريط ، غير أنه غضب لله سبحانه على نفسه المفرطة فأسلمها الى إقامة الحد . وأما كون عمر أعاد الضرب عليه فليس ذلك حداً ، وإنما ضربه غضباً ، وتأديبا ، وإلا فالحد لا يكرر . وقد أخذ هذا الحديث قوم من القصاص فأبدوا فيه وأعادوا ، فتارة يجعلون هذا

الولد مضروبا على شرب الخمـر ، وتارة على الزنا (تأمل) ويذكرون كلاما مرققا يبكى العوام لا يجوز أن يصدر من مثل عمر . وقد ذكرت الحديث بطرقه فى كتاب الموضوعات ونزهت هذ الـكتاب عنه اهـ .

هـذا ما عثرنا عليه من نصوص حفاظ الاسلام أثبتناه هنا ، وفيه غنية وكفاية لمن أنصف وتدبر .

محمود ياسين
الرئيس الثانى لجمعية الهداية الاسلامية بدمشق

العظمة للنفس لا للجسم

نظر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب الى الأحنف بن قيس وهو فى وفد بين يديه وقد التف بعباءة ، فترك الخليفة الوفـد ووجه اليه الخطاب ، فأجابه بكلامه البليغ المصيب ، وذهب فيه مذهبه العجيب ، فلم يزل عنده فى الذروة العليا الى أن عقد له من الرياسة على تميم ما كان له ثابتا الى أن فارق الدنيا .

هذا الرجل الذى قيل فيه : إنه إن غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب ، كان كما قال عبد الملك بن عمير : أصلع الرأس ، متراكب الأسنان ، أشدق مائل الذقن ، ناتىء الجبهة ، جاحظ العينين ، خفيف العارضين ، أحنف ، ولـكنه كان إذا تكلم جـلى عن نفسه جميع العيوب .

خرج عثمان بن عفان وهو الخليفة الثالث من داره يوما ، فرأى عامر بن عبد قيس على بابه وقد ألقى رأسه بين ركبتيه ، وكان شيخا دميا ، فأنـكره وأنـكر مكانه ، فقال له زاريا به : يا أعرابى أين ربك ؟ قال : بالمرصاد . فيقال إن عثمان لم يفحمه أحد غيره .

وقال أبو عبيد البكرى فى لآلئه : وكان كُثَـيِّر كان لا يبلغ طوله ضروع الابل لقصره ، ولم يمنعه ذلك أن يلحق السماك الأعزل بجزيل شعره ، وجليل أدبه .

باب الأسئلة والفتاوى

فى الطلاق

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاستفتاء الآتى :

صدرت منى الألفاظ الآتية ، وهى : « علىّ الطلاق بالثلاثة لا اعاشر والدتى طول حياتى » مع العلم بأننى عاقد العقد فقط ، ولم أدخل بزوجتى إلى الآن .

فأرجو إفادتى : هل هذه اليمين يمكن ردها ، أولا يمكن ؟ واذا كان يمكن فبأية طريقة ؟

محمد صادق

الجواب :

اختلف الفقهاء فى مثل هذه المسألة . ومذهب الامام على وطاوس وشريح وداود وأصحابه عدم وقوع الطلاق ، ولو حصل المحلوف عليه . ووافقهم على ذلك كثيرون من فقهاء المذاهب . وقد صدر مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ باتباع هذا المذهب .

ومن المقرر شرعا أن ولى الامر إذا أمر بأمر فى غير معصية وجبت طاعته ، وتنفيذ أمره .

وعلى هذا لايقع الطلاق فى هذه الحادثة ولو عاشر الحالف والدته . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

الميراث فى الجاهلية والاسلام

وحال الناس منه الآن

نظام توريث المال بين الأقارب من النظم الاسلامية الهامة ، المؤسسة على خير الأسس الصالحة لكل الأزمان ، الموافقة لحاجات الجماعات والبيوت والشعوب ، لأنه تشريع الله الذى يعلم من أمر الخلق مالا يعلم الخلق من أمر أنفسهم ، فاذا كان قد ران على بعض القلوب جحود حجبها عن الحقيقة ، وحجبت الأبصار غشاوة حالت بينها وبين النور ، ووصلت الى العقائد أثارة من الالحاد والشك ، بعدت بها عن الرجوع الى حجز الايمان الثابت واليقين الصادق ، والطريق القويم ، مما أدى الى شيوع روح التمرد من بعض الذين يكمن فى طبائعهم التمرد والجموح على الدين ، والى ذيوع البحث فى هذه القاعدة الهامة من قواعد الدين الاسلامى بين كثير من المسلمين وغيرهم ، بحثا تعدوا فيه حدود الله ، وخرجوا على ما افترض ، وناقضوا ماوصى به — فانى أجلو الحقيقة فى نظام توريث المال فى الجاهلية والاسلام ، لعلى أحول بين هذه القلوب وبين الجحود والظلمة والشك والالحاد :

لقد كان أهل الجاهلية يتوارثون بشيئين : أحدهما النسب ، وثانيهما العهد ، أما توريثهم بالنسب فلم تكن تنتظمه المساواة الحقة بين الذكور والاناث والصغار ، فانهم ما كانوا يورثون الصغار ولا الاناث ، وإنما كانوا يقصرون الميراث على الرجال الذين يشنون الغارات، ويقودون المعارك ، ويظفرون بالغنائم والاسلاب . وأما العهد فمن ناحيتين : الحلف والتبنى . أما الأول فقد كان الرجل فى الجاهلية يقول لصاحبه : دمى دمك ، وهدمى هدمك ، وترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك . فاذا تعاهدا على هذا الوجه فايهما مات قبل صاحبه كان للحى ما اشترط من مال الميت . وأما التبنى فان الرجل منهم كان يتبنى ابن غيره فينسب اليه دون أبيه من النسب ، فاذا مات مدعى البنوة ورثه الابن المتبنى . والتبنى نوع من أنواع التعاهد .

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن الدعوة للاسلام بين الجاهليين لم يكن نظام الميراث بالشىء الذى يوضع له التشريع قبل تصحيح العقائد ، وإعداد النفوس ، فترك نظام التوريث على ما كانوا عليه فى الجاهلية . ورأى بعض العلماء أنه لا مانع من أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أقرهم على ذلك ، لقوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » ، ولقوله : « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » ، إذ المفهوم من الآية الأولى التوارث بالنسب ، ومن الثانية التوارث بالعهد .

وقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم للوراثة بين المسلمين الأولين نظاما وقتيا مبنيا على الهجرة والمؤاخاة .

فأما الهجرة فقد كان المهاجر يرث أخاه المهاجر ، على شريطة أن يكون كل منهما مختصا صاحبه بمزيد المخالطة والمخالصة . وأما المؤاخاة فقد كان المتآخيان اللذان يؤاخي بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم يرث أحدهما الآخر .

واستمر الحال على هذا المنوال في الميراث الى أن استشهد سعد بن الربيع رضي الله عنه وترك ابنتين وزوجا وأخا ، فأخذ الأخ المال كله . فجاءت زوجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت : يارسول الله هاتان ابنتا سعد ، وإن سعدا قد قتل ، وإن عمهما أخذ مالهما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ارجعي فلعل الله سيقضي فيه » . وبعد فترة من الزمن عادت باكية الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس » الى آخر آيات التوارث . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمهما وقال له : أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن ومابقي فهو لك . وهذا أول ميراث وقع في الاسلام . وقضى الله على التوارث بالتبني بقوله جل شأنه : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم » . وأبطل التوارث بالهجرة والمؤاخاة أيضا بقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا ، كان ذلك في الكتاب مسطورا » . بهذه الآيات بطل نظام التوارث في الجاهلية وصدر الاسلام ، وقام النظام الجديد مقامه ، وهو المعمول به بين المسلمين الى اليوم .

وصية الله ووجوب تنفيذها :

فنظام توريث المال بين الأقارب كما قلنا أعدل نظام وأحكم دستور ، لأنه من صنع خالق البشر ، والمسيطر على القوى والقدر ، والعليم بحاجات الأسر ، وما يتركز فيها من عناصر النفع والضرر ، ولذا فقد صدره الله بكلمة الوصية فقال جل شأنه : « يوصيكم الله في أولادكم » الآية ، وختم هذه الوصية بقوله : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » . وفي هذا بيان للناس أن التمرد على هذا النظام ، والخروج على قوانينه ، تمرد على المشترع الأعظم ، وخروج على وصيته التي داين بها الآباء نحو أبنائهم ، وفرضها على أولي الأرحام بعضهم نحو بعض .

الشاكون فى هذا النظام هم العادون :

ليس من شك فى أن الذى يعطل هذا القانون إنما يتعدى حدود الله التى حدها ، ويخرج على شريعته التى اشترعها ، سواء أكان أبا أو ابنا ، فالآباء الذين يحبسون أموالهم على أبنائهم الذكور ، والأبناء الذين يحملون آباءهم على حبس المال عليهم ، خارجون على وصية الله ، معطلون لأحكامه .

الاسلام أنصف المرأة فى الميراث :

يخطىء كثيرا أولئك الذين ينقمون من الاسلام حكمه بين الرجل والمرأة فى الميراث ، ولو تجردوا من تعصبهم وراموا الاقتناع والخضوع للحق ، لأيقنوا أن الاسلام أكرم المرأة بهذا التشريع وأغدق عليها من الفضل ما تستحقه ، يقول الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ، هذه القوامة التى للرجال على النساء إنما راعى فيها الشارع أصل الطبيعة البشرية ، فان الرجل أكمل من المرأة فى الصفات الخلقية والعقلية ، وأصلح منها للاضطلاع بالوظائف العامة ، وأقبل منها على البذل فى المشروعات الكبيرة والمرافق الهامة ، وأقدر منها على تجشم المشاق فى سبيل إسعاد أسرته وأمته . ونصيب المرأة من الميراث سبيله الادخار والجمع ، ونصيب الرجل موزع على زوجه وأولاده ، فالرجل مكاف بالمرأة وليست المرأة مكافئة بالرجل ، فاذا جعل الاسلام نصيبها على النصف منه فقد أكرمها وساعدها ، ورفق بها وأسعدها .

عدل الاسلام فى الميراث يتجلى فى حظره المفاضلة والمحاباة فيه ، كما يؤخذ من الأحاديث الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم :

١ — فعن النعمان بن بشير قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم » رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

٢ — وعن جابر قال : قالت امرأة بشير : انحل ابنى غلاما وأشهدلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن ابنة فلان سألتنى أن أنحل ابنها غلامى . فقال النبى : له إخوة ؟ قال نعم ، قال : فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال بشير : لا . قال : فليس يصلح هذا وإنى لا أشهد الا على حق » رواه أحمد ومسلم وأبو داود . ورواه أبو داود من حديث النعمان بن بشير ، قال فيه : « لا تشهدنى على جور ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم »

انقسم أولو الرأى فى النظر الى هذه الأحاديث وفهمها وتحرى وجه الحق فيها إلى قسمين : مجوزين للتفاضل ، ومانعين له ، أما المجوزون فقد سلكوا مسالك فى التأويل والتخريج سدها

المانعون عليهم بما أوضح الحق، وبين المعالم، وترجم عن الروح الحقيقى الذى قصد اليه الشارع، وقضى فيه بالنصر والظفر والسلامة من الضعف والتعصب .

طغيان المادة على العقيدة فى هذا العصر قد ولد حالة اجتماعية ينكرها الاسلام :

إن الذين تحرروا من قيود التعصب المذهبى أو الطائفى أو الجنسى من العلماء والباحثين، ليعتقدون عن حق لامرية فيه أن الترقيات المادية التى تمت فى هذا العهد الأخير قد زجت بالناس فى حالة من الشذوذ والانحراف، والخروج على العقائد ومقومات الأخلاق، تجعلهم عرضة للفوضى الطاغية، وقذفت بهم الى معامى من التزاحم والتناحر لا تنفق وشرف الانسانية، ولا المدنية الفاضلة، هذه الحالة الشاذة التى خلقها التنازع على المال قد عالجها الاسلام بنظامه المالى القيم، فجعل أمته متكافلة متعاونة فى الاستفادة والافادة من الثروة العامة، وسن للوراثة قسمة عادلة لا يستطيع المتمردون على الدين أن يجدوا فيها عوجا ولا حيفا .

على أن الاسلام لم يعتبر المال كل شىء فى الحياة، ولم يجعله الثمرة الشهية، والنتيجة الطيبة بعد هذه الحياة، بل إنه نظر اليه كقوام للحياة يدور به دولابها، ويتقدم به سيرها، وينال به ما فيها من متاع وعرض، وآمال ورغائب ومطالب، ولكن الاسلام جعل العقيدة والعمل الصالح الجواز الذى يوصل الى السعادة الحقيقية، والخلقَ الكريم العاملَ المهم فى الدنيا والآخرة . ولما كان مجال التوريث يمكن أن يتسرب منه شر مستطير، وضع الاسلام له نظاما محكما وحظر على أهله تعديه، فالذين يحبسون أموالهم على بعض أولادهم، والذين يستكتبون آباءهم فى الأيام الأخيرة لهم ليستأثروا بأموالهم، أو يزوروا عليهم وثائق، أو يطمعوا فى أخواتهم يمنعونهن النصيب الذى قدره الله لهن، إنما هم خارجون على وصية الله وحكم الله فى الأموال، مسيئون الى الانسانية، مقطعون أرحامها، عادون على قوانينها ونظمها، راجعون بها الى عهود البداءة والغارات، هادمون لدعائم المجتمع، لما يترتب على ذلك من حقد القلوب، وحنق الصدور، وتقطيع صلات المودة والقربى، وشيوع العداء بين الأسر والجماعات .

ولقد بين القرآن الكريم أن إيثار يعقوب عليه السلام ليوسف بالحب والحنان، قد دفع إخوة يوسف عليه السلام الى الجرأة على أبيهم وعقوقه حتى قالوا : « إن أبانا لفى ضلال مبين »، ودبروا القتل لأخيهم، فكيف بالتفضيل المادى فى أمة ملكها حب المال، وجعلت إلهها هواها، وأسرفت فى المتاع والشهوات ؟

وكذلك فان الدولة الاسلامية الأولى، وحياتها الاجتماعية، وما قام عليه الناس على عهدها من المثل العليا والسمو الروحى وما جبلت عليه نفوسهم، وامتلأت به قلوبهم من الانسانية الرشيدة المعرضة عن لذائذ الجسد، ومطامع النفس، وزخارف الدنيا، ووساوس الشيطان، كل ذلك

ليقوم دليلا على أن الأمة الاسلامية الأولى ، ورائدها كتاب الله وشرع رسوله ، لم تعبد المال كما يعبده أهل هذا العصر ، بل قصرت عبادتها على الله ، ولم تحكم بالمال كما يحكم به أهل هذا الجيل ، بل حكمت بكتاب الله ، ولم تشرع لأنفسها تبعا لهواها كما يشرع أهل هذا العهد لأنفسهم ، بل ارتضت وأذعنت وصدقت بشرع الله ، ولذلك مكن الله لها فى الأرض ، وسلمت لها كل عناصر الحياة وأسبابها ، وارتبطت كلها برباط واحد هو حب الله تعالى .

على أننا وقد أذن الله لمشيخة الاسلام أن يليها إمام مصلح صادق الايمان هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، نؤمل كثيرا أن يسترجع الاسلام سالف عهده ، ويصل الى سابق مجده ، ويكون الحكم بين الناس كتاب الله وسنة رسوله ، مما يكفل لأصول الدين الاسلامى التمكين والذيوع ، ولنظمه الاذعان والقبول والرضا ، ويقف من أوتوا المال عند قسمة الله له ، ونظامه فى توزيعه ، ووجوب التعديل بين أصحاب الحقوق فيه ؟

محمد مصطفى شادى

حد الجود والبخل

قال الحكماء : حد الجود أن يبذل الرجل ماله حيث يجب البذل ، ويحفظه حيث يمكن الحفظ . ومن بذل مكان الامساك فهو مبذر ، ومن أمسك مكان البذل فهو بخيل .

وقالوا : من الحزم أن تعلم أن مالك لا يسع الناس كلهم ، فتوخَّ به أهل الحق عليك ، وأن كرامتك لا تسع المقاين ، فاخصص بها أهل الفضل والمروءة ، ومن تمسه الحاجة اليك . والاعطاء بعد المنع ، أجمل من المنع بعد الإعطاء .

وقال صالح بن عبد القدوس :

لا تجد بالعطاء فى غير حق ... ليس فى منع غير ذى الحق بخل
إنما الجود أن تجود على من ... هو للبذل منك والجود أهل

وقال شاعر غيره :

لعمرك ما المعروف فى غير أهله ... وفى أهله إلا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذى كان عنده ... ومستودع ماعنده غير ضائع
ومالناس فى كفر الأيادى وشكرها ... الى أهلها إلا كبعض المزارع
فمزرعة أجدت فأضعف زرعها ... ومزرعة أكدت على كل زارع

مشاهداتنا فى الهند

دائرة المعارف بحيدراباد

لحضرة صاحب السمو العالى نظام حيدر اباد الدكن عناية عظمى وجهود موفقة فى ترقية شئون بلاده وإعلاء شأن أمته بين الأمم الهندية فى جميع مرافق الحياة : من عمرانية ، واقتصادية ، وثقافية ، وغيرها . وللناحية العلمية والدينية أكبر قسط من توجيه عنايته . وقد تجلى ذلك فيما أنشأه من الجامعة العثمانية الكبرى التى ضمت بين جنباتها الكليات المتعددة من طبية وهندسية ودينية وغيرها ، وقد أنشأ بها قسما للترجمة نقل الكثير من أمهات الكتب العلمية العظيمة النفع ، من انجليزية وفرنسية وفارسية وغيرها ، الى لغة البلاد اللغة الأوردية ، مراعاة للحكمة القائلة : إن تعليم العلم بلغة الأمة معناه نقل العلم الى الأمة ، وتعليمه بلغة أخرى معناه نقل الأمة الى العلم . وواضح أن الفائدة فى الطريقة الأولى أعم وأجدى ، بينما الثانية تعانى فيها الأمة من التخبط والتذبذب بين قديمها وبين ما يراد نقلها إليه صعوبات لا حد لها ، والفائدة مع ذلك تكون ضعيفة مقتصرة على فئة قليلة منها ، ولا سيما إذا كانت العلوم التى يراد بثها فى الأمة مقسمة بين لغات شتى ، حيث يتعذر نقل الأمة الى عدة أمم . لذلك كان لانشاء علم الترجمة بالجامعة العثمانية بحيدر اباد فائدة أى فائدة .

ومع عنايته بنقل العلوم الكونية الى لغة بلاده ، قد وجه اهتماما عظيما الى ترقية الشئون الدينية ، وأعطى علوم الدين أكبر قسط من التقدير . ولما رأى أن علوم الدين قد تركزت فى اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأن اللغة العربية مفتاح لكنوز عظيمة من التراث العلمى الذى خلفه الصدر الأول من الاسلام والقرون التى تليه ، اتجه اتجاها خاصا نحو إحياء اللغة العربية ، وشجع المشتغلين بها بكل أنواع التشجيع ، وأرسل الى مصر نخبة من نجباء الطلاب ، فدرسوا بالأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ، وعادوا الى بلادهم بعد إتمام دراستهم هنا ، يساهمون فى إحياء اللغة العربية والعلوم الدينية بحيدراباد .

ولقد شهدنا ونحن هناك أن انتشار اللغة العربية وفصاحة النطق بها بحيدراباد يفوقان ذلك فى الأقطار الهندية الأخرى .

ومن المآثر التى امتازت بها حيدراباد منشأة دائرة المعارف التى تقوم باحياء أمهات الكتب النافعة الجليلة فى الحديث والرجال وعلوم الأدب واللغة وغيرها ، تنقب عنها فى مختلف دور الكتب ، ومتى ظفرت بكتاب قيم أحضرت منه نسخة وعرضته على أعضائها يفحصونه ويدرسونه ، حتى إذا استقر الرأى على عظم نفعه وجدارته بالنشر ، جدوا فى البحث والاستقصاء

فى مكاتب الأقطار المختلفة حتى يعثروا على نسخة منه أو عدة نسخ ، ليحكموا أمرهم فى التصحيح والتحرى ، ويخرجوه على أصح ما يتسع له الامكان ، ثم طبعوه ووزعوه على الديار الاسلامية بأثمان لا تزيد كثيرا على تكاليف طبعه ، يبتغون بذلك توسعة أفق العلم الدينى والعربى . وسمو النظام من ورائهم يشد أزرهم ويعينهم بما يحتاجون إليه . فهى من هذه الناحية تشبه دار الكتب المصرية فى انتقائها الكتب الأدبية والدينية النافعة وطبعها ، تعميما للثقافة وتوسعة لدائرة العلم . ولقد شهدنا من عنايتها بكتب الحديث والرجال ما يستحق كل إعجاب .

ولرجال دائرة المعارف مكانة محترمة فى نظر سمو النظام وبين الدوائر العلمية فى الهند ، وفى العالم الاسلامى . ولهم ولع شديد بتنمية أواصر المودة بينهم وبين الهيئات العلمية فى معظم البلاد الاسلامية .

ولقد كان من أثر ذلك أنه عند ماوصل إليهم نبأ زيارة البعثة الأزهرية للهند أخذوا يراسلونها مستفسرين عن موعد زيارتها لحيدراباد ، ليرتبوا حفلات استقبالها ويعدوا برنامجه وما يلقى فيه من قصائد وخطب ترحيب ، وبخاصة شرح الجهود العلمية التى يقومون بها ، علما منهم أن هذا العمل الأخير هو أعظم مايحكم الصلة بينهم وبين البعثة الأزهرية . ولما وصلنا الى حيدراباد كان أول حفلة لاستقبالنا هى حفلة دارة المعارف تحت رياسة حضرة صاحب الدولة أكبر حيدرى رئيس وزرائها . وقد تفضل سمو النظام فأرسل نطقا ساميا تلاه باسمه حضرة صاحب المعالى وزير المعارف يشرح فيه عناية سموه بترقية الشئون العلمية ممثلا فى هذه الدائرة ، وكأن سموه حفظه الله أراد أن يبالغ فى تكريم البعثة فلم يجد أحب إليها من شرح عنايته العظمى بالعلوم الدينية ونشر أنوارها ، فاعتبرت البعثة ذلك من أعظم صنوف التكريم وأجلها مغزى .

ولقد وردت علينا نسخة من النطق السامى ، وتعريبه ننشره فيما يلى :

ترجمة البلاغ السلطانى :

الى جمعية دائرة المعارف والعلماء والمستشرقين لصاحب الجلالة سلطان العلوم مير عثمان على خان نظام الملك آصفجاه السابع ملك الدولة الآصفية ، خلد الله ملكه وسلطانه .

عرض على أعتابنا السنية أن نبعث بمناسبة الترحيب بالبعثة الأزهرية بكلمة نافعة يذكرها تاريخ العصر الحاضر بلسان الفخر :

علماء الأزهر يشاهدون دائرة المعارف إحدى المؤسسات العلمية القديمة فى مملكتنا ، ذاع صيتها العلمى والأدبى فى مشارق الأرض ومغاربها ، وشيدت مطبوعاتها النافعة وتحقيقاتها الجديدة بناء علميا لمملكتنا شاهقا .

فنقدرهذه الخدمات العلمية حق قدرها، و نبجل خزائن الكتب والعلماء والمستشرقين الذين أفادوا دائرة المعارف بنفائس مكنوناتهم، وندعو الله أن تفسح جمعية دائرة المعارف مجال أعمالها العلمية فى المستقبل، رامية الى مقاصد عالية وغايات سامية، وكذلك ننظر بعين الاستحسان الى سائر الادارات العلمية المؤسسة فى الهند والبلاد الأخرى لاحياء العلوم والفنون، لأن نشر العلوم والمعارف من أهم ما جعلناه نصب أعيننا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ألقاها صاحب المعالى وزير المعارف والسياسة النواب مهدى يارجنك بهادر بالنيابة عن جلالته فى مؤتمر الدائرة المنعقد فى ٢٤ من شهر ذى الحجة سنة ١٣٥٥ ﻫ الموافق ٨ مارس سنة ١٩٣٧ م احتفالا بالبعثة الأزهرية

ابراهيم الجبالى

عزة النفس مع الحاجة

قال محمد بن الحنفية (هو ابن على بن أبى طالب من غير فاطمة الزهراء) : « ما كرمت على عبد نفسه إلا هانت عليه الدنيا » .

نقول : هذه كلمة نابغة ، فان فى كثير من الأحوال قد لا يصل الانسان الى مرغوبه إلا بالتسامح فى كرامته ، والتذرع بالملق والنفاق وما اليهما . فاذا كانت نفسه كريمة أبت عليه أن يشترى أعراض الدنيا بتدنيس نفسه بهذه الصفات ، فيدعها راضيا بما هو فيه من الخمول وشظف العيش متمثلا بقول الشاعر :

الحر حر عزيز النفس حيث ثوى كالشمس فى أى برج ذات أنوار

وهذا البيت فى تصويره الواقع ، مكانه من الابداع مستوى الحكمة السابقة ، فقد شبه النفس الحافلة بالفضائل ، الثرية فى العلم ، بالشمس المشرقة ، فكما لا يضير الشمس أن تكون فى أى برج من السماء ، كذلك لا يضير الانسان عزيز النفس أن يكون فى أية طبقة من طبقات الهيئة الاجتماعية .

وقال شاعر وقد أجاد :

لا أستعين باخوانى على الزمن ولا أرى حسنا ما ليس بالحسن
ذل السؤال وذل الشكر ما اجتمعا إلا أضرا بماء الوجه والبدن
له الثراء ولى عرض أوفره عنه ويقنعنى قوت يبلغنى

المحاماة قديما وحديثا

أول من أحيا طرائقها من الأمم — تطورها فى الأمة اليونانية
نجاحها فى الجمهورية الرومانية — تقاليد وأخلاق — أثرها فى المجتمع الانسانى

مقدمة وتمهيد :

يقترن حق الدفاع عن النفس والغير بأول حلقة من حلقات هـذا الوجود للانسان . فالانسان مفطور على حب المخاصمة والمجادلة تطبيقا لقوله سبحانه عز من قائل : « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » . ولقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » .

كان الناس فى بدء الخليقة يتقاضون بأنفسهم مستعينين أحيانا بأصدقائهم وذوى قرباهم ، فكان الخصم يحاط بأهل وده وأقربائه ، ويترافعون عنه بالتعاقب تبعا لا تفاق القاضى معهم على الطريقة الواجبة الاتباع فى مثل هذا الدفاع .

ثم تطور الأمر تطورا بعثت عليه ملابسات كل جيل ودعت اليه مقتضيات كل عصر . فكان لليهود فى زمن موسى عليه السلام رجال يشتغلون بما يشبه حرفة المحاماة اليوم أمام القضاء . وأظهر ظاهرة فى عصرهم حل المشاكل التى كانت تقوم عليها الخصومات بين الناس وفض ما بينهم من منازعات . وكانوا فى عملهم هـذا لايتقاضون ممن يدافعون عنه أجرا لأن حكومة ذلك العصر كانت قد جعلت لهم جعالة يتقاضونها من بيت المال على اعتبار أنهم عنصر قوى فى السلطة القضائية . فقد كان القضاة ينتخبون من بينهم بعد أن يمضى على الواحد منهم زمن يكفى لتكوين أهلية قضائية فيه ، وقد وجد عند المصريين والهنود والكلدانيين والفرس وأهل بابل رجال من أهل العلم والذكاء يلجأ الناس اليهم فى المشورة القضائية ، فكانوا أعلام تلك البلاد ومنارها إذا عميت السبل على الناس .

كان فيهم الخطيب الذى يخلب الألباب بسحر بيانه ، وفيهم البليغ الذى يدخل كلامه على القلوب بلا استئذان . وقد ظل الحال كذلك فى تلك الأمم حتى اخترع الفنيقيون فن الكتابة لتكون أداة للتخاطب وسبيلا الى التفاهم .

فكان بدهيا أن يحجروا على أولئك الرجال من هـذا الصنف الرشيد أن يترافعوا فى الخصومات فى ساحة القضاء إلا بالكتابة . وعلة ذلك الحجر أنهم خشوا أن المترافع يختلب

ألباب القضاة بسلامة منطقه وقوة بيانه ، واتساق حجته وبرهانه ، وجهورية صوته واتزانه ، حتى أن البعض كان يذرف الدموع سخينة ويرسل الصوت متهدجا إذا عن له أن يأخذ على القاضى سبيل تفكيره ، إرادة أن يوجهه فى سبيله ، وأن يقيده بتلك المؤثرات التى قد لا يجد القاضى عنها مفرا ولا حولا . ولما كانت الكتابة قد لا تتهيأ أسبابها لكثير من الناس وكان فى البلاد عاميون وأنصاف عاميين وأنصاف الأنصاف ، أوجبت الضرورة الملحة أن كل من يجهل القراءة والكتابة يستعين بمن يجيدها ويحذقها . ثم انتقل هذا الفن بعد ذلك من المصريين الى اليونانيين ، فأزهر فيها كما أزهرت جميع فروع العلم ، فانه ما من دولة نبغ فيها العدد الكثير من الفلاسفة والحكماء المشترعين مثل الذين نبغوا فى دولة اليونان .

وقد بلغت الشرائع المسنونة لديهم مبلغاً حفز الجمهورية الرومانية فى ذلك العهد إلى أن تبعث من لدنها بعوثا إلى البلاد اليونانية لتقتبس منها هذه الأنظمة وتلك القوانين فى مختلف مرافق الحياة العامة ، لتستنير بأصولها وطرائق تفننها فى وضع قوانينها ، وكانت الفصاحة مهملة عند سواد الأمم ، فعنى بها اليونان وأضحت ذات أصول وقواعد ورواد فى مختلف أنحاء البلاد لا تنال إلا بالتلقى ، ولا تعرف حدودها ورسومها إلا بالمدارسة والعلم . وغدت لهم أساتذة برزوا فيها وبزوا قرناءهم فى الأمم الأخرى ، واتخذوا للخطابة منابر يرقون اليها ، ثم يتساجلون فيما بينهم الكلام والحجة ، ويتقارضون أبدع الأساليب وأملكها للقلوب وأفعلها بالنفوس . ودرج الخصوم على أن يستعينوا أمام محكمة تلك المدينة العظمى وسائر المحاكم المنبثة فى أنحاء البلاد ببعض مشاهير الخطباء ليؤدوا بهؤلاء حجتهم فى ادعائهم ودفاعهم .

وقد بدأ هؤلاء الخطباء المحامون فى ساحة التقاضى عملهم بالقاء الخطب بانفسهم أمام المحاكم ، وكان الغرض من ذلك أن يستولوا على مشاعر القضاة بعد أن يكونوا قد مهدوا لموضوع خصومتهم بتلك المقدمة الرائعة التى تمسك بمشاعر القاضى وتوجهه توجيها خاصاً . وأحياناً يقف القاضى عن إبداء رأيه إذا كان فى القضية خطيبان متماثلان فى القوة والدليل ، فهو يمسى حائراً بين طغيان موجتين متقابلتين يجد الباطل بينهما مدى فسيحاً وأملا رجيحاً . هكذا كان الخطباء الكبار من المحامين ، والأساتذة المشترعون (يتمستوكل وبركليس وأرستين) . كذلك كان أول من كتب مرافعة موكله ليتلوها ذلك الموكل بنفسه هو الأستاذ (أنطيفون) وتبعه فى ذلك الأستاذ ليزيلس وايزوكرات وديموستين ، وهذا لا ينفى أن يكون لهؤلاء أيضاً خطب بليغة جداً يلقونها بأنفسهم فى معرض الدفاع عن موكليهم ، وقد جمعوا بين فنى الخطابة والكتابة . وقد اشتهر الأخيران وهما الأستاذ (ايزوكرات وديموستين) شهرة مستفيضة . غير أنهما مع الأسف البالغ لم ينجوا من ملام للأمين على ما اقترفاه فى صميم مهنتهما ، فكثيراً ما حوكم (ايزوكرات) أمام المحاكم التأديبية فى اليونان على مخالفته لقوانين شرف المهنة . وكان اظهر تلك

المخالفات أن الحكومة عثرت على رسائل كتبها الى بعض موكليه يشير عليهم فيها أن يتخذوا وسائل غير شريفة فى الانتصار على خصومهم ، وأولى تلك الوسائل أخذ الخصوم غيلة ، فلما تتابعت عليه الأحداث وتكشفت للناس أساليبه الملتوية وكثرت حوله فى كسب القضايا ، امتنع عن مزاولة صناعة المحاماة ، وآثر أن يقبع فى بيته . وأما زميله الاستاذ (ديموستين) فانهم لاموه أشد الملام ، وانتصفوا منه للعدالة أبلغ انتصاف ، حين أخذوا عليه أن كتب دفاعين لخصمين فى قضية واحدة .

هذا وسنوالى لحضرات القراء ايراد شطر غير يسير عن تاريخ المحاماة وكرامتها وشرفها منذ القدم حتى الآن ، لنصل حلقة الماضى بحلقة الحاضر استتماما لأجزل الفوائد ، واستجماعا لأنبل الشوارد ، وخدمة للعدالة والمصلحة والقانون . فالى الغد القريب . « يتبع »

عباس طه

المحامى الشرعى

كسب المال و بذله

اوصى قيس بن معد يكرب بنيه فقال : يابنى عليكم بهذا المال فاطلبوه اجمل الطلب ، ثم أخرجوه فى أجمل مذهب ، فصلوا به الارحام ، واصطنعوا به الكرام ، واجعلوه جنة لاعراضكم ، ووسيلة تصلون بها الى أغراضكم ، تحسن فى الناس مقالتكم ، فان بذله تمام الشرف ، وثبات المروءة ، وإنه ليسود غير السيد ، ويقوى غير الأيد ، حتى يكون فى الناس نبيلا ، وفى القلوب مهيبا جليلا .

وقال محمود الوراق الشاعر :

تمتع بمالك قبل الممات ... وإلا فلا مال إن أنت متا
شقيت به ثم خلفته ... لغيرك ، سحقا وبعدا ومقتا
يجود عليك بزور البكاء ... وجدت له بالذى قد جمعتا
وأوهبته كل ما فى يديك ... وخلاك رهنا بما قد كسبتا

وقال أبو الطيب المتنبى :

وأحسن شىء فى الورى وجه محسن ... وأيمن كف فيهم كف منعم
وأشرفهم من كان أشرف همة ... وأعظم إقداما على كل معظم
لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها ... سرور محب أو إساءة مجرم

تقرير بعثة الهند

— ٧ —

المنبوذون

إذا لمس جسم رجل من هندوس الطبقات العليا، أو لمست ملابسه، جسم رجل من المنبوذين أو ملابسه، أصبح جسم الهندوسي نجساً وكذلك ملابسه، ووجب عليه أن يطهرها جميعاً، وأن يغتسل هو، بل يجب عليه في بعض الأحيان أن يذهب الى حمام معترف به، على شاطئ الكنج المقدس، فيغتسل رسمياً وفقاً للتقاليد.

ومن المنبوذين طبقة لايجوز الاقتراب منها، كما يجب عليهم أن يبتعدوا بأنفسهم عن هندوس الطبقات العليا مسافة محدودة (عشر ياردات أو أكثر) حتى لا تلوث أنفاسهم الهواء الذي تستنشقه الطبقات العليا، وحتى لا يلمس الهواء الملوث بملابس المنبوذين، ملابس الطبقات العليا فيلوثها؛ فاذا خرج منبوذ من هذه الطبقة عن هذه العادات، واقترب من هندوسي من الطبقات العليا، فانه يلوثه، ويعاقب المنبوذ على ما فعل عقاباً قد يكون صارما. ويوجد هذا الصنف من المنبوذين في جنوبي الهند غالباً. والواقع أن المنبوذين يكثرون في الجنوب، ويقلون نسبياً في الشمال، كما تختلف القسوة في المعاملة، فتزيد في الجنوب، وتتضاءل في الشمال.

لماذا احتمل المنبوذون هذا العسف؟

ظل المنبوذون يعانون هذا النوع من المعاملة المجحفة عصوراً لا تحصى؛ وقد كان من أثر مبادئ «مانو» أن سار هندوس الطبقات العليا وفق تعاليم دينهم، فعاملوا المنبوذين باحتقار، واعتبروهم أنجاساً، وتحاشوا الاتصال بهم وقد شاءت مبادئ مانو كذلك: ألا يتعلم المنبوذون، وأن يظلوا على جهالاتهم الأبدية، حتى لا تتطرق الى بيئتهم اليقظة التي تدعوهم الى النزوع لتحسين حالهم؛ كما فرض مانو مجموعة من العقوبات القاسية على كل منبوذ يحاول أن ينال قسطاً من التعليم؛ وتقضي مبادئه أيضاً بأن يصب الرصاص المصهور في أذني المنبوذ الذي يسمع — ولو عن غير قصد — نصوص «الفيدا» وهي تتلى.

يظهر من ذلك أن الفكرة كانت متجهة الى اعتبار «الفيدا» كتابا بلغ من قدسيته أن أصبح مجرد استماع المنبوذ لتلاوته إهانة للكتاب نفسه، لا يمحوها إلا صارم العقاب.

ولكن النية الحقيقية كانت تنطوى على أن يظل المنبوذون فى جهل مطبق وأمية لا مخرج منها . على أن الجاهل قد يستطيع فى وقت من الأوقات أن ينظم ثورة ، ولذلك كان من الضرورى أن تبتكر أساليب أخر لإخضاع المنبوذين ؛ فابتكر البراهمة مبدأ تناسخ الأرواح ، فدفعوا الناس بذلك الى الاعتقاد بأنهم ماولدوا أغنياء أو فقراء ينتمون الى بيئات عليا أو دنيا ، إلا جزاء وفاقا لما كانوا عليه فى الحياة التناسخية السابقة ، من خير أو شر ؛ وخير للرجل الذى يعيش اليوم — بدلا من أن يحسد صاحب مال أو جاه ، أو أن يحقد عليه — أن يتحمل المصاعب والامتهان بصبر وجلد ، وأن يحاول أن يعيش عيشة راضية ، قوامها الاستقامة والاستسلام ، عسى أن يولد مرة جديدة فى مستوى أحسن من مستواه الحالى .

وخلاصة القول أن المنبوذين قد قنعوا بحظهم من الحياة للأسباب الآتية :

١ — حالة الفقر المدقع الذى يعانون ويلاته ؛ والفقر أكبر عامل على العجز .

٢ — الجهالة اللانهائية التى يعيشون فى كنفها .

٣ — اعتقادهم بتناسخ الأرواح .

٤ — شعورهم بالخنوع ، وجنوحهم الى الاستسلام .

وقد ظل المنبوذون على هذه الحال ، الى أن دخل المسلمون الهند فاتحين .

المنبوذون فى خلال الحكم الاسلامى :

إن لاعتناق الدين الاسلامى ، وجهود المسلمين فى هذه السبيل بالتبليغ ، قصة قائمة بذاتها ؛ فمن المعتقد أن أول من أسلموا فى تلك البلاد كانوا معاصرين للنبى عليه الصلاة والسلام ؛ وتروى فى (مالابار) قصة قديمة جدا ، تذهب الى أن أحد ملوك الهند (راجا مالابار) قد شاهد معجزة شق القمر ، وأنه بدأ يتساءل عن سر تلك الظاهرة ؛ فقال له الفلكيون فى بلاطه : « إن شخصية عظيمة قد ظهرت فى جزيرة العرب ، وإنها قد أتت بالمعجزات » ؛ وقد أيد أقوال هؤلاء الفلكيين تجار من العرب ، كانوا يترددون على الشواطئ الجنوبية من الهند للتجارة . كما تذهب القصة الى أن الراجا أرسل بعض من يثق بهم الى بلاد العرب ليتحققوا صحة النبأ ، فذهب هؤلاء الى الجزيرة ومثلوا بين يدى النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم عادوا فقصوا على الراجا ما حدث ، فاعتنق دين الاسلام .

كما تذهب قصة أخرى الى أن بعض التابعين — رضوان الله عليهم أجمعين — وفدوا على (مالابار) فاسلم على يديهم جم غفير ؛ ومن هؤلاء التابعين مالك بن دينار ، وحبيب بن دينار .

وسواء أصحت قصة من هاتين القصتين أم لم تصح ، فما لاشك فيه أن المبلغين من المسلمين قد ظهر نشاطهم الاسلامى فى بلاد الهند منذ أقدم العصور ، وقبل أن يقوم المسلمون بفتح البلاد

بالسيف . وإن دخول الهنود فى دين الله أفواجا ، يعتبر من أقدم الأمور فى تلك البلاد . وكل مايمكن أن يقال إن سرعة دخول الناس فى ذلك الدين ، قد تفاوتت بين زمن وآخر ؛ ولكن مما لاشك فيه أنها لم تقف فى يوم من الأيام .

وقد قام بالدعاوة للاسلام على مر الأزمنة مشايخ الطرق ، والصوفيون . وفى مئات من الأمكنة المختلفة فى الهند ، لا تزال مقابر هؤلاء قائمة ، تشهد بما أبلوا فى سبيل الاسلام ، ولايزال الهنديون يحتفلون بموالدهم .

وقد كان دخول الناس فى دين الله فى بعض الامكنة ، بحيث إن قبائل بأكملها كانت هندوسية فاعتنقت الاسلام ؛ ولا نكاد نجد اليوم واحداً من رجال هذه القبائل على ديانة أجداده الأول من الهندوس .

أما القبائل الهندوسية الأخر ، فقد أسلم منها البعض ، وبقى البعض الآخر على ديانته القديمة . ولم تقتصر « عملية الاسلام » على طبقة من الهندوس دون طبقة أخرى ، بل عمت جميع الطبقات من البراهما الى السودرا .

وبمجرد أن أسلم هؤلاء ، وكانوا منبوذين فى الديانة الهندوسية ، ارتقوا الى مرتبة غيرهم من المسلمين على قدم المساواة ، بحيث لايستطيع اليوم أحد أن يميز بينهم وبين غيرهم ، بل إن كثيرا منهم يدعون اليوم أن أجدادهم جاءوا من بلاد العرب نازحين أو فاتحين ؛ ولا يتعرض مسلم كائنا من كان الى نقض هذه الدعوى .

وثمة أمر واحد لاشك فيه ، هو أن المسلمين لم يحاولوا قبل العصر الحديث ، أن يدخلوا المنبوذين خصيصا فى الاسلام ؛ ولو عنوا بذلك فى وقت من الأوقات ، لأسلم المنبوذون كافة منذ أجيال .

بعثات التبشير المسيحية :

وفد المبشرون المسيحيون على الهند ، قبل أن تتخذ الدول الاستعمارية أية خطوة فى سبيل الحصول على نفوذ سياسى ، ففى عصر الأمبراطور المغولى « جلال الدين أكبر » (١٥٥٦ — ١٦٠٥) ، تشرفت بعثة تبشيرية مسيحية بحضور حفلة البلاط . وقد اهتم الملك أكبر خان بالانجيل ، وأمر بترجمته الى الفارسية ، وتزوج زوجا مسيحية ، بنى لها كنيسة بالقرب من عاصمة ملكه فى أجرا ، ولا تزال الكنيسة قائمة الى الآن بالقرب من مقبرة الأمبراطور فى سكندرا .

حدث بعد ذلك أن وفد على الهند كثير من الأوربيين للتجارة ، واستوطنوا كثيراً من الأمكنة فيها ، فوجد المبشرون الفرصة سانحة ، وبدءوا يوطنون أنفسهم على الاقامة ، ثم مالبثت صوالح الأوربيين الاقتصادية أن تلاطمت ، فتحولت الى معارك سياسية ، فانهدمت سياسة

الهولنديين رأسا على عقب ، وانسحب البرتغاليون من الميدان ، ولم يفوزوا إلا بمستعمرة صغيرة على الساحل بالقرب من (جوا) . أما المعركة السياسية بين الانجليز والفرنسيين فقد ظلت قائمة زمنا طويلا ، استطاع البريطانيون فى نهايته إجلاء الفرنسيين بعد نزاع دموى طويل ، فقنعوا بعده مضطرين برقعة من الأرض على ساحل خليج بنغاله (بندشيرى) ، وبثغر صغير اسمه (ماهو) على ساحل (مالابار) فى الجنوب الغربى ؛ وبذلك آلت هذه البلاد الشاسعة الأطراف الى البريطانيين .

وبينما كانت الدول جادة فى إحراز النفوذ السياسى ، كان المبشرون يمكنون لأنفسهم فى مختلف بلاد الهند ، فأنشأوا المدارس والكليات والمستشفيات ، وبنوا الكنائس ، وأسسوا مراكز للتبشير ، وترجموا الانجيل الى معظم لغات الهند ، ووزعوا الملايين من نسخه ، فكانوا واسطة الثقافة لمئات الألوف من الوطنيين رجاء أن يحولوهم الى المسيحية ، وقد نجحوا فى اجتذاب قليل من الناس الى حظيرتهم ، وعلى الأخص من هندوس الطبقات العليا ، ولكن المنبوذين كانوا هم الهدف المقصود ، ولذلك ركز المبشرون جهودهم فى هذه الناحية . و يصح أن يقال : إن بعثات التبشير المسيحية قد جنت ثمرة طيبة فى كفاحها الطويل بين المنبوذين .

على أن كل ما يعنينا من ذلك هو أن إدخال أساليب المدنية الغربية على يد المبشرين قد أحدث يقظة عامة بين طبقات المنبوذين ، إذ أتيحت لهم الفرصة — لأول مرة فى التاريخ — أن يتلقوا تعليما وتثقيفا ، فوضع المبشرون بذلك ، الأساس الذى يستطيع المبلغ الاسلامى أن يشيد عليه ما يريد .

حكومة الهند وتعليم المنبوذين :

وبتأسيس الأمبراطورية البريطانية فى الهند ، انتشر التعليم الغربى ، إذ قامت الحكومة بانشاء المؤسسات العلمية فى شتى الأمكنة ، فكان نفعها أعم من نفع مدارس المبشرين . ولما أتيحت الفرصة للمنبوذين ، لدخول هذه المدارس والكليات ، ازداد تفتح أعينهم ، وبدءوا يشعرون بسوء حالهم فى الماضى ، وأنهم قد سلبوا حقوقهم الانسانية قهراً . وقد اقتنعوا بأن ما أصابهم على مر العصور والأجيال من المحن ، كان السبب فيه هندوس الطبقة العليا ، وأنهم لايزالون يرزحون تحت هذا العبء الثقيل ، ولذلك لم يقنعوا بحظهم من الحياة . وقد هدد كثير منهم — فى مناسبات شتى — بأن يهجروا الديانة الهندوسية ، ولكنهم كانوا يقنعون كلما استرضاهم الهندوس بأقل منحة .

دعاة إصلاح الحال بين الهندوس :

إزاء هذه الحال ، بدأ بعض الهندوس من رجال الطبقات العليا ، ممن تثقفت عقولهم تثقيفا

سياسياً ، يدركون الخطر الجاثم ؛ وهو أن المنبوذين قد يتركون حظيرتهم للارتماء فى أحضان المسيحية أو الاسلام ؛ وبذلك يضعف مركز البيئة الهندوسية من الناحية السياسية ، إذ ينقص عددهم بخروج المنبوذين من حظيرتهم .

لذلك قام هؤلاء بتمثيل « دور » المصلحين ، وبدءوا يعملون على رفع مستوى المنبوذين ؛ وقد بذل المستر « غاندى » جهودا عظيمة فى هذه السبيل ، لحمل المؤتمر الوطنى (كونجرس) على أن يجعل من بين مبادئه : إلغاء النبذ ، وجرد حملة كبيرة لهذه الدعاوة .

وكان من بين ما يعمل له هؤلاء المصلحون ، أن يحصلوا للمنبوذين على حق دخول المعابد ، وقد اتخذت فى هذه السبيل الخطوات الآتية :

١ — قدم للمجلس التشريعى فى دلهى مشروع قانون ، لو وافق عليه المجلس لأصبح منع المنبوذين من دخول المعابد جريمة يعاقب عليها القانون ؛ وقد قام الهندوس من الطبقات العليا ، فأحدثوا ضجة كبيرة ضد هـذا المشروع ، اضطر معها مقدمه الى سحبه من المجلس ، وبهذا فشل المشروع .

٢ — جرد المنبوذون حملة تلو أخرى لاقتحام معبد « راما » فى بلدة « نازك » بإقليم « بومباى » ، ولـكن أقفلت أبواب المعبد فى وجوههم ، وكان البوليس يحمل على المنبوذين ويقصيهم عن أبواب المعبد ، ولما استمرت حملات المنبوذين أشهراً دون جدوى ، عدل عنها ، ثم قامت حملة أخرى من نوعها لاقتحام معبد « فاى كام » بإقليم « ترافنكور » ، وكانت النتيجة أن ضرب المنبوذون وطردوا بعيداً عن أبواب المعبد .

٣ — قام المؤتمر الوطنى بدعاوة واسعة النطاق ، لحل مشكلة المنبوذين والمعابد ، ولـكن بغير جدوى أيضا .

مؤتمر المائدة المستديرة :

حدث فى خلال الحرب الـكبرى ، أن أدركت الحـكومة البريطانية احتمال قيام صعوبات فى الهند بشأن التجنيد وجمع المال ، إذ أن بعض زعماء المؤتمر الوطنى هددوا برفض مساعدة انجلـترا جزاء عـدم اهتمامها بمطالبهم الخـاصة بالحـكم الذاتي ؛ ففى سنة ١٩١٧ أعلن المستر مونتاجيو — وكان وزير الهند فى الحـكومة البريطانية إذ ذاك — أن الهند ستمنح نظام حكومة ذاتية مسئولة ؛ ووفاء بذلك العهد ، منحت الهند فى سنة ١٩١٩ بعض امتيازات دستورية ، كما وعدت بأن تمنح امتيازات أخر بعـد عشر سنوات ؛ وطلب الى الهند أن ترسل الى لندن مندوبين يمثلون كافة الطبقات والبيئات ، لعقد مؤتمر المائدة المستديرة ، لبحث ما يمكن أن يمنح لبـلادهم من الحقوق السياسية بعـد ذلك ؛ وقد وقع اختيار حكومة الهند على نائبين

من طبقات المنبوذين ، كان أحدهما « الدكتور أمبدكار » المحامى فى بومباى ، وحضر « المستر غاندى » المؤتمر نائبا وحيدا ومفوضا عن المؤتمر الوطنى ؛ وقدطلب ممثلو الأقليات أن يحتفظ لكل من البيئات بعدد خاص من المقاعد فى المجالس النيابية ، وأن تجرى الانتخابات على أساس طائفى .

وقد عارض « المستر غاندى » فى كل من الفكرتين ، وكانت كل آماله ألا ينفصل المنبوذون عن بقية الهندوس ، وأن تبقى حقوق الجميع مشتركة ؛ وقد طال الجدل والنقاش لحل هذه المعضلة ، وأخيرا اتفق الزعماء على تحكيم « المستر رمزى مكدونالد » رئيس الوزارة البريطانية إذ ذاك ، فكانت نتيجة هذا التحكيم : أن قرر المستر مكدونالد نظام التمثيل الطائفى ، وحدد عدد المقاعد التى تعطى لكل طائفة ، كما قرر مبدأ الانتخاب الطائفى ؛ فغضب جمهور الهندوس لهذا القرار ، واعتزم « المستر غاندى » أن يصوم حتى الموت ، إذا لم يلغ قرار التفرقة بين المنبوذين وبقية الهندوس ، لأنه اعتبر قرار المستر مكدونالد منطويا على شطر الطائفة الهندوسية شطرين .

ولما بدأ غاندى فى تنفيذ قراره بالصيام فى (بونا) ، هرع زعماء الهندوس من كافة أنحاء الهند إليها ، وجمعوا زعماء المنبوذين ـ ومنهم الدكتور أمبدكار ـ وتوسلوا إليه بكافة الوسائل أن يوافقوا على إدخال تعديل على قرار مستر مكدونالد ، الذى عرف باسم « المنحة الطائفية » ؛ وأخيرا وصل الجميع الى مايسمى « عهد بونا » ؛ وهو القائل بأن يزاد عدد مقاعد المنبوذين فى المجلس زيادة طفيفة ، فى مقابل أن تكون انتخاباتهم فى بعض الأمكنة مستقلة بهم ، وفى البعض الآخر مشتركة بينهم وبين الهندوس ؛ وعندئذ أقلع غاندى عن صيامه ، ونجا من الموت . على أن الهندوس مايزالون غير قانعين ، وهم الى اليوم حاقدون على المنحة الطائفية .

جمعية خدام المنبوذين العامة :

سبق القول بأن مستر غاندى بذل جهدا عظيما للقضاء على النبذ فى الهند ، محاولا تحسين حال المنبوذين . ويجدر بنا أن نذكر : أنه قام بسياحة جمع فى خلالها نحوا من ٢٥ لاك روبية (١٩٠ ألف جنيه تقريبا) لتحسين حال المنبوذين . وقد أنشأ إذ ذاك « جمعية خدام المنبوذين العامة » ، كما أنشأ لها فروعا فى معظم مدن الهند الهامة . ومن برنامج هذه الجمعية : إنشاء مدارس مجانية لتعليم أبناء المنبوذين القراءة والكتابة ، ومبادئ الحساب ، وبعض الصناعات ، وكذلك إنشاء مستعمرات « محلات » يتعودون فيها المعيشة النظيفة .

ومن مبادئ هذه الجمعية أيضا : مساعدة الكبار من المنبوذين على كسب قوتهم ، ومساعدة شبانهم الذين يتلقون العلم فى المدارس والكليات .

وقد شجع مستر غاندى بعض أصدقائه الأغنياء على إنشاء المصانع بارشاده ، لتشغيل

المنبوذين العاطلين ؛ ومعظم هذه المصانع من النوع الذى لا يحتاج الى رأس مال كبير ، عند ما يفكر الصانع فى الاستقلال بالعمل . وقد زرنا بعضا منها فى (واردا) ، فشاهدنا صناعة الورق والغزل والنسيج .

مؤتمر بولا :

وإذا كان المنبوذون قد نالوا حقوقاً تشريعية — أشرنا إليها سابقا — فإن حالهم الاجتماعية والاقتصادية ظلت على ما كانت عليه من سوء ؛ ولا يكاد يمضى يوم حتى يحدث ما يذكرهم بشديد الاحتقار الذى يكنه لهم الهندوس .

فن أمثال ذلك ما حدث فى سنة ١٩٣٥ ، إذ انتخب الدكتور أمبدكار — وهو من كبار المحامين ، ومن خيرة المثقفين — عميداً لكلية الحقوق فى بومباى ، فثارت ثائرة الهندوس ، لا لشىء إلا لأنه منبوذ ؛ وليس هذا إلا مثلا واحداً من آلاف مما يحدث فى كل يوم ، وفى كل مكان ، مما يطول بنا ذكره .

عندئذ أدرك المنبوذون أن موقفهم يتلخص فيما يلى :

١ — حاولوا لدى الهندوس ، أن يعاملوهم كآدميين ، ولكن بغير طائل .

٢ — طالبوا الحكومة مرة تلو مرة بتحسين حالهم ، ولكنها لم تكن لتتدخل فى مسائلهم ، إذ اعتبرتها مسألة دينية .

٣ — حاول المؤتمر الوطنى الهندى ، بكل الوسائل الممكنة ، أن يقضى على النبذ فلم يستطع .

٤ — أخفق الزعماء المصلحون من الهندوس ، فيما أخفق فيه المؤتمر .

٥ — حاول المنبوذون أن يصلوا بالطريق الإيجابية الى دخول المعابد ، فاستهدفوا لأفظع أنواع الإهانات ، ومع ذلك لم ينجحوا .

عندئذ دفعهم الفشل فى كل هذه الوسائل ، الى الجزم بأنه لا بد من عمل يقوم به المنبوذون ، لإنقاذ أنفسهم من هذه الحال المعيبة ، ففكروا فى تغيير ديانتهم .

ففى اكتوبر سنة ١٩٣٥ عقد مؤتمر المنبوذين فى مكان يسمى «يولا» بالقرب من «نازك» فى إقليم « بومباى » حضره عشرة آلاف منهم ، وتولى رياسته الدكتور أمبيدكار ، وألقى خطابا شاملا ، طلب فيه الى الحاضرين أن يتبعوا الطريق الوحدة لعلاج مرض «النبذ» المزمن ، ألا وهى ترك الديانة الهندوسية بتاتاً ؛ وقد وافقه على ذلك الحاضرون بالإجماع .

فلما أن نشرت الجرائد السيارة هذا القرار ، اضطرب له الهندوس أيما اضطراب ، وانهالت

الرسائل من كافة الزعماء ، يطلبون الى الدكتور أمبيدكار التانى فى غير غضب ولا عجلة ، إذ أن حال المنبوذين ستتحسن قريباً جداً . أما بقية طبقاتهم فقد توالت الاجتماعات بينهم فى كافة أنحاء الهند ، وأخذ من الحاضرين تأييد إجماعى لرأى الدكتور أمبيدكار .

وقد كان من شأن هذا القرار ، أن بعث النشاط فى نفوس زعماء الديانات الأخر ؛ فأرسل بعض الزعماء المسلمين الى الدكتور أمبيدكار ، يدعونه الى اعتناق الاسلام ، ويطلبون إليه أن ينصح لكافة المنبوذين بأن يحذوا حذوه ، وقد اجتمع بعض زعماء المسلمين به شخصيا لهذا الغرض ، كما حاول المسيحيون أن يؤثروا فيه لصالح ديانتهم ، فى حين حاول جماعة « السيخ » ان يضموه الى حظيرتهم .

وفى ديسمبر سنة ١٩٣٥ دعا مهراجا باتيالا (وهو من أتباع ديانة السيخ) الدكتور أمبيدكار للقدوم عليه ، والنزول فى ضيافته ؛ وهناك اتصل بزعماء السيخ ، ودخلوا معه فى مفاوضات ؛ فاتفق على أن ترسل بعثة من مبشرى السيخ الى أقاليم المنبوذين للعمل بينهم ، واكتتب السيخ بمبلغ ٣ لاك روبية (٢٢٥٠٠ جنيه تقريباً) ، وأرسلت بعثاتهم التبشيرية الى الولايات الوسطى والهند الجنوبية . وفى ابريل سنة ١٩٣٦ تضخم رصيد السيخ لتحويل المنبوذين الى دينهم ، حتى صار ٧ لاك روبية (أى ٥٠٠ ٥٢ جنيه تقريباً) . وقد اتصل بنا — بعد عودتنا الى مصر — أن نشاطهم بدا واضحاً فى إقليم ناجبور ، فى شهر ابريل الماضى .

الحركة فى جنوبى الهند :

يطلق اسم « كيرالا » على رقعة من الأرض فى جنوبى الهند ، تشمل « مالابار » و « كوشين » و « ترافنكور » ؛ ومعنى « كيرالا » : أرض جوز الهند . وفى هذه البلاد جالية من المنبوذين تسمى (إزهافا Ezhavise) يقال إنهم يبلغون ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ نسمة ، ومنذ اثنتى عشرة سنة أعلن زعيم هذه الطائفة أن طائفته اعتزمت تغيير دينها لتنجو من النبذ ، فعقدت لهم مؤتمرات ، ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة ؛ ومنذ خمس سنوات قام فيهم زعيم جديد ينادى بتغيير دينهم للدخول فى دين الإسلام ، ولكن سرعان ما أخفت صوته .

فلما ارتفع صوت الدكتور أمبيدكار ينادي بتغيير الدين ، وأصبحت الحركة عامة فى بيئات المتعلمين من المنبوذين — فى كثير من أنحاء الهند — نشطت قبائل الجنوب التى ذكرناها ، فعقدت فى فبراير سنة ١٩٣٦ مؤتمراً من منبوذى « ترافنكور » ، قرر ترك الديانة الهندوسية ؛ وقد أيد هذا القرار بآخر أصدره مؤتمر جديد فى مايو سنة ١٩٣٦ . وفى هذا المؤتمر الأخير خطب عظيمان من مسلمى البنجاب : أحدهما الأستاذ « خالد لطيف جابا » وقد كان لخطابه أثر عظيم . وقد طاف بأنحاء ترافنكور ، يصحبه الدكتور طايل Dr Thail

زعيم المنبوذين هناك ، فخطب فى كثير من الأمكنة ، وهيأ جوا مناسبا للاسلام . وكان الدكتور طايل نفسه مبشراً بالاسلام ، فأعطى الأستاذ بيانا لينشره فى صحف الأقاليم الشمالية ، فلما أن نشرت الصحف هذا البيان ، وقرأه المهتمون بشئون الاسلام فى الهند ، تقدم الأستاذ غلام بهيج نيرانج ، فكتب الى الدكتور طايل ، ثم ذهب الى الجنوب برفقة بعض ذوى المكانة من المسلمين (وكان ذلك فى أواخر يوليه سنة ١٩٣٦) وهناك قابل الدكتور طايل وقضى معه أياما عدة ، كان لها من الأثر أن صمم على إعلان إسلامه ، وتم ذلك فعلا فى ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ . وقد أسلم اثنان وثلاثون من منبوذى الجنوب ، بعد إسلام الدكتور طايل الذى سمى نفسه « كمال باشا طايل » ؛ وبعد إسلامه طاف مع الأستاذ « نيرانج » بكوشين ومالابار طوافاً خلق جواً مناسبا للاسلام . ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يدخلون فى دين الله بين آن وآخر . ولا تزال جمعية « أنجومان تبليغ الاسلام » بأمبالا ، جادة فى تنظيم أعمال التبليغ فى الجنوب .

راجا ترافنكور يأمر بدخول المنبوذين فى المعابد :

راع الهندوس فى هذه الامارة انتشار الاسلام بها حديثاً ، فحدث فى ديسمبر الماضى — بينما كانت البعثة فى طريقها الى الهند — أن أعلن الراجا ، وهو هندوسى ، جواز دخول المنبوذين فى المعابد التى تديرها الحكومة (تاركا المعابد التى تديرها أشخاص أو هيئات) .

وقد امتدح زعماء الهندوس — ذوو الخبرة السياسية فى كافة أنحاء الهند — ذلك التصرف وطلبوا الى الحكام الهندوس ، فى غير هذه الامارة ، أن يقتدوا براجا ترافنكور ، ولكن الهندوس المتعصبين رفعوا الصوت عاليا بالاحتجاج على ما جرى ، ولا تزال المشكلة متفاقة ، ولكن يبدو لنا أن هذه الحركة التى قصد بها الى مصالحة المنبوذين والهندوس قد كتب لها الفشل ، وسيحكم الزمن وحده فيما إذا كانت أبواب المعابد ستفتح على مصراعيها أم لا ، وفيما إذا كان مجرد حق دخول المعابد سيقنع المنبوذين ويثنيهم عن ترك الديانة الهندوسية أم لا .

الدكتور أمبدكار :

لقد اشتهر الدكتور أمبدكار بأنه أول زعيم ذى مكانة بين المنبوذين ، استطاع أن يعلن أن لامندوحة لهم من ترك الديانة الهندوسية واختيار دين آخر يكفل لهم الحرية والاخاء والمساواة ، وقد ذاع صيته ـ بهذه المناسبة ـ حتى تجاوز حدود الهند الى مصر وأوربا وأمريكا ، وحتى لقد أصدرت مجلة تبشيرية شهرية عدداً خاصا ، على غلافه صورة للدكتور أمبدكار ، ولقبته « لنكولن الهند » أى محرر الهند ؛ واشتمل هذا العدد على ترجمة لحياته ، وتفنن بمدحه ، بأسلوب بارع .

على أننا قد سمعنا الكثير على الدكتور أمبدكار ، فقال قائلون : إنه يتلاعب بصوالح المنبوذين فيساوم عليها بين أصحاب الديانات المختلفة ، ولا يصرح تصريحا حاسما بالدين الذى اختاره لهم ، بل يسلك فى ذلك سلوك الوسطاء المحترفين .

ومن الشواهد التى رويت لنا على ذلك : أنه عند ما ذهب فى سياحته الى الجنوب لعقد مؤتمر للمنبوذين ، أضافه وجماعته موظف مسلم كبير ، ثم ذهب به فى سيارته الى مقر المؤتمر ، وهو يعلم أنه سيعلن إسلامه فيه ، فاذا بامبدكار يفاجئه بالاعتذار من إعلان اختياره دين الاسلام ، ويعلل ذلك بأنه يخشى إفلات المنبوذين من يده ، إذا بادرهم بهذا الاعلان قبل أن تنضج الفكرة عندهم .

وحدث أن ذهب الدكتور أمبدكار الى المؤتمر العام لمبشرى السيخ ، حيث رفعوا من شأنه ، وتوطدت علاقته بهم ، وخطب فى مؤتمرهم ، فقال عن ديانتهم : إنها ديانة لا طباقات فيها ؛ عندئذ كتب إليه نيرانج خطابا ألحق به بعض مقطوعات من الجرائد مما كتبه السيخ ، مثبتا أن ديانتهم لم تنج من نظام الطبقات ، شأنها فى ذلك شان الديانة الهندوسية سواء بسواء .

وزاد الأستاذ نيرانج على ذلك ، فدلل للدكتور أمبدكار على أن السيخ أنفسهم ليسوا إلا هندوسا ، وأن نظام النبذ منتشر بينهم ؛ ولكنه لم يحظ برد على خطابه .

وقد قرر لنا الأستاذ نيرانج أن الدكتور أمبدكار عقد عهدا سريا مع زعيم هندوسى ، هو الدكتور منجى ، على ألا يتحول المنبوذون إلا الى ديانة السيخ ، إذا أصر الهندوس على حرمانهم من الحقوق السياسية التى نالوها بالمنحة الطائفية .

وقد اعترض المستر غاندى وغيره من زعماء الهندوس على هذه الاتفاقية ، فى حين قام زعيم من المنبوذين هو « م . ك . راجا » فنشر على الملأ المكاتبات السرية الخاصة بهذا الموضوع ، وهنا انكشفت سياسة الدكتور أمبدكار ، ويقال إن شانه قد قل فى نظر الجمهور وخاصة المنبوذين . هذا وإن نشاطه قد تضاءل فى الأيام الأخيرة ، ويعلل بعضهم ذلك بالحرب الانتخابية التى أخذت على الجميع نشاطهم فى إبانها .

الحركة الانتخابية وأثرها :

لقد أثرت المعركة الانتخابية فى الحركة أيما تأثير ، ونلخص ذلك فيما يلى :

١ — رشح كثير من زعماء المنبوذين أنفسهم للانتخابات الاقليمية ، ولذلك وجب عليهم أن يقفوا أوقاتهم وجهودهم ، ونشاطهم لها .

٢ — صعوبة قانون الانتخاب الخاص بممثلى الطبقات المنبوذة ، ذلك بأن المنبوذين وحدهم يرشحون عدداً منهم عن الدائرة الواحدة (٤ أو ٥) ، وبعد ذلك تدور الانتخابات العامة لانتخاب واحد فقط من هؤلاء ، وفى هذه الانتخابات يحق للهندوس ، بمقدار ما يحق

للمنبوذين ، أن يعطوا أصواتهم . ونتيجة ذلك أن المرشح المنبوذ — إذا لم يفز بالتزكية — يظل محتاجا الى تاييد الهندوس ، وهم لن ينتخبوا مرشحا يعلمون عنه أنه من أنصار الخروج على الديانة الهندوسية ، لهذه الأسباب تقاعس كثير من زعماء المنبوذين عن حركة تغيير الدين ، ولا يساهم فيها الآن إلا من لا تهمهم عضوية البرلمان . وعلى ذلك يمكن أن يقال إن المعركة الانتخابية قد أضرت — ولو الى حين — بالحركة التى يرمى بها المنبوذون الى تغيير دينهم .

على أن معركة الانتخابات قد أسفرت عن نجاح كثير من زعماء المنبوذين الذين كانوا فى نشاط جم فى حركة تغيير الدين ، كما أسفرت عن فشل البعض الآخر .

ولما كانت مدة النيابة خمس سنوات ، وكانت الكراسى البرلمانية موزعة توزيعا طائفيا ، فان أولئك الذين نجحوا ، يحتمل كثيراً أن ينصرفوا عن حركة تغيير الدين ، لئلا تسقط عنهم عضوية البرلمان التى يعلقون عليها أهمية كبرى .

أما أولئك الذين لم ينجحوا فى الانتخابات ، فقد كتب عليهم — وفقا لتقاليد بلادهم — أن يندفعوا فى حركة تغيير الدين ، إذ خلا لهم الميدان بخروج منافسين لهم الى دوائر البرلمان ، وبذلك كسبت الحركة وخسرت فى وقت واحد !

(يتبع)

الى حضرات المشتركين

بمناسبة انتهاء السنة الثامنة للمجلة ترجو إدارة المجلة حضرات المشتركين معاونتها على ضبط حساباتها بأداء بدلات اشتراكهم الى حضرات وكلائها ، وتأمل أن يجد وكلاؤها منهم مثل ما وجدوه فى السنين الماضية من عناية ووفاء .

وقد نشرنا أسماء حضرات الوكلاء فى الصفحة الثالثة من الغلاف .

كتب قيمة

فؤاد الأول :

وضع حضرات الأساتذة الأجلاء: عبد العزيز الأزهري افندي، وعلى عبدالله سرحان افندي، ومحمد مجاهد افندي ، تاريخا مطولا للملك مصر العظيم فؤاد الأول يقع في نحو ٤٥٠ صفحة ، وإنه لعمل عظيم القيمة ، فان من يعلم أن جميع ما حصلته مصر من النظم الدستورية ، وكل ما دخلت فيه من التطورات السياسية ، تم في عهد هذا العاهل الكبير ، يدرك أن الكتاب الحاوى لتاريخه يشتمل على تاريخ جميع هـذه التطورات الاجتماعية . ومما زاد هـذا التاريخ قيمة أن حضرات واضعيه لم يضنوا بالتوسع في إيراد تواريخ هذه الشئون الهامة . فجاء كتابهم تاريخا حيا لوطنهم ، في عهد يعتبر بعثا حقيقيا لمصر الحرة المستقلة .

أعدل الموازين في تبيان حقوق الوارثين :

إن مسالة الوراثة من المسائل التي تهم الناس كافة ، ويهم أكثر الناس أن يكونوا على علم بها لما تتصل بحياة أسرهم اتصالا وثيقا ، وأنى لهم هذا العلم إذا راموا استمداده من الكتب الفقهية ، فتجدهم يضطرون أن يسألوا أهل العلم عنها ، وقد يتفق أنهم لا يصادفون بها خبيرا . فانتدب فضيلتا الاستاذين الجليلين الشيخ محمد حسين النجار والشيخ أبو زيد شلبي المدرسين بمعهد أسيوط الديني بسد هـذه الحاجة العلمية ، فوضعا فيها رسالة في نحو ٢٨ صفحة جملا فيها القواعد الفقهية الواردة في الوراثة في أطر ، والتطبيقات خارجها، فجاءت رسالة حاوية لجميع حالات الوراثة يجد حاجته منها كل مستطلع بدون تكلف . ولو عمد العلماء الى كل مسائل الفقه فوضعوا لها أمثال هذه الجداول ، لأصبح العلم على طرف الثمام من طالبيه . فرحى لهذين العالمين العاملين مرحى !

السمير الواعظ — علم . أدب . أخلاق . تاريخ . وعظ . اجتماع . قصص

هذا كتاب يقع في ٢٨٥ صفحة لفضيلة الأستاذ النابه الشيخ محمد محمد يوسف إمام مسجد الريدانية دقهلية . كتب في مقدمته ما يأتي :

« وبعد فإني أتقدم الى القارئ الكريم بذلك السفر الجامع لشتات ما تفرق في بطون الكتب ، والذى سيرى منه موردا عذبا ، وأنيسا له في وحدته ، وسميرا واعظا في غفلته ، ورفيقا مواسيا في غربته .

« بذلت في عمله زهرة الشباب ، وجمعت فيه ما لذ وطاب ، وسهرت فيه طوال الليالى ،

وراجعت من أجله أمهات كتب الأدب والدين والأخلاق ، حتى برز والحمد لله الى عالم الوجود طرفة نفيسة وكتابا قيما » .

وقد وفى الاستاذ بما ذكر ، فله الشكر على ما صنع .

جمال الدين الأفغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق :

هو أحفل كتاب بتاريخ حياة هذا الفيلسوف الاسلامى الجليل . وضعه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد سلام مدكور الطالب بكلية الشريعة . فقد جمع فيه كل ما كتب فى جمال الدين من البحوث والتحليلات ، واستوعب كل ما حدث له من الحوادث ، وكل ما عمله فى حياته الفلسفية والسياسية ، ولم يدع لمن يريد التوسع فى معرفة سيرة هذا الرجل النابغة حاجة الى المزيد. فنرجو لهذا الكتاب الرواج العظيم .

إحياء علوم الدين للإمام أبى حامد الغزالى .

إن لهذا الكتاب من الشهرة المستفيضة ما يتفق وسمو موضوعه ، وحسن اسلوبه ، وسطوع أدلته ، ولا غرو فهو تأليف من أجمع أهل العلم على تسميته بحجة الاسلام ، وهو لقب لمن يتأمل فيه عظيم . ولقد رثت مؤلفات ، وأخلقت أساليب ، وابتذلت عبارات ، وخاصة فى نظر العقول المتمردة فى العصر الحديث ، ولكن هذا الكتاب لا يزال فى جدته الأولى حجة دامغة لسمو التعاليم الاسلامية ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان ، معتقدات وعبادات ومعاملات .

كان هذا الكتاب لا تزال تتولاه المطابع الأهلية بالطبع ، فكان العصريون لا يقبلون عليه ، ولكن لجنة نشر الثقافة الاسلامية تولت طبعه على الطراز الشائق الحديث ، مضافا اليه تخريج الحافظ العراقى ، فجاء رائعا فى موضوعه ، جميلا فى طبعه ، معجبا فى وضعه .

تم طبع سبعة أجزاء منه ، والهمة مبذولة فى طبع الباقى . تخابر فى الحصول عليه (لجنة نشر الثقافة الاسلامية) بشارع الناصرية رقم ١٣ بالقاهرة .

تاريخ الفن المصرى القديم :

اشتهرت مجلة الهلال باصدار ملاحق تنتخبها من عيون الموضوعات العلمية والفنية . وقد أصدرت أخيرا منها ملحقا بالعنوان المتقدم ، تأليف الأستاذ النابه محرم كمال الأمين المساعد بالمتحف المصرى . وقد تصفحناه فوجدناه يأتى على تاريخ الفن المصرى تفصيلا ، محلى بالصور البديعة . فهذا الكتاب فى نفسه يعتبر قطعة علمية فنية لا يجوز أن تخلو منه مكتبة مصرية . فنشكر مجلة الهلال على هذه الخدم المتوالية للعلم، ونرجو لها المزيد .